تاريخ العرب

عصر ما قبل الإسلام

تأليف

محمد مبروك نافع

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى — سنة ١٩٤٨

الطبعة الثانية — سنة ١٩٥٢

م. السعادة
بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لم يعد التاريخ ولا طرائق بحثه ودراسته فى جيلنا الحالى — كما كان فى أجيال مضت — مقصوراً على تدوين الأسماء وذكر السنوات وتقرير الحوادث بل أصبح علما فى معناه الأعم الأوسع يتناول كل معارفنا عن الإنسان : أعماله وأفكاره وآماله وأحاسيسه ، ويبين لنا كيف كان يعيش الفرد ، من عامة الناس أوخاصتهم ، فى حقبة ما من الزمن وماذا كانت النظم التى يخضع لها والمهن التى يحترفها والتطورات والتغيرات التى ساهم — بطريقة محسوسة له أو غير محسوسة — فى إحداثها وماذا استفاد من الأجيال السابقة له ، وأفاد الأجيال التالية فى كل ناحية من نواحى التقدم الإنسانى والرقى الاجتماعى .

وهذا الكتاب يعالج فترة هامة من التاريخ العربى كانت تبدو حتى أوائل هذا القرن عديمة الأهمية — تلك هى فترة « تاريخ العرب فى عصر ما قبل الإسلام » ولكن دراستها وتوضيحها من الناحية التاريخية أصبح ضروورة لازمة — وخاصة فى هذه الأيام الأخيرة التى يقف فيها العالم العربى بل العالم الإسلامى أجمع فى مفترق الطرق لا يدرى أيها يسلك ولا إلى أين يلقى عصا التسيار وهو يجتاز فترة من اليقظة والازدهار والتقدم السريع فى مدارج الحضارة العالمية غب التحرر من ربقة الاستعمار البغيض . أقول أصبحت دراسة تلك الحقبة ضرورة لازمة لمن يريد أن يدرس تاريخ العرب والإسلام دراسة صحيحة — ذلك لأن الإسلام أحدث ثورة كبرى فى عالم السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والعقيدة ، ولا يمكن أن يعرف مدى هذا التغيير الذى أحدثه الإسلام ولا تفهم دقائقه إلا إذا عرفنا البيئة التى ظهر فيها والملابسات التى اكتنفت ظهوره فى بلاد العرب نفسها قبل أن تخفق رايته على ربوع العالم المتمدين آنئذ عقب انتشاره .

إن المؤرخين كثيراً مايجانبهم الصواب ويعوزهم العطف والرفق فى أحكامهم فلقد مر حين من الزمن كان المؤرخون فيه يطلقون اسم « العصور المظلمة » على

العصور الوسطى ، تلك التى تلت سقوط الدولة الرومانية الغربية على أيدى القبائل المتبربرة وما تلا ذلك السقوط من اضطراب فى الأنظمة وتدهور فى الثقافة ، ولكن البحوث والدراسات التى تمت منذ أواخر القرن الماضى قد أثبتت أن العصور الوسطى لم تكن كلها فترة ظلام ، بل على النقيض كان الشطر الأكبر منها يزخر بالنشاط والإنتاج والرقى وتدين حضارتنا الحالية إليها — لا إلى اليونان والرومان كما كان يظن — بالشىء الكثير .

كذلك درج المؤرخون القدامى — من بدء تدوين التاريخ الإسلامى حتى أوائل هذا القرن — على اعتبار « عصر ما قبل الإسلام » — وكان أكثرهم لا يعرف حدوده ومدلوله — عصر همجية وإفلاس حضارى وتدهور أخلاقى وانحطاط فى مجال السياسة والدين ، فشوه هؤلاء المؤرخون تاريخ عصر ما قبل الإسلام فى قسوة ظاهرة . ولست أشك فى أنهم فعلوا ذلك بنية حسنة هى رغبتهم فى تمجيد الإسلام ورفع شأنه ، ولكنهم بنيتهم الطيبة هذه لم يحققوا كل غرضهم ، بل إنهم كثيراً ما أتاحوا فرصة للمغرضين من المستشرقين للطعن على الإسلام واتهامه بأنه دين بدائى جاء لشعب بدوى مع أن الإسلام نشأ فى أهم مركز حضرى فى بلاد العرب وهو مكة وكانت تعاليمه وتوجيهاته حضرية فى أساسها وقد حطم البداوة واتجاهاتها الفردية وقضى على العصبية المذمومة وأحل محلها رابطة الدين والعقيدة .

نحن لا ننكر أن صفة « الجاهلية » بمعناها الحرفى هذا كانت تنصب على بعض أجزاء البيئة العربية وفى بعض فترات من تاريخها ولكن الذى ننكره هو التعميم ، ولو كان العصر كله جاهلية لما أقر الإسلام ، لا الكثير من نظم المجتمع وتقاليده فحسب ، بل بعض ما يتصل بالدين وشعائره وطقوس العبادة وغير ذلك من الفضائل .

وإذا كانت الشعوب العربية والإسلامية تتطلع إلى استعادة مجدها وتقلد زمام الأمور فى بلادها فإن الواجب يقضى على رجالها أن يقبلوا على تاريخهم يتلمسون الأسس التى شيدت عليها مكانتهم الرفيعة فى عالم العصور الوسطى .

وهذا الكتاب الذى أقدم طبعته الثانية للقراء الآن هو محاولة لإلقاء ضوء — وإن يكن خافتا — على تاريخ بلاد العرب فى العصر السابق للإسلام وهو محاولة متواضعة ما فى ذلك شك رسمت فيها صورة سريعة لأولئك العرب الذين جعل الإسلام

منهم أمة واحدة حملوا رايته وثبتوا فى عواصم العالم المتمدين المعروف أن ذاك ما تضمنته مبادئه من سلام وأمن وعدل وإخاء كان العالم كله — لا بلاد العرب وحدها — فى حاجة إليها .

والله جل جلاله أسأل أن يوفقنا إلى خير ما نرجو وأن يكلأنا بعين رعايته الصمدانية إنه سميع مجيب .

محمد مبروك نافع

مصر الجديدة { ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٧١
٢٤ من فبراير سنة ١٩٥٢

مقدمة الطبعة الأولى

لم يعد خافيا أن العرب قد أصبحوا — وخاصة فى الآونة الأخيرة — يثيرون اهتمام العالم أجمع ، ذلك لأنهم أدركوا أنهم عادوا الآن ، كما كانوا من قبل ، يتحكمون تحكما خطيراً فى مصائر العالم من الناحيتين الحربية والاقتصادية ، بحكم موقع بلادهم الجغرافى ، وتوسطها بين الشرق والغرب .

ولقد أصابت العرب فى القرون القلائل الأخيرة إغفاءة طويلة ، فلم يقدروا خطورة موقفهم بالنسبة للأمم الأخرى ، فاستهدفت مصالحهم للعبث كما تعرضت مكانتهم للتجاهل ، ولكنهم عندما أخذوا — منذ أواخر القرن الماضى — يستيقظون من سباتهم ويتحركون من رقدتهم ليلبوا شعثهم ، بدأت القوات المتصارعة فى العالم تخطب ودهم ، وتتلمس رضاهم ، واتجه العلماء فى الغرب - وهم دائما الرواد الممهدون - إلى العناية بدراسة أحوالهم الحاضرة ، وتاريخهم القديم .

وإذا كان هذا شأن أهل الغرب فى العناية بتاريخ العرب ، فكم بالحرى يجب أن يكون شأننا ونحن ننتسب إلى ذلك الشعب العريق ، أو نفخر بأن نكون من سلالته .

وقد حاولت ، فى هذا الكتاب الذى أضعه بين أيدى القراء ، أن أرسم صورة واضحة لتاريخ العرب قبل الإسلام ، وتاريخ دولهم ، فى الجنوب ، والشمال ، والوسط ، والأدوار التى لعبها هؤلاء وأولئك ، فى معترك الحياة العالمية من سياسية واقتصادية ، منذ فجر التاريخ إلى مبعث سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم .

وما أحسب أنى فى حاجة إلى القول بأنه لا يلمس الصعوبة التى يعانيها من يتصدى للكتابة فى تاريخ العرب فى عصر ما قبل الإسلام إلا من كابدها .

ولست أدعى أنى قد أحطت بما لم يحط به أحد ، أو أنى وفيت الموضوع من جميع نواحيه ، بل أشهد أن هذا الحقل من حقول المعرفة التاريخية — بسبب قلة

الكشوف والبحوث ، ولأسباب أخرى — لايزال بكرا ، لم تقلب أرضه إلا فئوس قليلة ، وبحسبي أن أكون أحد العاملين فى هذا السبيل .

والله العلى القدير أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير ، وأن يهبنا من لدنه العون والقوة .

محمد مبروك نافع

القاهرة فى { ٨ رجب سنة ١٣٦٧
١٧ مايو سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

دراسات تمهيدية

١ — اضطراب تاريخ العرب قبل الإسلام وغموضه :

لايلقى الباحث فى التاريخ القديم عناء وجهداً كاللذين يلقاهما عند تعرضه للبحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولايرجع السبب فى ذلك إلى إيغال تاريخهم فى القدم فإن تاريخ أجدادنا الفراعنة أشد إيغالا فى القدم من كل تاريخ فى الأرض إذ يرجع تاريخهم الثابت المؤكد إلى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد ، هذا عدا تاريخهم الأسطورى الذى يمتد وراء ذلك بعشرات القرون .

ولقد كان هذا التاريخ الفرعونى قبل نحو قرن ونصف غامضا مضطربا شأن القديم من تاريخ العرب اليوم ، ولكن كشف حجر رشيد سنة ١٧٩٨ ميلادية وفك طلاسمه بعد ذلك والتمكن من معرفة الكتابة المصرية القديمة وقراءة ماحفر على جدران الهياكل والمقابر والتماثيل وغيرها من الآثار التى تملأ ربوع البلاد والتى صانها جفاف جو مصر وحفظها من الفناء ، وترجمة البرديات التى لاحصر لها والتى وجدت مدفونة وفى حالة حفظ جيدة مع موميات الفراعنة ـ كل ذلك ألقى ضوءاً وهاجاً على التاريخ المصرى القديم الذى كان غامضا ، ومكن علماء التاريخ من تصحيح ماورد عنه فى كتب المؤرخين القدامى من خطأ وتخليط حتى ضاقت دائرة التناقض والاختلاف ، وأصبحت الاختلافات فى تاريخ الفراعنة لاتعدو ما يعترضنا من اختلافات فى التاريخ الحديث بل وفى التاريخ المعاصر .

وشأن تاريخ بابل وأشور والفرس وغيرها من دول الشرق القديم شأن تاريخ مصر إلى حد كبير .

أما تاريخ العرب القدامى فشأنه يختلف عن ذلك كثيراً . حقيقة أن هناك كشوفا تمت فى بعض بلاد اليمن وفى شمالى شبه الجزيرة ، وأن الخطوط العربية القديمة هنا وهناك قد فكت طلاسمها ، ولكن على الرغم من ذلك لايزال المؤرخ يتهيب الكتابة فى تاريخ العرب قبل الاسلام لأن ماتم من الكشوف لم يكن كافيا وإن كان قد أماط اللثام عن وجود دول كان يجهلها مؤرخو العرب واليونان جهلا تاما ولأن الشطر الأكبر من وسط شبه الجزيرة وأطرافها لايزال بكراً لم تقلبه فأس منقب ولم تزل الرمال عما هو مطمور تحته من آثار قد تتسامى فى عظمتها إلى آثار بابل ومصر .

وسنبين فيما يلى مصادر التاريخ القديم عامة والتاريخ العربى القديم خاصة لنرى إلى أى مدى أفادتنا الأخيرة فى دراسة تاريخ العرب القدامى .

٢ — مصادر التاريخ القديم :

مصادر التاريخ القديم كثيرة :

أولها : ما كتبه الأقدمون عن أنفسهم فإن كان خطهم لايزال مستعملا أمكن بطبيعة الحال قراءته ومعرفة كل ما كتبه القوم عن أنفسهم . ومثال ذلك الخط اليونانى . وإن كان غير مستعمل وتمكن العلماء من حل رموزه كالخط الهيروغليفى والخط المسمارى ، كانت أهميته كمصدر للتاريخ كالخط المستعمل تماما . أما إذا كان غير مستعمل ولم يتمكن العلماء من فك طلاسمه فإنه يكون عديم الفائدة أو قليلها كمصدر من مصادر التاريخ .

وثانى مصادر التاريخ : هو ما خلفه القوم وراءهم من آثار مختلفة كالمعابد والمسلات والتماثيل والمقابر وغيرها فإن وجود هذه الآثار وبخاصة إذا كانت فى حالة جيدة تساعد على تفهم حالة الحاكمين والمحكومين الذين شيدوها ، ثم هى بما تحمل فى الغالب من نقوش وكتابات تنقل إلينا معلومات وأخباراً قد لايتطرق الشك إليها . وتعتبر المدافن بصفة خاصة عند المصريين القدماء من أهم المصادر لأن المصريين كانوا يؤمنون بالبعث وكانوا يعتقدون أن الأرواح ستعود إلى الأجساد ومن أجل ذلك كانوا يضعون مع الميت فى قبره أسلحته وملابسه وأثاثه وطعاما وشرابا وغير ذلك من الآنية .

أما ثالث مصادر التاريخ فهو ما كتبه مؤرخون قدماء ولكنهم جاءوا بعد الأزمنة التى وصفوها وهؤلاء المؤرخون إما وطنيون كتبوا عن تاريخ بلادهم أو أجانب كتبوا عن تاريخ بلاد غير بلادهم وقد تكون كتاباتهم خطأ أو مغرضة كما قد تكون صحيحة فهى على كل حال فى حاجة إلى التمحيص . وقد كانوا بطبيعة الحال يعتمدون فيما يكتبون على ماشاهدوه بعيونهم أونقل إليهم عن طريق الرواية أو كان مسجلا على الآثار وقد كانت مهمة معظمهم شاقة نظراً لعدم توفر وسائل البحث لديهم كما هى متوفرة لدى المؤرخين المحدثين الذين يستطيعون فى معظم الحالات قراءة الكتابات القديمة ومعرفة مادون الأقدمون عن أنفسهم .

وقد يضاف إلى هذه المصادر الثلاثة مصدر رابع وهو الأقاصيص المتداولة التى تمثل فى الغالب صفحات من الحياة اليومية للناس إلا أنه من الصعب استخلاص حقائق تاريخية ثابتة منها نظراً لما كانت تحشى به هذه الأقاصيص عادة من المبالغات والأكاذيب وهى تنتقل من جيل إلى جيل .

والتاريخ الأسطورى (الميثولوجى) لكل أمة وهو يسبق عادة تاريخها الحقيق إن كان يدل على شىء فهو يدل على ميولها وأمانيها ومبلغ إدراكها وطرائق تفكيرها .

أما مصادر التاريخ العربى القديم فهى :

١ — الكتب المقدسة
٢ — التفاسير
٣ — مؤرخو اليونان والرومان
٤ — مؤرخو العرب
٥ — النقوش الكتابية
٦ — آثار الجنوب
٧ — آثار الشمال
٨ — الآثار خارج الجزيرة
٩ — المستشرقون المحدثون
١٠ — الأدب العربى

٣ — الكتب المقدسة :

وأقدم هذه الكتب التوراة وفيها شىء كثير عن أحوال الأمم العربية فى سفر التكوين أول أسفارها الذى ذكر الكثير من أخبار سام وأولاده وقصة إبراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام كما جاء فيها ذكر بلقيس ملكة سبأ وقصتها مع سليمان

عليه السلام فى سفر الأيام الثانى وغير ذلك من أخبار الملوك والقبائل فى سفر نحميا وغيره .

أما القرآن الكريم فهو أصدق المصادر المقدسة وقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود اللتين انفرد بذكرهما دون بقية الكتب المقدسة كما جاء فيه بعض أخبار ملوك اليمن كقصة ملكة سبأ وقصة اسماعيل جد العرب العدنانية ومسألة سيل العرم ، وغير ذلك ، وقد أيدت الكشوف الحديثة صحة ما ورد فى القرآن عن مساكن ثمود وسيل العرم وغيرها .

ويجب أن نلاحظ أن المستشرقين لايعتبرون الكتب المقدسة من مصادر التاريخ التى يصح الاعتماد عليها .

٤ — التفاسير :

وأقصد بها الشروح المسهبة والتعليقات الطويلة التى اعتبرها المفسرون مكملة وموضحة لما أجملته آى القرآن المحكمة الرصينة فإن الشطر الأكبر من هذه المبالغات والخرافات إنما هو من ابتداع خيال المفسرين ومما دسه عليها اليهود والمجوس لأغراض فى نفوسهم فهذه يجب الحذر منها وعدم الأخذ بها ، وقد يكون المفسرون حسنى النية وإنما لجأوا إلى هذه المبالغات لإظهار أن القوم وصلوا إلى درجة كبيرة من العظمة وأن القصاص الذى نزل بهم عندما عصوا أمر ربهم ولم يستمعوا لأنبيائه كان يتناسب مع ما وصلوا إليه من عظمة .

٥ — مؤرخو اليونان والرومان:

جاء ذكر العرب عرضا فى تاريخ هيرودوت (المتوفى سنة ٤٠٦ ق . م .) أثناء كلامه عن الحرب بين قمبيز والمصريين فى القرن السادس قبل الميلاد .

وأشار أرطستينى (المتوفى سنة ١٩٤ ق . م .) وديودور الصقلى (المتوفى سنة ٨٠ ق . م .) إلى العرب فى كتبهم .

وأفرد استرابون اليونانى (المتوفى سنة ٢٤ م) فصلا فى مؤلفه الجغرافى ذكر فيه مدن العرب وقبائلهم وشيئا عن أحوالهم التجارية والاجتماعية .

وخصص بطليموس الجغرافى الشهير الذى مات سنة ١٤٠ م جزءا من كتابه ذكر فيه قبائل بلاد العرب ومدنها وحدد موضعها بالدرجات كما شرح الكثير من أحوال العرب التجارية وغيرها وفصل ما أجمله سابقوه تفصيلا .

وعلى الرغم من تشتت ما كتبه هؤلاء اليونان والرومان وغيرهم كيوسفيوس اليهودى (المتوفى سنة ٩٣ م) فإنهم بلا شك قد ألقوا ضوءا وإن يكن خافتا على تاريخ العرب القديم .

٦ — مؤرخو العرب :

لم يكتب مؤرخو العرب تاريخا خاصا لبلاد العرب قبل الإسلام ولم يتجاوز كل ما كتبوه أن يكون مقدمات لتواريخهم المفصلة الدقيقة للعصر الاسلامى وحتى هذه المقدمات فإنها لم تكن مفصلة ولا دقيقة وأوجه الخلاف بين المؤرخين فى أسماء الدول والملوك وحوادث التاريخ ومدد الحكم كثيرة وفى بعض الحالات يظهر التناقض بينها .

وأكثر ما اعتمد عليه مؤرخو العرب فى رواية تاريخ العصور السابقة للإسلام هو الأدب العربى من نظم ونثر الذى كان يتناقله الرواة مشافهة كما أنهم اعتمدوا على بعض آثار اليمن حيث كان الخط المسند لايزال يقرؤه بعض علماء القرى وكذلك اعتمدوا على بعض كتب النصارى التى وجدت فى الأديرة والكنائس فى العراق والشام . وعلى ما تلقطوه من أفواه اليهود فى اليمن والحجاز وغيرها .

ولقد حشا هؤلاء المؤرخون أخبـــارهم بالمبالغات والخرافات كما فعل المفسرون تماما .

وإن المتصفح لما كتبه أمثال ابن اسحاق (المتوفى سنة ١٥١ ه) وابن هشام (المتوفى سنة ٢١٨ ه) وابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦ ه) واليعقوبى (المتوفى سنة ١٧٧ ه) والطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ ه) والمسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ ه) وياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ ه) وابن الأثير (المتوفى سنة ٦٥٠ ه) وأبو الفدا (المتوفى سنة ٧٣٥ ه) وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٧ ه) - أقول إن المتصفح لما كتبه هؤلاء العمد الأفاضل ليعجب للدقة التامة والتحرى الصحيح الذى عالجوا به تاريخ الاسلام فى معظم الحالات بقدر مايأسف على الإهمال والخلط الذى صحب

كتابتهم عن عصر ما قبل الإسلام ولعل لهم العذر فقد كانت الأخبار تتناقل على الألسنة بدون تدوين أو ضبط. كما أن الخط العربى فى أول الأمر كان مهملا فكانت الباء والتاء - والحاء والجيم والخاء - والسين والشين الخ . يلتبس فى قراءتها .

وقصارى القول أن ما كتبه مؤرخو العرب عن عصر ما قبل الإسلام يجب أن لا يؤخذ على علاته وأن يتناول بمنتهى الحيطة والحذر .

٧ — النقوش الكتابية :

وهذه هى التى ألقت أول ضوء وهاج على التاريخ الصحيح لبلاد العرب قبل الإسلام .

إن أول ما حصل عليه من النقوش الكتابية من بلاد العرب كان صورة محشوة بالأغاليط لخمسة نقوش حصل عليها سيتزن Seetzen سنة ١٨١١ ثم بدأ البحث العلمى بعد ذلك إذ حصل هاليفى Halévy على ٦٠٠ نقش فى سنة ١٨٩٦ ثم أخذ عدد النقوش يزداد بالتدريج حتى حصل جلازر Glaser فيما بين عامى ١٨٨٢ - ١٨٨٨ على ١٠٣٢ نقشا آخر كانت هى وما سبقها عمدة العلماء فى كل المعلومات عن تاريخ العرب قبل الإسلام . وهذه النقوش مكتوبة بلغات عدة أهمها اللغة المعينية واللغة السبئية ولهجة أخرى من اللهجات المعينية ، وقد عدت كلها من باب التساهل حميرية ، وهى كلها لغات سامية تمت بصلة إلى الأكادية (البابلية الأشورية) وإلى الأثيوبية الحبشية مما يشعر أن موجة من موجات الثقافة ربطت ما بين العراق وبلاد العرب وشرق أفريقية . ومما هو جدير بالذكر أن لغتى مهرة (جنوب بلاد العرب) وسوقطرا الحاليتين تضمان عناصر تشبه عناصر هذا اللغات القديمة ، أما خط هذه النقوش فهو تطور من الخط الفينيقى الذى كان مستعملا فى القرن الثامن قبل الميلاد وما بعده وهو الأصل فى الخط الذى لا يزال مستعملا فى الحبشة . وتزخرف بعض هذه النقوش رسوم لحيوانات ونباتات مما يشير إشارة واضحة إلى مدى تأثير الفن الأشورى المتأخر فيها .

وننتقل الآن إلى الكلام فى الآثار وقد آثرنا أن نقسمها إلى آثار الجنوب وآثار الشمال.

٨ — آثار الجنوب :

كانت بلاد اليمن وحضرموت أهم أجزاء بلاد العرب التى كثر مرتادوها من علماء

الآثار والتى كثرت دراساتهم فيها ولا غرو فهى غاصة بآثار الحضارتين المعينية والسبئية ، ولقد زار آثار مأرب عاصمة سبأ القديمة أكثر من واحد من العلماء نخص بالذكر منهم أرنو Arnaud وهاليفى Halèvy وجلازر Glaser وجمعوا من بين أنقاضها عددا من النقوش المعينية والسبئية محفورا على الحجر الجيرى أو البرونز ، ولقد درس أرنو دراسة تفصيلية سد مأرب المشهور ورسم خريطة له ، كما درس بعض آثار صنعاء والخريبة وحرم بلقيس وقاسى فى أثناء أبحاثه هذه مر العذاب ، وكان ينقل الرسوم سرا تحت خطر القتل، وأصابه فى أثناء العمل رمد أودى ببصره .

وقفى على أثره هاليفى ، فجاس خلال اليمن وزار كثيرا من الآثار ونقل نقوشها وتمكن من كشف مدينة معين عاصمة دولة المعينيين التى ذكرها اليونان وكان العرب لا يعرفونها .

وكان لجمعية الآثار السامية فضل كبير فى حل طلاسم الكثير من النقوش التى عاد بها المستكشفون ، وكان علماء الألمان أصحاب القدح المعلى فى ذلك . ولا تحمل الآثار التى حصل عليها تواريخ تدل عليها ، ولكن العلماء يرجعونها إلى الفترة ما بين سنة ٨٠٠ ق . م . وسنة ٦٠٠ م .

٩ — آثار الشمال :

لم يكن نصيب الشمال من اهتمام علماء الآثار بأقل من نصيب الجنوب وذلك على الرغم من أن وسائل البحث العلمى ومسهلاته لم تكن ميسورة لدى هؤلاء العلماء ، فلقد كشف العلامة دوتى Doughty سنة ١٨٧٦ عددا من المقابر النبطية المحفورة فى مدائن صالح ورسمها ونقل نقوشها كما كشف برتن Burton سنة ١٨٧٧ مقابر نبطية أخرى أثناء فحصه عن مناجم الذهب فى مدين ، وعثر بعض الكاشفين على مقابر رومانية فى حدود الحجاز الشمالية وفى تيماء عثر هوبير سنة ١٨٨٣ على النقش السامى المشهور المحفوظ الآن فى متحف اللوفر ، وعثر دوتى أثناء جولاته بين خيبر والحائل على عدة قبور قديمة مملة بحجارة مستطيلة رأسية ، وفى بعض بلاد نجد كشف بلى Bely عن عمود مسيحى حطمه الوهابيون . وتوجد فى وادى سرحان بعض الآثار الرومانية والعربية القديمة وهى أبنية من البازلت عليها نقوش . وعلى مقربة من الطائف عثر دوتى على مشروع تمثال هائل على صورة آدمى يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، وقد قرر هو وآخرون أنه كان بالطائف تمثالان من الحجر لا شكل لهما كان يعبدهما القدماء

على أنهما اللات والعزى وقد حطمهما الوهابيون. ويظن أن ثالث هذين التمثالين ـ وهو تمثال مناة الذى قد يرجع إلى عصر ماقبل التاريخ أيضا ـ يوجد إلى الجنوب من الطائف . وقد كان لأمنا « حواء » قبر فى جدة حطمه الوهابيون سنة ١٩٢٧ .

هذا ، وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن الآثار خارج شبه الجزيرة ، يجدر بنا أن نشير إلى أن العلماء يرجحون أن مدناهائلة لاتزال مطمورة تحت رمال «الربع الخالى» وأن أكبر خدمة تؤدى لتاريخ العرب قبل الإسلام هى أن تعبد للعلماء سبيل الكشف عن هذه الآثار .

ولقد أرسلت كلية الآداب فى صيف ١٩٣٦ بعثة للتنقيب عن آثار اليمن .

١٠ — الآثار خارج الجزيرة :

أو بعبارة أدق المصادر المنقوشة على الآثار خارج بلاد العرب . والتى تشير من قرب أو بعد إلى أحوال العرب وتاريخهم، فقد حصل فى آثار بابل على نقوش بالخط المسمارى تشير إلى دول تولت حكم بابل يرى بعض المؤرخين أنها عربية ، كما أن بعض المؤرخين يحاول أن يصف الهكسوس الذين فتحوا مصر فى أواخر الأسرة ١٣ (حوالى سنة ١٦٧٥ ق . م .) بأنهم عرب مع أن الكشوف الحديثة تؤيد أنهم من آسيا الصغرى ، وأنهم تحركوا على أثر اضطرابات هجرية كان منشؤها سهول أوروبا الوسطى .

وفى رأينا أن مانقل من الآثار خارج بلاد العرب لايمكن أن يؤخذ منه ما يفيد بصيغة الجزم تاريخ العرب قبل الإسلام .

١١ — المستشرقون المحدثون :

وهم جماعة من العلماء الأوربيين عكفوا على دراسة اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية حتى حذقوها ، ثم تخصص كل منهم بعد ذلك فى دراسة فرع من فروع الأدب أو التاريخ العربى أو الشرقى فى مصادره الأصلية فلم يتركوا ـ فى صبر وجلد ـ شاردة منه ولا واردة إلا فحصوها ووزنوها بميزان النقد العلمى الحديث ، وقد أنفق الكثير منهم عمره فى ترجمة مرجع عربى أو شرقى إلى لغته الأصلية سواء أكانت الألمانية أم الفرنسية أم الإنجليزية أم الإيطالية والتعليق عليه ومراجعته على المصادر الأصلية

الأخرى المطبوع منها والمخطوط ، وقد كتب الكثير منهم كتبا فى الأدب العربى أو التاريخ الإسلامى ، تستهوى الباحث بحسن ترتيبها وجمال تبويبها وتركيز المعلومات فيها تركيزا لايجهد القارىء فى البحث ولا يكلفه عناء الاستقصاء . وتجعل بعض المحدثين من رجال عصرنا يعيشون عالة عليها يلتمسون العلم من أسهل مناهله وأقرب موارده .
ولئن كان البعض من هؤلاء المستشرقين يركب هواه فى بعض الأحيان فيخون العلم فى سبيل تحقيق غرض دينى فى الغالب ، إلا أن الجمهرة منهم تغلب عليهم النزاهة العلمية وبخاصة إذا كان الموضوع الذى يعالجونه غير شديد المساس بالدين .

وفى موضوع كموضوع تاريخ العرب قبل الإسلام .أرى أن الاعتماد عليهم ـ وبخاصة لأنهم أعرف الناس بالكشوف الحديثة فى بلاد العرب يكون اعتمادا مأمون العاقبة إلى حد كبير .

١٢ — الأدب العربى :

قلت فى الفقرة السادسة إن من أكثر ما اعتمد عليه مؤرخو العرب فى رواية تاريخ العصور السابقة للإسلام هو الأدب العربى ، من نثر ونظم . الذى كان يتناقله الرواة مشافهة ، وأقرر الآن هنا أنه فى ضوء البحث العلمى الحديث يصعب الاعتماد على الأدب العربى كمصدر هام من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام لعدة أسباب :
منها أن هذا الأدب لايرجع إلى أكثر من عصر الجاهلية وهو جزء من عصر ما قبل الإسلام يقدر له العلماء زمنا يتراوح بين قرن ونصف وقرنين ونصف قبل ظهور الإسلام مباشرة ، بينما يقدر العلماء لعصر ما قبل الإسلام مدة تتجاوز الثلاثين قرنا تمتد من سنة ١٥٠٠ ق . م . إلى سنة ٦٢٢ ميلادية .

ومنها ماتسرب فى السنوات الأخيرة إلى هذا الأدب من الشك إذ يرى فريق من المستشرقين وبعض المحدثين وعلى رأسهم أستاذنا الدكتور طه حسين أن الشعر الجاهلى ـ لأنه كان يتناقل مشافهة دون تدوين وبسبب الخلاف الكبير فى بعض رواياته ولأسباب لغوية أخرى ـ إنما هو كله أو الشطر الأكبر منه ملفق أتقن تزويره حماد الراوية وخلف الأحمر من الرواة فى القرن الثامن الميلادى .
وإذا كانت نظرية تلفيق الشعر الجاهلى خاطئة فإن ماوصل إلينا منه مع ذلك ـ إذا استثنينا بعض القصائد كالقصيدة الحميرية التى يعدد فيها أسماء الملوك المثامنة والأذواء

المستقلين من حكام اليمن ـ ليس فيه غناء كبير فيما يتعلق بالتاريخ السياسى وأسماء الدول والملوك إذ هو قاصر على وصف بعض أخلاق العرب ومعتقداتهم الدينية وعاداتهم وغير ذلك.

أما ماينسب إلى بعض قوم طسم وجديس من الشعر وغيره ، فلا يعدو فى نظرنا أن يكون نسيجا جميلا من خيال الشعراء أو الرواة المتأخرين .

١٣ — موطن الجنس السامى الأول وهل هو بلاد العرب :

ليس من شأننا فى هذا البحث أن نتعرض لمسألة الطوفان ، وهل كان عاما شمل الكرة الأرضية أم كان قاصراً على منطقة دجلة والفرات، وإنما يكفى أن نذكر هنا ما روته التوراة من رسو سفينة نوح عليه السلام بعد انحسار الطوفان على جبل أراراط فى هضبة أرمينيا (الإصحاح الثامن من سفر التكوين) ومن ثم تفرق أبناء نوح ، فسار يافث إلى الشرق وسار حام إلى الغرب أما سام فإنه نزل إلى الجنوب. واختلف الباحثون فى المكان الذى استقر فيه الساميون الأول ، وتتلخص آراؤهم فى القول بأن الساميين قد أخذوا نشأتهم الأولى فى واحد من الأماكن المختلفة الآتية :

١ ـ عند مصب النهرين   ٢ ـ فى بلاد كنعان
٣ ـ فى بلاد الحبشة   ٤ ـ فى شمال أفريقية
٥ ـ فى بلاد العرب .

وأنصار الرأى الأول يعتمدون على قصة التوراة السالفة الذكر، ويحددون بابل مستقرا أول لبنى سام بعد نزوحهم من جنوب أرمينيا .

وأصحاب الرأى الثانى يرون أنه فى الوقت الذى دخل فيه الساميون العراق كانت تلك البلاد آهلة بالسومريين المتمدينين ، وأن الساميين فى سوريا أنشأوا مدنية أقدم من مدنية سامى العراق ، وإذاً فبلاد كنعان هى المهد الأول للأمم السامية .

وأتباع الرأى الثالث يعتقدون أن الجنسين السامى والحامى كانا فى العصور القديمة فى أفريقية ، ويعتمدون على الصلات اللغوية بين اللغات السامية والحامية .

وأصحاب الرأى الرابع يجعلون مهد الساميين الأول فى شمال أفريقية، ولا يزيدون شيئا على ماذكره أنصار الرأى الثالث .

وأنصار الرأى الخامس يؤكدون أن أواسط الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل التاريخ كانت آهلة بالسكان ، وأن منها ابتدأت هجرة الساميين إلى أطراف الجزيرة وما وراءها ، ومن معضدى هذا الرأى الدكتور العنانى ، وهو يدلل على صدق النظرية بأدلة ترجع إلى الجهة اللغوية ووحدة التفكير واتحاد العقلية والاشتراك فى نوع الخيال عند جميع الأمم السامية واصطباغ كل ذلك بصبغة واحدة أصلها وحى الصحراء وقوامها حياة البداوة ، وأن الشعوب السامية التى تحضرت فى أطراف الجزيرة ظلت محتفظة بنوع التفكير والخيال السالف الذكر (راجع الباب الثانى من الجزء الأول من كتاب الأساس للأستاذ الدكتور العنانى والأستاذين محرز والأبراشى).

ومن يؤيد هذا الرأى أيضا الأستاذ جورج سمث George Smith إذ يذكر فى كتابه « الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة » أن الشام هو الطرف الشمالى للوطن السامى الأكبر وهو جزيرة العرب وآخر معضدى هذا الرأى أيضا الأستاذ فلبى Philby الذى صدر كتابه عن عصر ماقبل الإسلام أخيرا سنة ١٩٤٧ فقد ذكر فى فاتحة هذا الكتاب وعنوانه Back ground of Islam مانصه: « إلى أن يثبت أن الساميين جاءوا إلى بلاد العرب من بلاد غيرها يلزمنا أن نعتبر جزيرة العرب الوطن الأصلى للساميين ولعله من الممكن تحديد هذا الوطن فى القسم الجنوبى من هذه الجزيرة » .

ولقد كان الرأى الأكثر رجحانا حتى العقود الأولى من هذا القرن هو الرأى الأول الذى يعتمد على قصة التوراة السالفة الذكر، ولكنها أصبحت مرجوحة الآن وتغلب عليها الرأى الخامس القائل بأن بلاد العرب هى مهد الجنس السامى إذ استبعد أن ينتقل شعب من طور الرقى الزراعى على ضفاف نهر إلى طور البداوة فى أرض مراعى أو صحراوات . وهذه النظرية الحديثة تقرر أن بلاد العرب فى الأزمان السحيقة كانت ـ بسبب اختلاف مناخها فى ذلك الوقت عما هو الآن ـ أكثر خصبا مما هى عليه الآن وأن نجداً كانت إذا زاد عدد سكانها زيادة لاتحتملها قدرة الأرض على إعالتهم ينبعث الناس منها فى هجرات على شكل تقاطر تدريجى ، كما هو حال الهجرات فى أيامنا هذه ، إلى البلاد المجاورة ، وكانت شبه الجزيرة تشبه حوضا ضخما يفيض بالبشر ويقذف مايطفح به إلى الخارج . وكانت الفترة بين الموجة الهجرية والتى تليها نحو ١٠٠٠ سنة . ويحددون منتصف الألف الرابع قبل الميلاد بدأ لتلك الهجرات التى حفظها لنا التاريخ والتى لابد أن تكون قد حدثت هجرات قبلها قبل عصر التاريخ :

فى سنة ٣٥٠٠ ق . م . تقريبا حدثت هجرة سامية إلى الشمال الشرقى إلى وادى الفرات الأدنى حيث بلاد بابل ، وفى نفس الوقت تقريبا تحركت هجرة سامية أخرى إلى الشمال الغربى حيث بلاد مصر .

وحوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م . أى بعد ألف سنة تقريبا من الهجرات السابقة تحركت هجرة سامية أخرى إلى الشمال ، وهى التى أحلت معها العاموريين والكنعانيين والفينيقيين فى بلاد سوريا وسواحل البحر الأبيض الشرقية .

وحوالى سنة ١٥٠٠ ق.م . تحركت هجرة إلى بلاد فلسطين وجنوب سوريا ، وهى التى حملت معها الآراميين فى الأولى والعبرانيين فى الثانية ، وفى نفس الوقت تقريبا تحركت هجرات سامية أخرى إلى الجنوب حيث بلاد اليمن.

وحوالى سنة ٥٠٠ ق . م . كانت هجرة الأنباط إلى الشمال الشرقى من شبه جزيرة سيناء وعاصمتهم بطرة أو « البتراء » تقع فى جنوب بلاد الأردن الحديثة .

وبعد سنة ٦٠٠ ميلادية كانت حركة الغزو الإسلامى الرائعة التى امتدت شرقا وغربا فكان من نتائجها تكوين الإمبراطورية العربية التى لم تسبقها إمبراطورية فى عظم مساحتها . وتمشيا مع هذه النظرية يحق لنا أن نتساءل هل حدثت موجات هجرية بعد نحو ألف سنة من هذا الفتح ؟. ونحسب أن الجواب على ذلك قد نجده فى الحضارمة سكان السواحل الجنوبية لبلاد العرب الذين استوطنوا بعض جزائر أندونيسيا وسواحل أفريقيا الشرقية . وباستعراضنا أهمية هذه الهجرات فى التاريخ نجد أن الحضارات القديمة كانت نتيجة امتزاج هذه الشعوب السامية مع السكان الأصليين فى البلاد التى نزحوا إليها . ومكانة المصريين القدماء والبابليين والعبرانيين فى التاريخ العالمى مشهورة ليس هنا مقام التعرض لها.

١٤ — معنى كلمة عرب :

ذكر الأستاذ نولدكى Noldeke فى تاريخ المؤرخين للعالم أن الظاهر أن كلمة « عرب » معناها « صحراء » .

وكان ورودها لأول مرة بنفس هذا المدلول فى النقوش الأشورية التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

وفى التوراة وردت فى سفر أرميا فى الإصحاحين الثالث والخامس والعشرين بما يستفاد منه أن المقصودهم سكان البادية . وفى بعض نقوش دارا كان يقصد من لفظ « عرباية » صحراوات العراق والشام وسينا . ويفهم مما كتبه هيرودت أنه كان يقصد بالعرب سكان المنطقة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب . ولفظ « عرب » فى التاريخ القديم كان يرادف لفظ « بدو » أو « بادية » فى هذه الأيام . ويرى بعض علماء العبرية أن كلمة عبرى ترتبط بكلمة عربى ارتباطا لغويا متينا لأنهما مشتقان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد وأنهما مشتقان من الفعل الثلاثى «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو الوادى أو النهر من عبره إلى عبره أو من عبر السبيل شقها ، وذلك لأن العرب والعبرانيين كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى .

ويرى بعض المؤرخين ـ ويجاريهم فريق من المستشرقين ـ أن كلمة عرب مشتقة من يعرب بن قحطان وأنه أطلقها على بعض أقاليم تهامة ومن ثم شاعت على العرب . وفى كتب العرب القدامى أن العرب إنما سموا بالعرب لأنهم كانوا موسومين بين الأمم بالإعراب وهو البيان .

وهناك رأى يقول إن كلمة عرب مشتقة من « غرب » وأن العرب إنما سموا بذلك لارتحالهم من وطن الساميين الأصلى وهو ما بين النهرين إلى الغرب إذ اللغة السامية لا عين فيها فعرب ترادف غرب .

وبمناسبة لفظ « عرب » نذكر أن أهل بابل وبعض السوريين القدامى كانوا يطلقون على العرب لفظ Taits التى يرجح أنها مشتقة من طىء سكان شمال نجد .

وهناك لفظ آخر هو Saracens كان يطلقه الرومان على البدو المجاورين لبلادهم فى الصحراء الممتدة غرب الفرات ، ثم شاع استعماله بعد ذلك فصار يطلقه الأوربيون على العرب كافة ثم على المسلمين بدون تمييز ثم على أهل الشرق جميعا . ولعله مشتق من لفظ شرق العربية وإن كان يحاول البعض أن يقرر أنه مشتق من لفظ « صحراء » أيضا .

الباب الثانى

الوطن العربى

١٥ — موقع شبه جزيرة العرب وحدودها :

تقع شبه جزيرة العرب فى الطرف الغربى من قارة آسيا ، وهى مستطيل غير متوازى الأضلاع شماله فلسطين وبادية الشام وشرقه الحيرة ودجلة والفرات وخليج فارس وجنوبه المحيط الهندى وخليج عدن وغربه البحر الأحمر .

ويبلغ طوله أكثر من ألفى كيلومتر وعرضه أكثر من ألف وخمسمائة من الكيلومترات ومساحته تزيد عن مساحة الهند .

وبلاد العرب جزء من صحراء كبرى ممتدة فى شمال أفريقية وغرب آسيا ولا يفصلها عن آسيا إلا حوض النيل وأخدود البحر الأحمر الذى تحفه الصخور النارية على جانبه .

ويطلق العرب على بلادهم اسم جزيرة العرب وفى هذه التسمية كثير من التسامح إذ الواقع أنها لم تتم إحاطتها بالماء ، ويعلل جغرافيو العرب تسميتها بالجزيرة « لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أطرافها وأقطارها فصاروا منها فى مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك لأن الفرات يقبل من بلاد الروم ماراً ببلدة قنسرين ثم ينحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً فى خليج عمان من بحر الهند ويأخذ البحر فى ذلك الوضع مغربا طائفا ببلاد العرب منعطفا عليها إلى بلاد عمان والشحر وحضرموت إلى تهائم اليمن ويمضى إلى ساحل مكة وساحل المدينة ثم ساحل الطور وخليج أيلة وخليج القلزم والنيل حتى بحر الروم الذى تقع عليه سواحل الأردن وبيروت وسواحل دمشق وسواحل قنسرين وهى الناحية التى أقبل منها الفرات منحطاً إلى أعلى أطراف الجزيرة وسواد العراق الخ » (راجع معجم البلدان لياقوت وصفة جزيرة العرب للهمدانى) .

وهذا التحديد وإن كان يسهل فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة إلا أنه يتطلب أن تعتبر ولايات الشام وفلسطين والأراضى المصرية الواقعة شرقى فرع دمياط من ضمن بلاد العرب وهذا غير مرضى عند الجغرافيين المحدثين ولا هو منطبق على المصطلح الجغرافى ولا على الواقع .

١٦ — بلاد العرب فى نظر الجغرافيين القدامى :

فيما خلا الجزء الجنوبى الغربى حيث بلاد اليمن والجزء الشمالى المتاخم للشام ومصر كانت بلاد العرب مجهولة تماما لدى القدماء فلم تطأها أقدامهم إذ عصمتها الصحراوات والبحار المحيطة بها من الغزو الاستعمارى أو الغزو الدينى ، كما عصمها كذلك ترامى أطرافها وعدم جودها بما يغرى الغزاة على تجشم المصاعب فى سبيل غزوها .

ورد فى القاموس الكلاسيكى للأستاذ وليم سمث William Smith أن بلاد العرب كانت تنقسم قديما إلى ثلاثة أقسام :

(١) بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea وهى عبارة عن المثلث المنحصر بين خليجى البحر الأحمر (شبه جزيرة سينا) والمنطقة التى تليه إلى الشمال والشمال الشرقى . وكانت عاصمتها مدينة بطره Petra وقد سميت بهذا الاسم إما نسبة إلى عاصمتها أو إلى طبيعة المنطقة الصخرية .

(٢) بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta وهى تشمل بادية الشام وجزءاً من داخل شبه الجزيرة .

(٣) بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وهى تشمل بقية أجزاء البلاد ماعدا الجزءين السابقين .

وجهل القدماء بداخل بلاد العرب هو الذى دعاهم إلى احتسابه ضمن بلاد العرب السعيدة (أو الخضراء) مع أنه فى الواقع يعتبر من بلاد العرب الصحراوية ، أما ما يصح أن يطلق عليه اسم بلاد العرب السعيدة فهو الجزء الجنوبى الغربى حيث بلاد اليمن التى كانت فيها حضارة معين وسبأ .

١٧ — وصف بلاد العرب الطبيعى :

يمكن بالإجمال وصف بلاد العرب بأنها هضبة مرتفعة لايقل ارتفاع أى جزء فيها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر .

وهذه الهضبة تنحدر انحدارين أحدهما نحو الغرب والآخر نحو الشرق ويبدأ الانحداران من سلسلة جبال تقع فى غرب شبه الجزيرة وتعرف باسم جبال السراة وهى تمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث تصل إلى أعلى ارتفاعها وهو عشرة آلاف قدم (أو أكثر من ٣٠٠٠ متر) .

أما الانحدار الغربى فهو شديد ، وتحصر سلسلة الجبال فيما بينها وبين ساحل البحر الأحمر واديا ضيقا متوسط عرضه خمسة عشر ميلا (نحو ٢٩ ك م .) وأقصى اتساع له ثلاثون ميلا (نحو ٥٧ ك م .) تتخلله عدة وديان لايستفاد منها بل قد تعوق سير القوافل فى بعض الأحيان .

وأما الانحدار الشرقى فهو انحدار تدريجى لايكاد يلمس ويصحبه انحداران آخران أحدهما ناحية الشمال الشرقى والآخر ناحية الجنوب الشرقى .

وهذا الوصف الذى ذكرناه يظل صحيحا اللهم إلا فى الجنوب الشرقى حيث تبرز سلسلة من الجبال فى عمان هى المعروفة باسم الجبل الأخضر يبلغ ارتفاعها نحو عشرة آلاف قدم أيضا (أو أكثر من ٣٠٠٠ متر) .

وإذا استثنيت بلاد اليمن وعمان وبعض الوديان الواقعة فى سلسلة الجبال الغربية وفى نجد والأحساء أمكننا أن نصف بلاد العرب بأنها قفر مجدبة .

وتسقط الرياح الموسمية الجنوبية الآتية من ناحية الحبشة بعض الأمطار فى بلاد العرب وتستفيد بلاد اليمن بأكبر قسط منها إذ تصدها الجبال العالية فيزرع هناك البن والحبوب والفاكهة ، وفى الجهات التى هى أقل مطرا من هذه المنطقة تنبت أشجار الصمغ والبخور .

أما عمان فتحمل إليها الرياح الموسمية الشمالية الشرقية بعض الأمطار وأما حضرموت فلا تستفيد من هذه الرياح الموسمية بسبب محاذاة جبالها لمهب الرياح .

وحيثما يسقط المطر فى بلاد العرب ينبت الكلأ وتتيسر سبل الحياة وفيما عدا

ذلك فكل البلاد عبارة عن صحراء شاسعة بعثرت فوق أديمها بعض الواحات التى يوجد فيها بعض الماء ، وتكثر فيها زراعة النخيل وبعض البقول ، وتحف بها بعض المراعى ، وتربط طرق القوافل هذه الواحات بعضها ببعض . وفى غير هذه الأماكن لايقع بصرك على سكان .

والوصول إلى عمان ميسور من ناحية البحر حيث يعيش فريق من السكان على صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ فى الخليج الفارسى . أما عن طريق البر فترتبط باليمن عن طريق شبوة ولكن الطريق طويل وشاق .

وتغطى الحشائش حافة الصحراء الجنوبية التى تفصل بين عمان واليمن وبينها وبين نجد .

وليس فى بلاد العرب أنهار ولا غابات ، وأقصى ما وصل إلى علمنا هو وجود بحيرتين أو ثلاث بحيرات صغيرات فى منطقة الأحساء .

(والأحساء والحساء — كما فى كتب العرب — جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ، ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء) .

وقد قسم الأستاذ فلبى Philby العالم الخبير ببلاد العرب شبه الجزيرة إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

(١) قسم أوسط أو قلب هو عبارة عن صحراء صلبة فيها عدة وديان وواحات تقوم بأود عدد لايستهان به من السكان المقيمين .

(٢) دائرة كاملة من الكثبان الرملية تحيط بالقسم الأول وتتسع ناحية الشمال وناحية الجنوب .

(٣) دائرة خارجية تطوق الثانية ، وبعض هذه الدائرة نجاد وبعضها وهاد وبعض أجزائها قفر عار والبعض الآخر مزروع وغاص بالسكان .

(١) أما القسم الأول فهو نجد .

(٢) وأما القسم الثانى فإنه يشمل صحراء النفود الشمالية والدهناء والربع الخالى .

(٣) وأما القسم الثالث فإنه يشمل مدين والحجاز وعسير واليمن وحضرموت وعمان والأحساء .

وتتكون مرتفعات عسير واليمن وجزء من حضرموت ما كان يسميه الجغرافيون القدماء ببلاد العرب السعيدة . ومناخ هذه الأجزاء معتدل وأمطارها كافية وتربتها خصيبة .

وتنطبق هذه الأوصاف أيضا على عمان التى تروى ساحلها نهيرات تستمد ماءها من الجبل الأخضر . ولا يقل خصبها وإنتاجها عن أى جزء من الأجزاء السابقة . أما فيما عدا هذه الأجزاء فالغلبة للصحراء التى يبرقش أديمها فى بعض الأحيان واحات يصل الخصب فى بعضها — كالمدينة والحسا — إلى درجة عظيمة . وأما الربع الخالى فهو خلاء تكثر فيه الأعاصير الرملية ولا يقدر أحد ، حتى البدو ، على ارتياده .

١٨ — تقسيم العرب لبلادهم :

قسم معظم كتاب العرب بلادهم فى أخبارهم وأشعارهم وغيرها إلى خمسة أقسام وهى :

اليمن والحجاز وتهامة (وتسمى أيضا الغور) ونجد واليمامة (وتسمى أيضا العروض) . وأضاف بعض الكتاب قسما سادسا هو البحرين (ويسمى أيضا هجر) وهو فى نظر بعض الكتاب جزء من اليمامة . وفى نظر آخرين جزء من العراق . وقصر بعض الكتاب التقسيم على قسمين فقط هما : اليمن والحجاز وجعل القسم الثانى يشتمل على تهامة ونجد واليمامة . وذكر الهمدانى فى كتابه « صفة جزيرة العرب » — بعد أن شرح التفصيل الخماسى الأول — تفصيل هذه الجزيرة عند أهل اليمن فقال ما نصه :

« هى عند أهل اليمن يمن وشأم فجنوبها اليمن وشمالها الشأم . ونجد وتهامة فالنجد ما أنجد منها عن السراة وظهر من رؤوسها ذاهبا إلى المشرق فى استواء دون مايتمدد إلى العروض ، وحجاز وهو ما حجز بين اليمن والشأم ، وسراة وهو ما استوثق واستطال فى الأرض حيال هذه الجزيرة مشبها بسراة الأديم ، وعروض وهو ما أعرض عن هذه المواضع شرقا إلى حيث شمال المشرق ، وعراق وشحر ، فالعراق ما حاذى المياه العذبة والبحر من الأرض ، مأخوذ من عراق الدلو ، والشحر مأخوذ من شحر الأرض وهو سبخ الأرض ومنابت الحموض » اهـ .

وسنتبع نحن التقسيم الأول لأن إجماع الكتاب القدامى والحديثين يكاد ينعقد عليه ولأنه أكثر انطباقا على الحالة الطبيعية لشبه الجزيرة ، وهذا بصرف النظر عن أن جغرافى العرب لم يحددوا هذه الأجزاء بحدود ثابتة . وسنعالج فيما يلى كل قسم من هذه الأقسام الخمسة .

١٩ — اليمن :

وكان يسميها الأقدمون بلاد العرب السعيدة واليمن الخضراء . قال الهمدانى « وسميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها » .

وأما سبب تسميتها باليمن ففيه قولان : قول يقول لأنها تقع إلى يمين الكعبة ، وآخر يقول لأنها بلاد اليمن والخير والبركة .

وهى تمتد على طول المحيط الهندى ، ويحدها البحر الأحمر من ناحية الغرب ، والحجاز من الشمال ، وفيها التهائم والنجد .

وتتكون بلاد اليمن من عدة أقسام صغرى ، أهمها : حضرموت وشحر وعمان ونجران ، وتنفرد شحر من هذه الأقسام بإنتاج البخور . وأهم مدن اليمن صنعاء ، وهى مدينة قديمة جداً ذات موقع ممتاز .

ولبلاد اليمن شهرة قديمة بسبب جودة مناخها ، وخصوبة تربتها وغناها ، ولقد ذكر (استرابون) أن أوصافها هذه أغرت الإسكندر المقدونى بفتحها ، إلا أنه أرجأ هذا الفتح إلى ما بعد عودته من حملة الهند ، ولكن المنية عاجلته فى بابل فلم ينفذ تصميمه .

على أن فريقاً من المستشرقين ، يعتقد أن ما نسب إلى اليمن من غنى وخصب مبالغ فيه ، وأن معظم الحاصلات التى كان يظن أن بلاد اليمن هى مصدرها ، إنما كان يستجلبها العرب والمصريون الذين كانوا يحتكرون التجارة فى البحر الأحمر ، من جزائر الهند وسواحل أفريقية الشرقية ، وأنهم كانوا يخفون هذا عن جيرانهم ، حتى لايزاحموهم فى الحصول عليها من هذه الأنحاء .

ويرجع ازدهار اليمن وخصبها إلى الجبال التى تقع فى داخلها ، والتى تصد الرياح

الموسمية فتسبب الأمطار التى تجعل أرض اليمن تجود بالبن أهم حاصلاتها وبالفاكهة والقمح والأعناب والتوابل .

وليس فى بلاد اليمن أنهار مهمة ، لأن السيول التى تنزل من الجبال قل أن يصل مجراها إلى البحر إذ تتشربها رمال الصحراء المحرقة .

٢٠ — الحجاز :

وسمى حجازاً لأنه يفصل ما بين نجد وتهامة ، أو لأنه يحجز بين اليمن والشام ، وهو سلسلة جبال السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام .

وأهم مدن الحجاز مكة والمدينة ، وتشتهر الأولى بوجود الكعبة المقدسة فيها ، وبأنها مكان ولادة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتشتهر الثانية بأنها موطن هجرته عليه الصلاة والسلام ، وبأن ترابها ضم جثمانه الطاهر .

ويرى فريق من المؤرخين أن مكة ـ وتسمى أيضا بكة ـ من أقدم مدن العالم وكانت تعرف عند اليونان باسم مكوربا Macoraba ويميل فريق من المستشرقين إلى الظن بأنها ميشا Mesha التى ورد ذكرها فى الآية ٣٠ من الإصحاح ١٠ من سفر التكوين ، ويبلغ طول مكة من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين وعرضها نحو ميل ، وهى مبنية بالحجارة المقطوعة من الجبال المجاورة ، وليس فى مكة عيون يصلح ماؤها للشرب ، وحتى زمزم فإن ماءها يميل إلى الملوحة ويؤذى الذين يكثرون من شربه ، ومن أجل ذلك اضطر المكيون إلى خزن مياه الأمطار فى أحواض ليستقوا منها ، كما حاولوا أن يجروا الماء إليها فى قنوات مشيدة ويروى لنا التاريخ أن الزبير من صحابة النبى عليه السلام أنفق كثيراً فى محاولته جلب الماء من جبل عرفات ، ولكنه أخفق . والأرض المحيطة بمكة قفر فى مجموعها ، ولذلك كان المكيون من قديم الزمان يستجلبون الميرة من جهات أخرى ، وهذا هو الذى حدا بهاشم زعيم مكة والجد الأكبر للنبى عليه السلام إلى أن يحكم نظام رحلتى الشتاء (إلى اليمن) والصيف (إلى الشام) اللتين ورد ذكرهما فى القرآن فى سورة قريش . وكان ماتجلبه القوافل من ميرة يوزع مرتين فى العام ، الأولى فى رجب والثانية عند وصول الحجاج وعدا هذا فقد كان يصل إلى مكة التمر من بعض المناطق المجاورة ، والأعناب من

الطائف التى تبعد عنها نحو ستين ميلا وأهل مكة أغنياء مصدر غناهم التجارة التى تروج سوقها فى موسم الحج .

وسنرجىء الكلام عن الكعبة إلى موضع آخر .

أما المدينة وتعرف أيضاً بطيبة ، وكانت تعرف قبل هجرة النبى إليها باسم يثرب (ولعل هناك صلة تربط ما بينها وبين مدينة اتريبس المصرية القديمة) فهى تلى فى الأهمية مكة وتبلغ فى المساحة نحو نصفها وهى بيضية الشكل تحيط بها أسوار بها ثلاثة أبواب ، وتقع بين حرتين من حرات جبل السراة ، ويصل الماء إليها من قباء التى تقع على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى الجنوب منها . وفى فصل المطر تنهمر السيول من الجبال المجاورة إليها ومن أجل ذلك كانت المنطقة المحيطة بها أكثر خصباً من مكة . وإلى الشمال منها يقع جبل أحد المشهور .

٢١ — تهامة ونجد والعروض :

(ا) أما تهامة فانها سميت تهامة من التهم ، وهو شدة الحر وركود الريح ؛ ويقال لها الغور أيضاً لانخفاض أرضها ، وهى تطلق على الأرض الممتدة من غرب جبال السراة إلى ساحل البحر الأحمر ، وفيها كان يجرى طريق القوافل الغربى الذى يمتد متاخما لساحل البحر الأحمر ، ومعظم مدنها فى الوقت الحاضر ثغور ، أهمها جدة التى بناها عثمان بن عفان وهى فرضة مكة ، وينبع وهى فرضة المدينة .

(ب) أما نجد فسميت نجداً لارتفاع أرضها ، وهى تشمل المنطقة التى تلى الحجاز من الشرق وتمتد إلى الخليج الفارسى ، وحدودها ليست معروفة تماماً فى كتب العرب الجغرافية لكثرة الأقوال وتعدد الآراء . وهى ليست قاحلة تماماً كما يتصورها معظم الناس ، وهى تشتهر بمراعيها الجيدة التى تربى عليها أجود الخيول التى تشتهر بها بلاد العرب .

(ج) أما العروض وتعرف باليمامة ، فسميت عروضاً لأنها تعترض ما بين نجد واليمن ، وسميت يمامة نسبة إلى اليمامة وهى أشهر بلد فيها . وكانت

تسمى أيضاً « جو » وهو الاسم القديم لليمامة ، وينتظم هـذا القسم عدا اليمامة بلاد البحرين ، ويقال لبلاد البحرين أيضاً « هجر » ، ويطلق على الجزء الشمالى منها اسم الأحساء . ذكر الأستاذ « هل » الألمانى فى كتابه حضارة العرب أن بلاد نجد واليمامة كانتا تسدان حاجة العرب من القمح ـ كما كانتا فى القرنين السادس والسابع ـ لا تقلان عن أراضى أوربا المزروعة اليوم ، بل ربما كانتا تبزانها خصباً فى كثير من البقاع .

هذه هى أقسام بلاد العرب فى نظر جغرافييهم وإتماماً للفائدة نعرض فى الفقرة التالية لبعض التفصيلات الطبوغرافية الهامة التى قد يصادفها كثيراً الباحث فى تاريخ العرب . (والطبوغرافيا هى فن وصف الأماكن) .

٢٢ — بعض تفصيلات طبوغرافية :

(ا) بادية الشام :

وهى تشمل المنطقة المثلثة الشكل الواقعة فيما يلى خط ٣٠° من شمال شبه الجزيرة ، وهى تتبع من الناحية السياسية شرق الأردن وسوريا والعراق وإن كانت من الناحية الطبيعية تعتبر جزءاً من بلاد العرب ، وتعرف هذه الصحراء أيضاً باسم بادية السماوة ، وهى فى ناحيتها الغربية صحراء بها حجارة صوانية سوداء تفصل منحدرات مؤاب وإيدوم عن منخفض وادى سرحان الذى يمتد إلى الجنوب الشرقى والذى تكثر به بحيرات الملح كما يكثر به النخيل التى يستغلها سكان المنطقة المجاورة ، وفى طرف هذا الوادى تقع مدينة الجوف الغنية بنخيلها وهى تقع فى الموضع الأصلى لدومة الجندل .

(ب) النفود الشمالية :

وتقع إلى الجنوب من الجوف صحراء النفود الكبرى ، ويبلغ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ٤٠٠ ميل ومتوسط عرضها نحو ٢٠٠ ميل ، وهى فى الغالب عديمة الماء ، وفى الأشتاء الممطرة تكثر بها المراعى فاذا جاء الربيع انتجعها البدو بإبلهم ، وتكثر فى صحراء النفود الكثبان المرتفعة ذات الرمل الدقيق التى تتحرك مع الريح وأشهرها الكثبان التى توجد فى منطقة الفلج .

(ج) الدهناء :

وتختلف عن النفود فى أن متوسط عرضها ٣٠ ميلا وأن طولها يبلغ من الشمال إلى الجنوب ٤٠٠ ميل ، وتكثر بها التلال الرملية التى يبلغ ارتفاع الواحد منها ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم ، ورمل هذه التلال أحمر وليس فيه أى أثر للنبات ، ولا ترى هذه التلال فى جنوب الدهناء ، وإذا سقطت الأمطار ظهرت المراعى وعند ذلك يؤمها البدو كحالهم فى النفود . وتخترق الدهناء من الشمال فى ١٣ ساعة على الإبل وفى ست ساعات من جهة الأحساء . وذكر مؤلف جزيرة العرب فى القرن العشرين أنه قطعها إلى نجد فى ٣ ساعات بالسيارة ، كما ذكر أن بعض الجهات لا ترى فيها غير الرمال المرتفعة التى تكاد تبتلع المارة لنعومتها وعدم تماسكها فيتجنبها المسافرون ابتغاء سلامة أرواحهم وأموالهم .

(د) الربع الخالى :

ويسمى أيضاً صحراء الجنوب ، وهو منطقة لم تطأها قدم مستكشف إلا منذ نيف وعشرين سنة حيث نجح برترام توماس فى اختراقها فى ٥٨ يوما من بحر العرب إلى الخليج الفارسى ، واكتشف فى أثناء رحلته بحيرة من الماء الملح طولها سبعة أميال ؛ وقد قطعها من بعده « عبد الله فلبى » . ويرجح أنها صحراء ذات حصا وحجارة جيرية وأنها عامرة بالكثبان الرملية المرتفعة مثل النفود الشمالية والدهناء ، وطرفها الجنوبى الغربى يسمى بالأحقاف وهو المنطقة التى يظن أنها تضم آثار عاد البائدة ، وترعى قبائل بنى مرة وغيرها إبلهم فى بعض أطرافها (كجنوبى نجد وأطراف عمان وحضرموت واليمن) حيث تكثر البرك والمستنقعات الملحة وتشرب إبلهم الماء الملح بينما يشرب المربون أنفسهم ألبان الأبل .

(هـ) الوديان :

ذكر الأستاذ حافظ وهبه فى كتابه « جزيرة العرب فى القرن العشرين » أنه : « لا يوجد فى بلاد العرب أنهار بالمعنى المعروف ، ولكن بعض مجار أو نهيرات صغيرة دائمة فى عسير واليمن وجهات عدن والأحساء ، وعمان ونجد ، ووديان لا عداد لها مما تجرى فيها المياه إبان المطر ، وهى فى الغالب طويلة وغير عميقة .

وأطول هذه الوديان وادى الرمة الذى يبدأ قريباً من المدينة ويمر فى القصيم ثم إلى شط العرب . ووادى حنيفة الذى يبدأ فى منحدرات جبل طويق الغربية إلى اتجاه الخليج الفارسى (وهو لا يصل إليه) فهذان الواديان يمكن أن يعبر مجراهما أثناء فيضانهما الواطىء والمتوسط بدون صعوبة . وفى بعض الأماكن كما فى القصيم (وادى الرمة) والخرج ووادى حنيفة تعلو المياه سطح الأرض وهنالك تتكون الواحات .

أما الوديان التى تتجه نحو البحر الأحمر ، فانها ذات مجرى أعمق وأكثر انحدارا وهى تكاد تكون معدومة النفع وهى عقبة فى سبيل المرور من الشمال إلى الجنوب ، وهى لا تكون واحات مثل مياه الأودية الأخرى بسبب ما تجلبه المياه فى انحدارها من الأتربة وغيرها مما يتراكم بعضه فوق بعض بسرعة ، بحيث لا تستطيع حرارة الشمس أن تؤثر فى صلابته . ووديان غربى اليمن ومنطقة قسم البحر الأحمر من هذا النوع ـ من مدين إلى حضرموت » .

(و) الجبـــال :

يرد فى الأدب العربى وفى كتب التاريخ ذكر الكثير من جبال بلاد العرب . نذكر بعضها فيما يلى :

١ — جبل شمر وهو إلى جنوبى النفود الشمالية . وتنحدر إليه المياه من جبلى طى الشهيرين « أجا وسلمى » اللذين يمتدان من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، ويبلغ ارتفاع جبل أجا أكثر من ٥٠٠٠ قدم .

٢ — الجبل الأخضر وهو أعلى جبال الهضبة التى تقع فى نهاية الجنوب الشرقى .

٣ — جبل طويق ويقع فى الوسط الشرقى ويبلغ ارتفاعه ٦٠٠ قدم .

٤ — جبل السراة أو بالحرى سلسلة جبال السراة ، وهى تمتد من الشمال إلى الجنوب على مقربة من الساحل الشرقى حيث بلاد الحجاز ، وليست السراة جبالا مصمتة بل تتخللها عدة منخفضات تصل ما بين الشرق والغرب ، والسراة كثيرة الحرار (وهى الحجارة النخرة السوداء وتكثر فى المناطق الغربية والوسطى من

شبه الجزيرة وتمتد حتى تصل إلى حوران الشرقية) وتقع المدينة بين حرتين ، وخيبر إحدى هذه الحرات ، وإلى إحدى هذه الحرات وهى حرة واقم التى تقع إلى الشرق من المدينة المشهورة تنسب واقعة الحرة المشهورة .

٥ — جبال مكة وهى مشهورة ، أهمها جبل أبى قبيس فى جنوبها ، وجبل قينقاع فى غربها ، وجبل حراء ويشرف على مكة من الشرق ، وفيه كان يتعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبل ثور ويشرف عليها من الجنوب وفيه الغار الذى اختفى فيه عليه السلام ومعه أبو بكر .

٦ — جبل رضوى وهو جبل بين المدينة والبحر الأحمر .

(ز) طرق القوافل :

وتسمى المحاج واحدتها محجة ، والجواد واحدتها جادة ، كان يتخذها جغرافيو العرب أساساً لتحديد مواضع البلدان فيقولون : البلدة الفلانية على جادة البصرة أو الكوفة . وقد فصل هذه الجواد الهمدانى فى كتابه (صفة جزيرة العرب) وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الأميال كما أوضحها أيضا ابن خرداذبه فى كتابه (المسالك والممالك) .

وذكر الدكتور هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد » أن « شبه الجزيرة كانت تموج بطرق القوافل ، على أن طريقين منها كانا رئيسيين ، فأما أحدهما فيتاخم الخليج الفارسى ويتاخم دجلة ويقتحم بادية الشام إلى فلسطين ويصح لمجاورته لحدود البلاد الشرقية أن يسمى طريق الشرق .

وأما الآخر فيتاخم البحر الأحمر ، ويصح لذلك أن يسمى طريق الغرب ، وعن هذين الطريقين كانت تنقل مصنوعات الغرب إلى الشرق ومتاجر الشرق إلى الغرب ، وكانت تجلب إلى البلاد أسباب الرخاء والرفاهية » .

وتتخلل شبه الجزيرة طرق قوافل مستعرضة تمتد فى الغالب من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، متجنبة المناطق الصحراوية ، ومتتبعة الوديان الجافة ، أو الواحات الوسطى .

٢٣ — جيولوجية بلاد العرب :

يشبه التكوين الجيولوجى لبلاد العرب إلى حد كبير التكوين الجيولوجى لبلاد مصر ، وأقدم الصخور فيها من الجرانيت وصخر الشيست ، وتغطى هذه الصخور طبقات رسوبية تبدأ من الخرسان (الحجر الرملى) النوبى عند بطارة ، وتمتد إلى الجوف فالحجاز فى الجنوب .

وتوجد طبقات رسوبية أحدث من هذه عند وادى سرحان ، وأطراف الصحراء التى تكتنف العراق ، ويظهر الجرانيت عند جبل شمر فى نجد وفى المرتفعات الغربية، والمخاريط البركانية عديدة ، ولقد روى التاريخ حدوث انفجار بركانى فى سنة ١٢٥٦ ميلادية بالقرب من المدينة ، ويتكون الشطر الأكبر من جنوب بلاد العرب من صخور كلسية ترجع إلى العصر الجيولوجى الثالث (الكاينزوى) . وعند عدن نجد بركانا خامدا . كما نرى بجوار مضيق باب المندب بعض الصخور البركانية . وانثناء الطبقات الرسوبية فى بلاد العرب لطيف . ولكن العيوب الجيولوجية فى الطبقات كثيرة الحدوث وخليج العقبة مثال واضح من هذه العيوب ، أما منخفض البحر الأحمر فتكتنفه العيوب الجيولوجية على طوال شاطئيه . ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى الينابيع الحارة التى تكثر فى منطقة الأحساء ، ولا الينابيع العميقة فى الخرج والأفلاج .

٢٤ — مناخ بلاد العرب :

إذا نظرنا إلى بلاد العرب على اعتبار أنها قريبة من خط الاستواء . وأنها إقليم قاحل ، فإننا نعدها من الأقاليم الحارة فى العالم ، ولكن حرارتها مع ذلك لا تقارن بحرارة بعض البلاد الأخرى كصحراء السند وبلاد العراق . وقد سجلت أقصى درجات الحرارة فى نجد ، فوجد أنها لا تزيد عن ١١٢ فهرنهيت (نحو ٤٥ مئوية) ووجد أن أدنى درجة حرارة هى ١٨ فهرنهيت وهى دون درجة التجمد ، وقد سجلها فى الحائل أحد العلماء سنة ١٨٩٣ ، وتمتاز الأقاليم الوسطى بمناخ صحى بسبب جفاف الجو وبخاصة عندما يهب نسيم الشمال المنعش ، ولكن حرارة الجو تزداد عندما تهب رياح من الجنوب . والجو عند السواحل على وجه العموم أقل حرارة منه فى قلب الجزيرة ، إذ لا يزيد متوسط درجة الحرارة عن ٩٥ فهرنهيت وتتمتع عمان بجو

معتدل لا تطرف فيه ، ولكن منطقة مدين تشتد فيها البرودة فى الشتاء لدرجة يسقط معها البرد .

وإذا استثنينا بلاد اليمن التى تقع فى منطقة الرياح الموسمية ، والتى تنزل أمطارها فى شهور الصيف ، وبلاد عمان التى يسقط فيها المطر (وفى بعض الأحيان البرد) أمكننا أن نقرر أن بلاد العرب بلاد عديمة الأمطار أو قليلتها ، ولا يتجاوز ما يسقط من المطر فى عدن وعلى ساحل البحر الأحمر فى العام ٣ بوصات ، وإذا أمطرت السماء فى هذه الجهات أمطرت وابلا ، ولكنه لا يستمر إلا بضع ساعات . وينزل بعض المطر فى قلب الجزيرة وفى المناطق الواقعة إلى الغرب منه فى فصل الشتاء ، كما تمطر السماء قليلا على هذه الجهات فى شهر أغسطس أو سبتمبر . وتقاسى مساحات شاسعة فى بلاد العرب ، وبخاصة فى الغرب والجنوب من الجفاف ، ولكن ما ينزل من الأمطار على وجه العموم يكفى لأن يجعل الصحراء تزدهر فى فصل الربيع ، ويساعد الواحات على إنتاج شىء من الزرع . وحظ جبال الحجاز وافر فى الغالب من الأمطار ، وتمتاز الطائف بأنها تقع عند المرحلة النهائية ، التى تصل إليها الرياح الموسمية فى سيرها شمالا .

وأما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل ثلاث أو أربع سنوات .

أما بلاد حضرموت فلا تسقط فيها أمطار لأن شواطئها توازى الرياح الموسمية فى هبوبها . والرياح السائدة فى شمال بلاد العرب إما شرقية أو غربية . وتحمل الأخيرة منها الأمطار من ناحية البحر الأبيض المتوسط وتجتاز بها فلسطين ، وفيما عدا هذه المنطقة تتبادل الرياح الشمالية والرياح الجنوبية الهبوب على بلاد العرب ، فأما الجنوبية فتحمل ما تحمل من أمطار فى الشتاء . كما تحمل لفحات الحر فى الصيف . وأما الشمالية فانها فى الغالب تلطف الجو .

٢٥ — نبات بلاد العرب :

دلت الأبحاث العلمية التى قام بها علماء النبات فى جهات متعددة من بلاد العرب، على أن نباتات بلاد العرب تمت بصلة إلى نباتات أفريقية أكثر من صلتها بنباتات آسيا الجنوبية .

تنبت فى هذه البلاد أنواع مختلفة من التين والتمر الهندى والخرنوب كما تكثر غابات العرعر فى بلاد اليمن وعسير ومدين .

ويزدهر نخيل البلح ازدهارا فى كل مكان ، وينتج أنواعا من أحسن أنواع البلح فى العالم ، وتعتبر النخلة ملكة الأشجار العربية، وقد ذكر كتاب العرب القدامى أكثر من ١٠٠ صنف من البلح . وتنمو أشجار الأثل فى كثير من المناطق الصحراوية ، كما تغرس فى بعض الأحيان على شكل أسوار حول المزارع لتمنع طغيان الرمال المتحركة من إتلاف الزرع . وفى معظم الواحات تزرع الأعناب والخوخ والبرقوق والرمان والتين .

ويزرع البرتقال والسفرجل فى المناطق المرتفعة ، والموز فى بعض الوديان الصالحة نحو الجنوب .

ومن الحبوب تزرع أنواع عدة أهمها القمح والشعير والذرة والدخن . وفى بعض أقاليم الحجاز يزرع البطيخ ، كما يزرع بكثرة فى جهات عدة الفجل والخيار والبصل . وتشتهر الطائف وغيرها من الجهات المرتفعة بزراعة الورد الذى يستخرج منه عطر الورد بكميات محدودة ، كما تزرع بعض الأزهار ذات الروائح الزكية كالياسمين لنفس الغرض .

أما البن فيقال إنه أدخلت زراعته إلى اليمن من بلاد الحبشة حوالى القرن الرابع عشر الميلادى وإن زراعته صادفت نجاحاً باهراً فى سفوح بلاد اليمن وعسير التى يتراوح ارتفاعها بين ٤٠٠٠ ، ٧٠٠٠ قدم ، والتى تواجه البحر . وتزرع أشجاره فى صفوف الواحد منها تلو الاخر ، وهى تروى مرتين كل شهر ، وتثمر بعد مدة تتراوح بين عامين وأربعة أعوام ، ثم يجفف الثمر فى الشمس ويرسل بعد ذلك حبوبا إلى الحديدة وعدن ، حيث يصدر منهما بكميات هائلة ، ويصنع من قشره المتخلف بعد تجفيفه شراب يسمى القشير ، يشربه الناس فى اليمن وجنوب نجد . وتكثر زراعة التبغ فى حضرموت ، وتكثر أشجار الصمغ العربى فى الصحراء ، ويستخرج المر على مقربة من صنعاء فى اليمن .

ولا تزال شجرة البخور التى كانت أهم سلعة فى الحياة التجارية الأولى لبلاد العرب الجنوبية ، تزرع على المرتفعات الموازية للساحل الجنوبى ، وخاصة فى مهرة والشحر .

٢٦ — حيوان بلاد العرب :

أشهر أنواع الحيوان البرى الأسد والفهد والنمر ، والضبع والثعلب والذئب ، وابن آوى والوعل واليربوع ، وبقر الوحش وحمار الوحش والخنزير والأرنب والغزلان والظباء .

ومن الحيوان المستأنس الإبل والخيل والشاء والماعز والحمير والبقر والجاموس والبغال والقردة والنسانيس والكلاب .

وفى بلاد العرب من الطيور النعام والقطا والحجل والكروان ، والغراب والبجع والرخم ، والهدهد والنسر والحدأة .

ومن حشراتها السامة الثعبان والعقرب والرتيلاء (أبو شبت) .

وخيل نجد من أجود أنواع الخيل فى العالم ، ولكن الاعتماد عليها أصبح الآن ضعيفا بسبب استعمال البنادق ، وبسبب انصراف التجار فى سوق الخيل ببمباى عن شرائها وكانوا من أكبر عملاء نجد . وكان اقتناء الخيول من الكماليات ، وكان العرب يعتمدون عليها فى غزوهم بسبب سرعتها .

وأهم الحيوانات المستأنسة فى بلاد العرب الجمل ؛ والجمل العربى ذو سنام واحد وهو — على حد تعبير دائرة المعارف البريطانية — أكثر أرستقراطية من جيرانه إبل الممالك المجاورة ؛ وأحسن الإبل العربية هو الذى يقوم بتربيته بنو مرة على حافة الربع الخالى . والجمل المرى شأن غيره من الإبل النبيلة ، شديد الاحتمال كثير الصبر على الجوع والعطش لمدة طويلة ، رغم سرعته فى السفر ، ولكنه لا يحمل أكثر من ٣٠٠ رطل ولا يقطع فى السير المستمر أكثر من ثمانية أميال فى الساعة ، والإبل الأصيلة تصبر على العطش فى الصيف ثلاثة أو أربعة أيام ، إذا كانت تقطع فى اليوم الواحد ٢٥ ميلا . أما فى فصل الربيع حين تزدهر المراعى فانها تصبر على العطش شهراً .

ولقد كان الجمل من العوامل التى سهلت الفتوح الإسلامية الأولى ، ولقد صدق الخليفة عمر حين قال : « لا يصلح العرب إلا حيث تصلح إبلهم » .

الباب الثالث

الشعب العربى

٢٧ — أقسام العرب :

يكاد ينعقد الإجماع بين جمهور المؤرخين على إرجاع الشعوب العربية إلى ثلاثة أقسام كبرى ، يسميها بعض المؤرخين طبقات هى :

(١) العرب البائدة . (٢) العرب العاربة . (٣) العرب المستعربة .

ويقتصر بعض المؤرخين على تقسيمهم إلى قسمين فقط :

(١) عرب بائدة وهى التى هلكت واندثرت أخبارها قبل الإسلام .

(٢) وعرب باقية وهى التى ينتسب إليها العرب الذين عاشوا بعد الإسلام والذين يكونون الشعب العربى الحالى .

وأصحاب هذا التقسيم الثانى يعودون فيرجعون العرب الباقية إلى فرعين عظيمين :

(١) عرب عاربة أو عرباء أو قحطانية أو عرب الجنوب التى سكنت اليمن والتى يرجع مؤرخو العرب نسبها إلى يعرب بن قحطان بن عابر من سلالة سام بن نوح عليه السلام .

(٢) وعرب مستعربة أو متعربة أو عدنانية أو عرب الشمال ، وهى التى سكنت الحجاز فى عصر متأخر عن عصر سكنى القحطانية اليمن ، ويرجع مؤرخو العرب نسبها إلى معد بن عدنان من سلالة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

وظاهر أن الخلاف فى التقسيمين شكلى بحت ، لأن النتيجة فى الحالين واحدة .

ولكن جمهرة المؤرخين المستشرقين يتبعون فى كتاباتهم التقسيم الثانى ، ويعتقدون أن ما يسمى بالعرب البائدة ليس من التاريخ الحقيقى فى شىء ، إنما هو

جزء من الميثولوجيا العربية أو التاريخ الأسطورى ، الذى يسبق عادة التاريخ الحقيقى لكل أمة . وهم إذا عالجوا بعض قبائل العرب البائدة فى كتبهم فانما يعالجونها على هذا الأساس فحسب .

وقد ذكر مؤرخو العرب أسماء كثير من قبائل العرب البائدة مثل طسم وجديس وأميم وعبيل وعمليق وجرهم وجاسم ووبار ، ورووا عن بعضها قصصا هى أشد شبهاً بالخرافات منها بالتاريخ الحقيقى .

وانفرد القرآن الكريم بذكر قبيلة عاد ، التى كانت تسكن الأحقاف فى الجنوب وذكر نبيها هود عليه السلام . وكذلك ذكر قبيلة ثمود التى كانت تسكن الحجر فى الشمال ، وذكر نبيهم صالحا عليه السلام ، وذكرتها أيضاً المراجع اليونانية .

وأماطت الكشوف الحديثة التى تمت فى أواخر القرن الماضى اللثام عن وجود دولة لم يعرف مؤرخو العرب عنها شيئاً ، ولم يذكروها بتاتا فى كتبهم وإن كان قد أشار إليها بعض مؤرخى اليونان والرومان إشارات ليس فيها غناء ونقصد بها دولة معين ، التى سبقت حضارتها دولة سبأ القحطانية .

والمؤرخون جميعا ، القدامى منهم والمحدثون ، يجمعون على إرجاع العرب إلى أم واحدة هى السامية ، بل ويرون كما بينا فى الفقرة ١٣ أن بلاد العرب نفسها كانت المهد الأول للجنس السامى .

وسيعالج هذا الكتاب تاريخ الشعب العربى متبعا إلى حد كبير ، وفى شىء من التحفظ ، التقسيم الثانى الذى وضعه مؤرخو العرب ، والذى أشرنا إليه فى صدر هذه الفقرة لأسباب ستتبينها فى ثنايا الكلام عن كل قسم .

٢٨ — العرب البائدة :

لم تتعرض التوراة لذكر عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها من قبائل العرب البائدة ما عدا عمليق ، فقد وردت الإشارة إليهم فى بعض أسفار التوراة كسفر التكوين والخروج والمزامير وغيرها ، على أنهم كانوا من أعداء بنى إسرائيل .

أما عاد وثمود فقد انفرد القرآن الكريم بذكرهما ، ولما كانت الكشوف

الحديثة قد أيدت بعض ما جاء فى القرآن عن ثمود ومساكنهم ، كما أن كثيراً من العلماء يرجحون أن تحت كثبان الرمل فى الأحقاف والمنطقة المجاورة ، آثاراً لم تكتشف بعد لأن هذه المنطقة كانت خصبة ، بسبب ما كان يصلها من الأمطار الموسمية . وإذاً فلا سبيل إلى إنكار وجودها كما يفعل بعض المستشرقين .

أما طسم وجديس وبعض القبائل البائدة الأخرى ، فنحن لا نستطيع أن نتعرض لإثبات وجودها أو نفيه ، ما دامت المراجع التى بأيدينا لا ترجح إحدى الكفتين ، وإن كنا نميل الميل كله إلى أن ما كتب عنها لا يعدو أن يكون جزءاً من التاريخ الأسطورى لبلاد العرب .

ويجمل أن نشير هنا إلى أن لفظ « بائدة » أطلق عليها عند تدوين التاريخ بعد الفتح الإسلامى وعدم وجود أحد من العرب ينتسب إليها .

٢٩ — عاد :

انفرد القرآن الكريم بذكر عاد ونبيهم هود عليه السلام ، فورد ذكرهما عدة مرات فى السور الآتية :

(١) الأعراف ٧ آية ٦٥ - ٧٢ — (٢) هود ١١ آية ٥٠ - ٦٠
(٣) المؤمنون ٣٣ « ٣١ - ٤٢ — (٤) الشعراء ٢٦ « ١٢٣ - ١٤٠
(٥) فصلت ٤١ « ٨٥ - ٨٦ — (٦) الأحقاف ٤٦ « ٢١ - ٢٦
(٧) القمر ٥٤ « ١٨ - ٢١ — (٨) الحاقة ٦٩ « ٢١ - ٢٦
(٩) الفجر ٨٩ « ٦ - ٨

وتدل هذه الآيات القرآنية على أن قوم هود استكبروا فى الأرض بغير الحق ، واعتزوا بقوتهم ، فأرسل الله إليهم رسله لينهوهم عن عبادة الأوثان ، وينذروهم عذاب يوم عظيم ، وكان آخر من أرسل إليهم هوداً عليه السلام ، فكذبوه فعاقبهم الله تعالى ، بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فأبادتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

وكانت هذه القبيلة تسكن أرض الأحقاف ، التى تقع إلى الشمال الشرقى من حضرموت فى جنوب الربع الخالى .

ولا نستطيع أن نحدد — لا بالضبط ولا على وجه التقريب — الزمن الذى عاشت فيه عاد ، ولا الوقت الذى بادوا فيه ، إذ يرى فريق من المؤرخين أنهم بادوا بعد بناء إبراهيم للبيت ، بينما يرى آخرون غير ذلك ، وفى رأينا أن كل تحديد لا يعدو أن يكون حدساً وتخميناً غير مبنى على أساس علمى .

ولم يكشف النقابون عن شىء من أخبارهم ، وغاية ما ذكروه أنهم عثروا فى الأحقاف على مقابر محفورة فى الصخور التى تراكمت عليها طبقة كثيفة من الرمال ، وليس فى هذا كبير غناء كما ترى (راجع الرحلة الحجازية للبتنونى) . وطبيعى أن هوداً وفريقاً ممن آمن به أفلتوا من الدمار ، ويقول مؤرخو العرب إنهم هم الذين يسمون بعاد الثانية ، وإنهم أسسوا دولة جديدة يختلفون فى مقرها ، هل كانت باليمن أم كانت بمكة ؟ (راجع الجزء الأول من تاريخ الطبرى وابن الأثير) أما هود فيقولون إنه عاد إلى حضرموت ثم مات هناك ولا تزال قرية من قرى حضرموت إلى الوقت الحاضر تسمى قبر هود .

ولقد أسرف فريق من المؤرخين والمفسرين فى الاستنتاج مما ورد فى بعض آى القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك أن فريقاً من المفسرين المؤرخين اعتمد على قوله تعالى فى سورة الأعراف الآية ٦٩ : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » فنسب إلى عاد أنهم كانوا فى هيئات النخل طولا ، وكانوا فى اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر الخ .

وفى هذا تحميل للآية الكريمة أكثر مما تحتمل ، يشبه ما كانت توصف به فراعنة مصر من الضخامة والطول مما كذبه الواقع بعد كشف مومياتهم . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن قوم هود كانوا يتميزون بضخامة لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر بيننا الآن من بسطة فى الخلق .

والآن وقد أبنا ما يمكن أن يستلخص فى حدود النصوص القرآنية من تاريخ

عاد يجمل بنا أن نذكر بعض ما ورد فى كتب المؤرخين المسلمين عن هذه القبيلة مما حدى ببعض المستشرقين إلى اعتبار تاريخها من الميثولوجيا .

٣٠ — عاد فى كتب العرب :

ورد فى الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب للمسعودى » : « أن عادا كان رجلا جبارا عظيم الخلقة وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وكان عاد يعبد القمر . وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، وأنه تزوج ألف امرأة وعاش ألف سنة ومائتى سنة ثم مات . وكان الملك بعده فى الأكبر من ولده وهو شديد بن عاد ، وكان ملكه ٨٥٠ سنة وقيل غير ذلك . ثم ملك أخوه شداد بن عاد وكان ملكه ٩٥٠ سنة ويقال إنه احتوى على سائر ممالك العالم وهو الذى بنى مدينة إرم ذات العماد . . . الخ » .

ومدينة إرم ذات العماد هذه تحتل مكانا ، أسرف خيال مؤرخى العرب فيه إسرافا شديداً ، فلقد روى ياقوت والمسعودى وغيرهما أن هذه المدينة بناها شداد بن عاد ، لينافس بها قصور الذهب والفضة فى الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار ، وقالوا إنه كتب إلى عماله أن يجمعوا مافى أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فتوجهوا به إليه ، ثم استخرج غواصوه الجواهر فجمعوا أمثال الجبال ، وأنه أمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ، ثم بنى — بذلك اللبن من الذهب وبلبن مثله من الفضة — المدينة ، وقصص حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد ، ثم جعل لها غرفا من فوقها غرف ، تعتمد على أساطين من الزبرجد والياقوت ، ثم أجرى تحت المدينة واديا طليت حافته بالذهب الأحمر ، وجعل حصاه أنواع الجوهر . وبنى بالمدينة ٣٠٠ ألف قصر ، وجعل على بابها مصراعين من ذهب مفصصين بأنواع الياقوت ، وجعل ارتفاع البيوت فى المدينة ٣٠٠ ذراع ، وبنى خارج السور كما يدور ٣٠٠ ألف منظرة بلبن الذهب لينزلها جنوده ومكث فى بنائها ٥٠٠ عام .

ويذكر بعض المؤرخين مبالغات تشبه هذه فى مصير المدينة ، فمنهم من يذكر أنها بعد أن تم بناؤها لم يسكنها عاد لأنها طارت فى السماء ، وأن بعض الناس يلمحونها وهى طائرة ، ومنهم من يقول إنها لايراها إلامن شاء الله له ذلك ، ويروون

أن رجلا يسمى عبد الله بن قلابة رآها فى أيام معاوية بن أبى سفيان ، وأن معاوية استدعاه ليعرف جلية الخبر ، فأخبره أنه بينما كان يبحث فى الصحراء عن بعير ضل منه ، إذا به يجد نفسه فجأة أمام باب المدينة ، وأنه دخلها فوجدها خاوية على عروشها ، فأخذه الذعر فخرج ، ولم يحتمل منها إلا بعض الحجارة الصغيرة التى أراها للخليفة .

ويرى الأستاذ جرجى زيدان فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) أن عادا من الأمم الآرامية ، ولذلك سميت عاد إرم كما سميت ثمود إرم ، وأنها ليست مدينة ، وأن الظن بأنها مدينة هو الذى جعل المؤرخون يبالغون فى وصفها هذه المبالغات .

٣١ — ثمود :

ثمود هم قوم صالح عليه السلام وقد ورد ذكرها فى القرآن عدة مرات فى السور الآتية :

(١) الأعراف ٧ آية ٧٣ — ٧٩	(٢) هود ١١ آية ٦١ — ٦٨
(٣) الحجر ١٥ « ٨٠ — ٨٤	(٤) الشعراء ٢٦ « ١٤١ — ١٥٩
(٥) النحل ٢١ « ٤٥ — ٥٣	(٦) فصلت ٤١ « ١٧ — ١٨
(٧) الذاريات ٥١ « ٤٣ — ٤٥	(٨) النجم ٥٣ « ٥٠ — ٥١
(٩) القمر ٥٤ « ٢٣ — ٣٢	(١٠) الحاقة ٦٩ « ٤ — ٥
(١١) الشمس ٩١ « ١١ — ١٥	

ويؤخذ من هذه الآيات أن زمن صالح عليه السلام كان بعد زمن هود عليه السلام ، وقوم ثمود كانوا يعبدون إلها غير الله وكانوا يعيثون فى الأرض مفسدين ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وأن مساكنهم كانت بالحجر ، وأنهم كذبوا الرسل ، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحا فنصح لهم ودعاهم إلى عبادة الله ، وترك ما يعبد آباؤهم فكذبوه واتهموه بالسحر ، وطلبوا إليه أن يجىء بآية إن كان من الصادقين فقال لهم : « هذه ناقة الله لكم آية وطلب إليهم أن يذروها تأكل فى أرض الله ولا يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب يوم عظيم ، فكذبوه فعقروها » فأخذتهم بعد

ثلاثة أيام الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه وكانوا يتقون .

هذا هو ملخص قصة ثمود كما وردت فى القرآن الكريم ويضيف إليها كثير من المفسرين والمؤرخين أخباراً تتعلق بمصير الذين آمنوا مع صالح ، ففريق يزعم أنهم سكنوا فلسطين ، وآخرون يقولون بل سكنوا مكة ، وغيرهم يقول إنهم سكنوا حضرموت ، ويزعمون أن قبر صالح هناك .

ويرى فريق من المؤرخين المحدثين أن ثمود هم شرذمة من الهكسوس ، الذين طردهم أحمس الأول من مصر ، وأنهم سكنوا منطقة الحجر ، وأنهم نحتوا من الجبال بيوتا على غرار المقابر المصرية القديمة ، التى شاهدوها أثناء احتلالهم لمصر .

والمتفقد لمساكنهم الآن فى مدائن صالح (إحـــدى محطات السكة الحديدية الحجازية) يرى أنها فى مساحتها لا تختلف عن المساكن العادية وعلى ذلك يكون ما نسب إلى ثمود من ضخامة الأجسام وطولها ليس إلا حديث خرافة . ولقد مر النبى صلى الله عليه وسلم بهما فى غزوته لتبوك فى السنة التاسعة للهجرة ومنع المسلمين من الدخول إلى ديار ثمود والشرب من مياههم .

ويروى بعض المؤرخين أن ثمود نشأوا فى اليمن ، ثم غلبهم الحميريون فأجلوهم إلى الشمال فسكنوا منطقة الحجر .

ولا شك أن تكون قبيلة ثمود هـــذه هى ثمودينى Thamudini التى ذكرها استرابون وبطليموس عند كلامهم عن قبائل العرب .

أما النسابون من العرب فيقولون إن هوداً هو ابن جاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

وتكاد تجمع المصادر على أن نبيهم صالحاً ، أرسل إليهم فى الفترة ما بين هود وإبراهيم ، ولكنا ـ على الرغم من ذلك ـ لا نستطيع أن نجزم فى أى عصر عاشوا .

٣٢ — ثمود والكشوف الحديثة :

زار أكثر من واحد من المستشرقين آثار ثمود وكتبوا عنها . وكان أهم ما عثروا عليه من الآثار هو ما يعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج .

أما النقوش التى شاهدوها على هذه الآثار فمعظمها بالخط الآرامى وبعضها بالمسند، ولغتها هى العربية الشمالية التى لا تختلف ـ إلا فى قليل ـ عن العربية الفصحى المعروفة، وهى تتضمن عبارات دينية ، مما ينقش عادة على قبور كثير من الأمم ، وهى ليست — فى حد ذاتها — كبيرة الفائدة من الناحية التاريخية ،ولكننا نستطيع أن نستنتج منها أن بعض العلاقات ربطت ما بين ثمود ودولة الأنباط ، التى كانت عاصمتها مدينة بطره فى الشمال .

ونحن نثبت هنا ـ نقلا عن « تاريخ العرب قبل الإسلام » للأستاذ جرجى زيدان ـ ترجمة عهد كتبه على قبره رجل اسمه عائذ بن كهيل :

« هذا القبر الذى بناه عائذ بن كهيل بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابه ، ولمن يكون فى يده كتاب من يد عائذ يبيح له ولأى واحد يخوله عائذ فى حياته أن يدفن فيه ، فى شهر ابريل فى السنة التاسعة للحارث ملك الأنباط محب شعبه (وذلك حوالى سنة ١٨ م) ولعن ذو الشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئا آخر ، أو يدفن فيه أحداً إلا الذين كتبت أسماؤهم أعلاه . . . اهـ »

٣٣ — أقصوصة طسم وجديس :

طسم وجديس ابناعم ، يصعد النسابون نسبهما إلى سام بن نوح عليه السلام . أما موطنهما فقد حدد له المؤرخون منطقة اليمامة ، وكانت تسمى فيما مضى جو ، ويدل سياق الأقصوصة على أن الغلبة كانت لطسم ، فكان منها الحكام والسادة . وحدث أن ولى ملك من طسم اختلف القصاص فى اسمه فبعضهم يسميه عملوق وآخرون عملاق وغيرهم عمليق . وكان عملوق هذا فاجرا ظالما سيء السيرة ، وكان يستذل جديسا وينتهك أعراضها ، ويسوقون تدليلا على شناعة فعاله أن امرأة من جديس خاصمت زوجها إلى عملوق هذا ، تريد أن تأخذ ابنها منه ويريد هو أن يحتفظ بالغلام ، فكان حكم عملوق أن يرسل الغلام مع عبيده ، وأن تباع المرأة والرجل فيأخذ الرجل خمس ثمن المرأة وتأخذ المرأة عشر ثمن الرجل وفى هذا قالت المرأة واسمها هزيلة :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا ... فأصدر حكما فى هزيلة ظالما
لعمرى قد حكمت لامتورعا ... ولا فهما عند الخصومة عالما

ندمت فلم أقدر على متزحزح   وأصبح زوجى مائر الرأى نادما

واتصل بعملوق ماقالته هزيلة فغضب وأصدر أمرا بأن لاتزف بكر إلى زوجها حتى تحمل اليه أولا فيفترعها ، فلقوا من ذلك بلاء وجهدا وذلا ، ولم يزل يفعل ذلك حتى حدث أن امرأة من جديس تسمى عفيرة خطبت إلى زوج من قومها ، فلما حان موعد زفافها إلى بعلها حملها العبيد ليزفوها إلى عملوق قبله ، وتكلموا فى ذلك كلاما لمس عزتها وخرجت المرأة من فراش عملوق ودمها يسيل وقد شقت ثوبها من خلف ومن قدام وأخذت تنشد :

لا أحد أذل من جديس   أهكذا يفعل بالعروس؟

ثم أبت أن تمضى إلى زوجها وقالت تحرض قومها :

أيصلح مايؤتى إلى فتياتكم   وأنتم رجال فيكمو عدد النمل
أيصلح تمشى فى الدماء عفيرة   صبيحة زفت فى النساء إلى البعل

من قصيدة طويلة منها :

فلو أننا كنا الرجال وكنتمو   نساء لكننا لانقر على الذل
وإن أنتمو لم تغضبوا بعد هذه   فكونوا نساء لاتفروا من الكحل ..الخ

وكان أخو عفيرة من سادة قومه وأصحاب الرأى فيهم ، فتحركت نخوته كما أحس المذلة قوم جديس ، فاغتنم هو فرصة انفعال القوم واستشعارهم الذل ، فقال لهم هل لكم أن تتبعوا رأيى أرحكم من هذا الغشوم وطغيانه ؟ فقالوا له لم تعد لنا طاقة على احتمال هذا الهوان ، فمرنا نفعل ماتريد فاقترح عليهم أن يدفنوا سيوفهم تحت الرمل وأن يتظاهروا بالولاء والإكبار للملك وأن يدعوه هو ورجال حاشيته إلى مأدبة فى العراء فوافقوا على ذلك . وتمت دعوة الملك وبينماهم فى وسط الطعام والشراب إذا بجديس تخرج السيوف من تحت الرمال فتجندل الملك وتقتله شر قتلة هو ورجال حاشيته ، ثم يعمد القوم إلى الفتك برجال طسم ، حتى كادوا أن يفنوهم جميعا ، ويفلت من طسم رجل يفر إلى ملك اليمن ـ ويقولون إنه حسان بن تبع ـ فيستنصره على جديس ويستمع ملك اليمن إلى هذا الطسمى ، فيسير معه فى جند كثيف إلى جديس حتى إذا ماأصبح القوم على بعد ثلاثة أيام من اليمامة مقر طسم ، إذا بهذا الطسمى يخبر ملك اليمن أن له أختاً فى جديس ترى على مسيرة ثلاثة أيام وأنه يخشى أن تراهم

فتحذر القوم ، ثم يقترح على الملك أن يحمل كل جندى فرعا من شجرة كبيرة يستتر وراءها ، حتى يستطيعوا أن يفاجئوا جديسا قبل أن يتحوطوا للقائهم .

وتتطلع زرقاء اليمامة ـ وهى أخت ذلك الطسمى ـ إلى ناحية الجنوب الغربى فترى شجرا يتحرك . ومن وراء ذلك الشجر جنودا تحمل سلاحا ، ومنهم من يتعرق كتفا أو يخصف نعلا أو يخيط ثوبا ، فأنذرت قومها وحذرتهم اليمن فسألوها عن الخبر ، فقالت :

إنى أرى شجرا من تحته بشر   فكيف تجتمع الأشجار والبشر
ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم   فإن ذلك منكم ـ فاعلموا ـ ظفر

فلم يصدقوها واعتبروا كلامها حديث خرافة (تأمل) ومازالوا فى غير حذر حتى صبحهم ملك اليمن فأباد الرجال وسبا النساء والذرية وحطم البيوت ، ثم أمر بزرقاء اليمامة فاقتلعوا عينيها ، وتقول الأقصوصة إنهم وجدوا فى داخلها عروقا سوداء ، فقالوا لها : من أى شيء ذلك قالت كحل أكتحل به ، قيل ماهو قالت : الأثمد ، فاتخذوه بعد ذلك كحلا . ثم أمر الملك بها فصلبت على باب المدينة .

وهكذا كان فناء طسم على يد جديس ، وجديس على يد ذلك الملك اليمنى .

ونحن لا نستطيع أن نجزم ـ حتى ولو صرفنا النظر عما فى القصة من المبالغات الخرافية ـ بصحة وجود طسم وجديس ولكننا إذا افترضنا وجودهما فإنا قد نستنتج أن هلاكهما كان فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، وأن الحكومة كانت إقطاعية بسبب كثرة تردد أسماء السادة فى سياق الأقصوصة ، ولأن مثل تلك العادة القذرة التى أشير اليها آنفا ، إنما يغلب وجودها فى البلاد الإقطاعية .

وبمناسبة هذه العادة نشير إلى ماذكره المستشرق جورج سيل ، من أن مثل هذه العادة كانت شائعة فى بعض مقاطعات انجلترا واسكتلنده فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى . كما يذكر بعض المؤرخين أنها كانت شائعة فى كثير من البلاد الأوربية فى عهد الإقطاع ، وكانت تعرف باسم « حق السيد » .

والآن وقد انتهينا مما أردنا ايراده عن أشهر القبائل البائدة نجمل القول فى الفقرة التالية عن القبائل البائدة الأخرى التى ورد ذكرها فى كتب العرب .

٣٤ — بقية القبائل البائدة :

(ا) قبيلة أميم ويقولون إنها سكنت بادية أبار وهى تقع إلى الجنوب من اليمامة .

(ب) عبيل ويقال إنها سكنت موضع يثرب ، ثم أخرجهم منها العماليق فنزلوا موضع الجحفة بين مكة المدينة .

(ح) عمليق وهى عدة قبائل عرفت بالعمالقة وقد ورد ذكرهم فى التوراة ، ويرى بعض المؤرخين المحدثين أنه كانت لهم دولتان كبيرتان إحداهما بالعراق والأخرى بمصر ، وأن دولتهم فى العراق هى دولة حورابى ، ودولتهم فى مصر هى دولة الهكسوس التى قضى عليها أحمس الأول .

أما مؤرخو العرب فيقولون إنهم قبائل عدة سكن بعضها أرض الحجاز وتهامة (وهى قبائل بنى ليف وبنى سعد وبنى مطر) وسكن بعضها نجدا (وهى قبائل بديل وغفار) وسكن بعضها شمال شبه الجزيرة (وهى قبيلة بنى هومر بن عمليق) وسكن بعضها عمان (وهى جاسم) وسكن بعضها فلسطين (وهم عمالقة التوراة الذين يقول عنهم العرب : الجبابرة) .

(د) جرهم وهم قبيلتان ، جرهم الأولى ويقال إنها كانت على عهد عاد وجرهم الثانية وهم الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام .

(ه) عبد ضخم ويقال إنهم سكنوا الطائف .

(و) وبار ويقولون إنها كانت مع عاد ... الخ .

والعجيب من أمر هذه القبائل البائدة ، أن مؤرخى العرب لم يذكروا من أخبارهم شيئا فيه غناء ، عدا ما اختلفوا فيه من تفصيلات أنسابهم وبيان مواطنهم مما يحملنا على الاعتقاد بأن أمرهم لم يكن إلا ميثولوجية غير ناضجة ، اللهم إلا إذا أماطت الكشوف القائمة الآن اللثام عن شيء من مواطنهم وأخبارهم .

وبهذه المناسبة نذكر أنه كانت هناك دولتان لم يسمع بهما العرب ولم يرد لهما ذكر فى كتبهم . ونقصد بهما دولة بنط ودولة معين وقد ظهرتا فى بلاد اليمن ، وقد تكون

دولة معين استمرارا لدولة بنط كما قد تكون دولة مستقلة عنها . ولا نستطيع أن نجد تاريخا للدولة الأولى ، ولكن الراجح أنها عاشت فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وأنها كانت تعاصر الأسرة الخامسة من أسرات التاريخ المصرى القديم، أما الدولة الثانية ، دولة معين ، فلا نعلم متى بدأت أيضا ، ولكن العلماء يحددون لسقوطها حوالى سنة ١٠٠٠ ق م ، ويرجحون أنها كانت تعاصر فى تاريخ مصر القديم الأسرات من ١٧ إلى ٢٤ بمقتضى تأريخ العلامة برستد للأسرات المصرية ، وأن علاقات تجارية أو سياسية كانت تربط ما بينها وبين الأسرة ١٨ بصفة خاصة .

وسنعود إلى تفصيل الكلام عن هاتين الدولتين عند الكلام فى تاريخ اليمن القديم ، وإنما ذكرناهما هنا مجاراة لأسلوب مؤرخى العرب باعتبارهما من القبائل البائدة .

ونود أن نذكر أن تقسيم طبقات العرب إلى بائدة وعاربة ومستعربة لا يعنى أن كل طبقة جاءت بعد الأخرى . إذ يجوز جداً أن تكون بعض القبائل التى نسميها بائدة قد ظهرت بعد ظهور العرب العاربة ، ومما لا شك فيه أنه جاء وقت كانت تعيش فيه الطبقات الثلاث متعاصرة .

٢٥ — العرب العاربة :

وتسمى أيضا العرب العرباء برغم أن لغتها لم تكن عربية وأنها تعلمت العربية من البائدة ، وتعرف أيضاً بعرب الجنوب لأنها اتخذت جنوب بلاد العرب مقراً لها وقد يطلق عليها بسبب ذلك اسم العرب اليمنية أيضا كما يطلق عليها أيضاً اسم السبئية نسبة إلى أشهر دولها سبأ وأكثر ما توصف به فى كتب مؤرخى العرب هو القحطانية نسبة إلى جدها الأول قحطان ، فقد ورد فى كتاب سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب للبغدادى الشهير بالسويدى أن قحطان هذا هو ابن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وأنه أنجب من الأولاد جرهم والسلف وحضرموت ويعرب الذى أنجب يشجب الذى أنجب حمير . . . . الخ . والظاهر أن قحطان هو تحريف ليقطان Joctan الذى ورد ذكره فى الإصحاح ١٠ آية ٢٥ ، ٢٦ من سفر التكوين فى صدد الكلام عن قبائل بنى نوح الذين تفرقت منهم الأمم فى الأرض بعد الطوفان .

ولا نستطيع أن نجزم من أى بقعة من الأرض أتى هؤلاء القحطانيون قبل أن يستقروا فى إقليم اليمن ، فلقد كان يرجح – كما أشرنا آنفا – أنهم جاءوا من الحوض الأدنى لنهرى دجلة والفرات حيث إقليم كلديا ، وأنهم كانوا يتكلمون بادىء ذى بدء إحدى اللهجات الكلدانية . وأنهم جاءوا عن طريق البر وما زالوا يضربون فى الصحارى حتى أغراهم خصب اليمن بالاستقرار فيها ، وقد تكاتفوا مع بعض أعداء دولة معين حتى أسقطوها ، وطبيعى أن هذا تم بعد أن عاشوا فى اليمن على حالتهم البدوية مدة طويلة .

ولكن الأستاذ فلبى Philby آخر من كتب من تاريخ العرب فى عصر ما قبل الإسلام كتابا مستقلا صدر بالاسكندرية سنة ١٩٤٣ يذهب إلى أن عرب الجنوب لم يجيئوا من مكان آخر وأنهم الأصل فى العرب بدليل أن العرب القدماء أنفسهم كانوا يطلقون على عرب الشمال لفظ المستعربة أى الدخلاء فى العروبة وأن الهجرات بدأت منهم فى الجنوب إلى أطراف الهلال الخصيب حيث العراق والشام وفلسطين وحتى مصر وأن لغتهم – وقد فحص نحو ٦٠٠٠ نقش مكتوب بها – لا تختلف كثيراً عن العربية الشمالية ولا تعدو أن تكون شكلا قديما للشمالية التى اختفت منها كلمات لم تعد مستلزمات الحياة تتطلبها تتعلق بآلهة الوثنية وأعمال الرى والزراعة وتجارة البخور تلك التى كانت من مفاخر بلاد العرب القديمة . (راجع كتابه « ظهر الإسلام Back ground of Islam ») ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الأستاذ فلبى يعرف بلاد العرب الحديثة جيداً ويحذق من تاريخها القديم وجغرافيتها وتقاليدها ولغتها الدارجة ما لا يحذقه إلا الأقلون من المستشرقين .

كذلك لا نعرف فى أى وقت سكنوا أرض اليمن ، فقد اكتفى الدكتور (نلدكه) Noldeke – وهو حجة فى تاريخ العرب – فى تاريخ المؤرخين للعالم بأن قال : إنه فى الألف الثانى قبل الميلاد قد مهدت بلاد اليمن – مقر السبئيين والحميريين – بسبب صلاحيتها للزراعة السبيل لظهور مدنية خلفت وراءها آثارا ذات مبان ضخمة ونقوش عديدة لا تزال تثير إعجابنا . ثم إن اليونان والرومان كانوا على حق إذ سموا هذه الأقاليم بلاد العرب السعيدة ، وأشار إلى نصوص كثيرة فى التوراة تشير إلى عظمة السبئيين وخص بالذكر قصة ملكة سبأ وزيارتها سليمان الواردة فى الإصحاح العاشر من الملوك الأول . ثم قال إن الشطر الأكبر من غنى سبأ يرجع إلى اتجارها

فى بعض المواد ذات الرائحة الزكية ، وخاصة البخور الذى كان يحتاج إليه فى المعابد والذى ورد ذكره فى كثير من أسفار التوراة . ثم قال : إن هذه المتاجر كانت تنقل إلى الشمال فى طرق القوافل وأنهم حصلوا أخيراً على بعض نقوش فى شمال الحجاز تشير إلى أن السبئيين كانت لهم محطات تجارية ثابتة ، وإلى أنهم كانوا يمارسون بعض النفوذ على بقية بلاد العرب إبان سطوتهم ، وأن آثار ذلك النفوذ كانت واضحة وخاصة فى الجزء الغربى حيث كانت تمر طرق القوافل .

ويرجع الدكتور نلدكه أسباب تدهور اليمن إلى عدة مسائل وهو لا يرى فيما يقوله مؤرخو العرب من إرجاع ذلك إلى تصدع سد مأرب تعليلا كافيا للتدهور ، وهو يعتقد أن تصدع السد لم يكن سببا للتدهور ، إنما كان نتيجة له ولما صحب التدهور من إهمال شأنه ، وهو جزء ضرورى للرى المنتظم . وهو يميل إلى الرأى القائل بأن هجرة اليمنيين إلى الشمال التى تمت فى القرن الثانى الميلادى كانت من عوامل ذلك الانحلال .

وبعد أن أشار إلى الغزو الحبشى لليمن الذى تم سنة ٥٢٥ م . والغزو الفارسى الذى تم حوالى سنة ٥٧٥ م . قال إن اليمن رغم ما توالى عليها من أحداث كانت مدنيتها لا تزال أعلى المدنيات فى بلاد العرب ، بدليل أنها ما فتئت تورد لها بعضا من المصنوعات الهامة مثل السيوف والأقمشة والملابس .

ثم يقول إن أهل اليمن كانوا يشعرون شعورا خفيا بمكانتهم العظيمة هذه وبما قام به أسلافهم من أعمال عظام لم يكونوا يعرفونها على وجه التحديد ، لأنها لم تكن مدونة ، وأنهم من أجل ذلك بعد أن تم الفتح الإسلامى تحت زعامة العرب القرشيين واستقرت شئون الإمبراطورية أرادوا ألا يكون لإخوانهم الشماليين فضل عليهم وعمدوا إلى الإشادة بفضل أسلافهم واخترعوا لذلك قصصا أسرف خيالهم فيها إسرافا بعيدا .

تلك وجهة نظر عالم كبير عن علماء التاريخ العربى لخصناها لنعطى صور مصغرة من وجهات النظر الحديثة لتاريخ الطبقة الثانية من طبقات العرب . أما تاريخ

دول اليمن وحضارتها ومظاهر تلك الحضارة فى أدوارها المختلفة فسنفصل الكلام عنه فى فصل تال .

٣٦ — العرب المستعربة :

ويعرفون أيضا بعرب الشمال ، أو العرب العدنانية ، أو عرب الحجاز ، أو العرب الاسماعيلية . ويغلب فى تواريخ العرب تسميتهم بالعرب العدنانية نسبة إلى عدنان من سلالة إسماعيل عليه السلام .

ورد فى كتاب سبائك الذهب للسويدى فى سياق نسب العرب العدنانية أن عدنان هو ابن أد بن أدد الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل ابن إبراهيم (عليهما السلام) وإذا نظرت فى جداول النسب التى وضعها تجد أنه يواصل السلسلة إلى آدم أبى البشر ، فيقول إن إبراهيم هو ابن تارح ابن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن قالع بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح (عليه السلام) بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ ابن اليارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

ولسنا نشك لحظة فى أن هذه الأنساب لا تعتمد على أى أساس علمى بل إن العلم ليتعارض مع الكثير منها ، وإنما أوردناها هنا لبيان وجهة من وجهات النظر القديمة .

وعلى الرغم من أن العلماء المحدثين لا يؤمنون بصحة هذه الأنساب إلا أن الإجماع يكاد ينعقد بينهم على صحة نسب العرب المستعربة إلى إسماعيل عليه السلام .

وتتفق الروايات العربية مع التوراة فى قصة إسماعيل عليه السلام فى مجموعها مع اختلافات بسيطة ، فالتوراة تقول إن إخراج إسماعيل وأمه هاجر كان إلى برية بئر سبع على مقربة من خليج العقبة والعرب يقولون إن إسماعيل أقام بمكة .

وخلاصة قصة إبراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام أن إبراهيم ولد بالعراق فى مدينة أور الكلدانية لأب نجار ، كان يصنع الأصنام فلما شب إبراهيم ساوره الشك فى أمر الأصنام ، فتغفل القوم وحطمها إلا كبيرها ثم فشل فى هداية قومه ، وكان

نصيبه أن ألقى فى النار فنجاه الله منها ، ثم فر إلى فلسطين ، ومعه زوجه سارة ، وارتحل إلى مصر بها ، ثم خرج منها وقد أعطاه ملكها جارية هى هاجر ، وولدت له هاجر ابنه الأول إسماعيل ، ثم ولدت له سارة ابنه إسحاق . وسوى إبراهيم فى العطف بين ولديه إسماعيل وإسحاق ، فغضبت سارة ، فذهب بهاجر وابنها اسماعيل إلى وادى مكة القفر ، ثم تفجرت بئر زمزم ، وأغرى ذلك بعض القبائل اليمنية الرحل بالسكنى إلى جوار الماء فسكنت قبيلة جرهم من عرب اليمن وتزوج منهم إسماعيل زوجة سرحها ، ثم تزوج جرهمية أخرى هى بنت مضاض بن عمرو ، وولد لإسماعيل من هذا الزواج اثنا عشر ولدا هم آباء العرب المستعربة .

هذا هو هيكل القصة التى سنعود إليها بشىء من التفصيل عند الكلام على تاريخ الإمارة بالحجاز ، وهى قصة كما قلنا يكاد ينعقد الإجماع على جملتها ولكن يبرز لنا من ثناياها سؤال يحتاج إلى جواب وهو : لمن يصح أن تنسب هذه العرب المستعربة ؟ إلى العرب القحطانية لأن زوج إسماعيل الجرهمية كانت منهم ؟ أم إلى الكلدانيين لأن أبا إسماعيل كان منهم ؟ أم إلى العبرانيين لأن إبراهيم أقام فى فلسطين ؟ أم إلى المصريين القدماء لأن هاجر أم إسماعيل كانت مصرية قديمة ؟ .

كذلك يبرز سؤال آخر : وهو أى لغة كان يتكلم إسماعيل حين تركه أبوه فى مكة وهو بعد طفل رضيع على حد بعض الروايات ؟ أكان يتكلم اللغة المصرية القديمة لغة أمه أم كان يتكلم الكلدانية لغة أبيه ؟ — وذريته بعد أن تزوج وأنجب أى لغة كانوا يتكلمون أهى اللغة الحميرية لغة أمهم ، أم لغة أبيهم ؟

وإذ كانت نظرية المغفور له الأستاذ أحمد كمال باشا الأثرى المصرى فى العلاقة العظيمة بين اللغة العربية والمصرية القديمة التى مكنته من إرجاع معظم المفردات العربية إلى أصول مصرية قديمة — أو العكس لا أدرى تماما — صحيحة فهل يلقى ذلك ضوءاً على الغموض الذى يكتنف هذه الأسئلة ؟ .

الحق يقال إن الاجابة على هذه الأسئلة وما سبقها فى ظل ما تحت أيدينا من المراجع لا يمكن أن تكون إجابة حاسمة خالية من الحدس والتخمين .

على أنا قد نستطيع الإجابة على سؤال ثالث قد تكون محاولة الإجابة عنه ضرورية ، وهو فى أى عصر هبط إسماعيل مكة ، وليس لنا مرجع فى الإجابة عن

هذا السؤال إلا التوراة . ولقد قلنا إن إبراهيم غادر أور إلى فلسطين ثم هبط منها إلى مصر وخرج ومعه هاجر .

ولكن الآثار الكلدانية لاتتكلم ، كذلك لانجد فى الآثار المصرية أدنى إشارة إلى هاجر أو إبراهيم . وحيال صمت الآثار هنا وهناك لايجد المستشرقون بدأ من القول بميثولوجية القصة من الناحية العلمية من أولها إلى آخرها . أما علماء التوراة فإنهم بمقارنة التواريخ والأعمار الواردة فيها أمكنهم أن يصلوا إلى ما يأتى :

(١) أن إبراهيم غادر أور الكلدانية سنة ١٩٢١ ق . م

(٢) أن ولادة إسماعيل كانت سنة ١٩١٠ ق . م

(٣) أن طرد هاجر مع ابنها إسماعيل كان حوالى ١٨٧١ ق . م

(٤) أن وفاة إبراهيم كانت ١٨٢٠ ق . م

(٥) أن وفاة إسماعيل كانت ١٧٧٣ ق . م

وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن نشأة العرب المستعربة كانت تعاصر أواخر أيام الأسرة الثانية عشرة المصرية وأوائل عهد الهكسوس ، وذلك بمقابلة هذه التواريخ بالتواريخ التى حددها العلامة برستد Breasted للأسرات المصرية . ونحب أن نذكر أيضاً أن هذا فيه شىء غير قليل من الحدس والتخمين .

وسنتكلم فى الفقرة التالية عن بعض الفوارق بين العرب القحطانية والعرب العدنانية .

٣٧ — بعض الفوارق بين عرب الجنوب وعرب الشمال :

الفروق بين الشعبين كثيرة يرجع بعضها إلى البيئة الطبيعية أو نظام الاجتماع أو اللغة أو الدين أو غير ذلك ، وقد رأينا أن نلخصها هنا قبل تفصيل الكلام لنسترشد بها كمبادىء أساسية أثناء دراسة تاريخ كل منهما . وأهم هذه الفروق ما يأتى :

١ — أن عرب الجنوب فى الغالب أهل إقامة على عكس عرب الشمال الذين تغلب فيهم البداوة . الأولون يسكنون بيوتا مشيدة فى مدائن ، والآخرون يسكنون

بيوتاً من الشعر أو الجلد يضربونها حيث يطيب لهم المقام ، وظاهر أن طبيعة كل من المنطقتين كانت ذات أثر فى ذلك .

٢ — أن لغة أهل الجنوب المعروفة بالحميرية وإن كانت لغة سامية إلا أنها تختلف عن لغة أهل الشمال العربية فى الضمائر وأسماء الإشارة وغير ذلك من أحوال الاشتقاق والتعريف ، حتى لقد كان أهل الجنوب لايفهمون لغة نجدوأهل الحجاز التى انتشرت انتشاراً كبيراً بالنسبة إلى اللغة الحميرية التى أصبحت فى صدر الإسلام غير معروفة .

٣ — أن الخط المسند الحميرى الذى كان يكتب بحروف منفصلة ، والذى كان مشتقا من الخط الفينيقى المأخوذ من الخط السينائى المأخوذ من الخط الهيروغليفى كان يختلف عن خط أهل الشمال على الرغم من أنه مأخوذ منه .

٤ — كان يشترك الشعبان فى الوثنية وفى عبادة الأصنام ، ولكن آلهة الجنوب كانت تمت بصلة إلى آلهة بابل على عكس آلهة الشمال .

٥ — انفرد كل من الشعبين بأسماء تخالف أسماء الشعب الآخر ، وكانت أسماء أهل الجنوب تشبه الأسماء البابلية على عكس أسماء أهل الشمال ، التى كانت فى الغالب مستمدة من مظاهرة البداوة التى تحيط بهم .

٦ — أهل الشمال مستطيلو الرءوس أشد شبها بأجناس البحر الأبيض . أما أهل الجنوب فمستديرو الرءوس يمتازون بالفك العريض والأنف الأقنى .

٧ — وبين الشعبين فوارق خلقية أخرى ، فأهل الجنوب أقرب إلى اسوداد اللون ، وتشبه سحنهم من وجوه كثيرة سحن الإفريقيين من أهل الحبشة والصومال .

أما أهل الشمال فإنا نجد الرجل منهم وبخاصة إذا كان بدوياً فيه المميزات السامية كاملة ، فنجده أسمر ، ممدود القامة ، تقاطيع وجهه واضحة ، وهذا عدا فروقا أخرى مثل الشعر ووزن الجمجمة وغير ذلك .

٨ — وأخيراً أنشأ أهل الجنوب حضارة بحكم استقرارهم ، أما أهل الشمال فيرجع الفضل إلى الإسلام ، فى أن كون منهم دولة ، ووحدهم لأول مرة فى التاريخ .

والآن وقد انتهينا من الكلام على الشعوب العربية إجمالا فإنا نبدأ الكلام بشىء من التفصيل عن تاريخ دول اليمن .

الباب الرابع

تاريخ اليمن

٣٨ — تمهيد :

لا يصح الاعتماد فى كتابة تاريخ اليمن على المصادر العربية إلا قليلا . أولا : لأنها لم تتعرض بشىء من العناية إلا لمعالجة العصور المتأخرة من تاريخ اليمن . أما العصور السابقة لتلك ، فإن ما كتبوه إن كانوا كتبوا شيئاً لا يجدر أن يسمى تاريخا ، إنما هو إلى الخيال والخيال السقيم أقرب . وثانيا : لكثرة ما نلقاه من الاختلافات والتناقضات فيما كتبوا ، ونضرب لذلك مثلا بما كتبوه عن الدولة الحميرية : فبينما يذكر المسعودى أن عدد ملوكها خمسة ، إذا بابن خلدون يجعلهم ثمانية وأبى الفداء يجعلهم أحد عشر ملكا ، أما نشوان بن سعيد صاحب القصيدة الحميرية فإنه يعد فى قصيدته أسماء ستة عشر ملكا .

ولا يتفق هؤلاء فى أسماء الملوك ولا فى تعاقبهم وإنما يتفقون فى أن أولهم حمير وأن آخرهم الحارث . أما حمزة الأصفهانى فإنه يقول : إن بين حمير والحارث ١٥٠ أبا . وطبيعى وهذا الخلاف كما ترى فيما لا يكون عادة موضع خلاف بين المؤرخين أن يكون أشد وأطغى فى أعمال الملوك وأخبار الدولة .

وناحية أخرى تجعلنا نتردد فى الاعتماد على ما كتبه معظم هؤلاء المؤرخين . تلك هى مدة الحكم التى نسبوها إلى بعض الملوك ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره حمزة الأصفهانى من أن أبرهة ذا المنار من ملوك التبابعة حكم ١٨٣ سنة ، وافريقش بن أبرهة حكم ١٦٤ سنة ، والأقرن بن أبى مالك حكم ١٦٣ سنة ، وأسعد أبا كرب حكم ١٢٠ سنة . . . الخ .

والظاهر أن هذا الخلط فى التاريخ لم يلفت أنظار المحدثين فحسب ، بل لفت أنظار بعض النابهين من المؤرخين القدامى كابن خلدون ، فلقد ورد فى مقدمته وهى

الجزء الأول من تاريخه فى صفحاتها الأولى ، ما نصه : « ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب ، وأن أفريقش بن صيفى من أعاظم ملوكهم الأول ، وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا أفريقية وأثخن فى البربر ، وأنه الذى سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم ، وقال : ما هذه البربرة . . . وذكر المسعودى : أن أسعد كرب ملك الموصل وأذربيجان لقى الترك فهزمهم وأثخن ، ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك ، وأنه بعد ذلك غزا ثلاثة من بنيه بلاد فارس إلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر وإلى بلاد الروم ، فملك الأول البلاد إلى سمرقند ، وقطع القارة إلى الصين ، فوجد أخاه الثانى الذى غزا سمرقند قد سبقه إليها ، فأثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم ، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير ، فهم بها إلى هذا العهد ، وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع » . ثم يذهب ابن خلدون فيقول : « وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلط ، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة ، وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن ، وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس من الشرق وبحر السويس من الغرب كما تراه فى مصور الجغرافيا ، فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقا من غير السويس ، والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامى ، ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله ، هذا ممتنع فى العادة . . . ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال ، وأيضا فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كبيرة . . . أما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك وإن كانت طريقه أوسع من مسالك السويس إلا أن الشقة هنا أبعد وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ، ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وإن كانوا يحاربون بلاد فارس على حدود بلاد العراق . . . فالأخبار بذلك واهية مدخولة وهى لم تدخل فى وجه صحيح . » اه

هذا هو رأى واحد من نابهى المؤرخين العرب فيما كتبه زملاؤه المؤرخون فى تاريخ العرب ، ولكن يجب أن لا يحملنا هذا على تصديق كل ما كتبه هو نفسه عن تاريخ اليمن .

والسبب فى ذلك واضح وهو أن ابن خلدون نفسه لم يعتمد فى كتابته على نقوش أو آثار إنما اعتمد على الرواية لغيره من المؤرخين ، ولم يكن له فضل عليهم إلا غربلة الروايات وتمييز الغث من السمين فى نظره ، وليس أدل على ذلك من أن أسماء الملوك التى حصل عليها العلماء المحدثون لا يوجد لها ما يقابلها ، بل هى تختلف اختلافا تاما عما أورده مؤرخوا العرب كما بين ذلك العلامة نيكلسون فى كتابه تاريخ الأدب العربى الذى سنبين رأيه فى الفقرة التالية .

٣٩ — رأى الأستاذ نيكلسون :

ورد فى كتاب الأستاذ نيكلسون السالف الذكر ما خلاصته أن أسماء ملوك حمير وتعاقبهم لا يمكن أن يمت إلى الحقيقة بسبب ، وأنه إن كانت هناك شخصيات تاريخية تحمل هذه الأسماء التى ذكرها مؤرخو العرب فلا يمكن أن ترجع إلى أزمنة متأخرة قبل ظهور الإسلام ، ولعلها أسماء بعض الأمراء قليلى الأهمية الذين أضفت عليهم الأقاصيص ثيابا من البطولة . وعلى من يشك فى صحة هذا أن يقارن تلك الأسماء التى أوردها المؤرخون بما حصل عليه المستكشفون من النقوش ولقد جمع الأستاذ مولر من بينها قائمة تتضمن أسماء ثلاثة وثلاثون من ملوك سبأ .

ويشعر تكرار بعض الأسماء بأن البلاد كانت تحكمها أسرات مالكة ، وكان للملوك ألقاب تضاف إلى أسمائهم ، ومن بين هذه الأسماء ذمرعلى — ويثعمر بين — وكرب ايل وتار يهنعم — وسمعهلى ينوف .

وعلاوة على ذلك فإن ملوك اليمن كانت لهم ألقاب مختلفة تشير إلى عدة فترات من التاريخ السبئى وهى :

(١) أميرسبأ (مكارب سبأ) ومكارب هذه تشير إلى الجمع بين الإمارة والكهانة .

(٢) وملك سبأ .

(٣) وملك سبأ وذو ريدان .

(٤) ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات .

(٥) ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات وعربهم فى الجبال وفى تهامة .

وبهذه الطريقة صار من الممكن أن تعين على وجه التقريب العصور التى أسست فيها المبانى المختلفة وحفرت فيها النقوش .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن معظم ما وصل إلينا من الآثار يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد وما قبله .

٤٠ — أدوار التاريخ اليمنى القديم :

يمكننا أن نقسم تاريخ اليمن قبل الإسلام تسهيلا لمعالجته إلى الأدوار التاريخية الآتية :

(١) الدور الخرافى أو الدور الميثولوجى ، وهو ليس من التاريخ الحقيقى فى شىء ، وعلى ذلك لا يمكن تحديد تاريخ له .

(٢) الدور البنطى (؟ — ٣٠٠٠ ق . م) ولا يمكن أن نحدد له مبدأ ولا نعرف له عاصمة .

(٣) الدور المعينى (٣٠٠٠ — ١٠٠٠ ق . م .) وكانت العاصمة قرناو وموضعها الحديث معين إلى الشمال الشرقى من صنعا ، أما العاصمة الدينية فكانت يثيل ومكانها اليوم براقش .

(٤) الدور السبئى (١٠٠٠ — ١١٥ ق . م) وكانت العاصمة فى عهد المكارب صرواح ، وفى عهد الملوك مأرب .

(٥) الدور الحميرى الأول (١١٥ ق . م — ٣٠٠ م) وكانت العاصمة ظفار إلى الجنوب الغربى من صنعاء .

(٦) الدور الحميرى الثانى (دولة التبابعة ٣٠٠ — ٥٢٥ م) وكانت العاصمة ظفار أيضاً .

(٧) الدور الحبشى (٥٢٥ — ٥٧٥ م) وكانت العاصمة صنعاء .

(٨) الدور الفارسى (٥٧٥ — ٦٣٢ م) وكانت العاصمة صنعاء .

٤١ — الدور الخرافى :

من المعروف أن التاريخ الأسطورى (الميثولوجى) لأية دولة يسبق عادة

تاريخها الحقيق ، وأن أول من يذكره مؤرخو العرب من ملوك اليمن قحطان بن عابر الذى ينسب إليه عرب الجنوب ، ويربطون نسبه بسام بن نوح عليه السلام . ويقولون أنه اتخذ صنعاء اليمن داراً للملك ولبس التاج ، وكان عادلا حسن السياسة .

ثم ملك بعده ابنه يعرب ، الذى قيل إنه أول من تكلم العربية . وأول من قيل له : أنعم صباحا وأبيت اللعن . وينسبون إليه أنه كان كثير الفتوحات وأنه غزا الحجاز وتغلب عليها وولى علها أخاه جرهما . كما ولى أخاه عاد بن قحطان على جبال الشحر ، وعماد بن قحطان على أرض عمان . وينسبون إليه أيضاً أنه كان كثير العمارة وأنه أول من اختط المدن ، وهو الذى قال عنه حسان بن ثابت :

تعلمتمو من منطق الشيخ يعرب   أبينا فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم قديماً مالكم غير عجمة   كلاما وكنتم كالبهائم فى القفر

ويقال إنه لما حضرته الوفاة أوصى بنيه بحسن السيرة والسلوك بين الرعية وتعلم العلم ، وترك الحسد ، وإنصاف الناس الخ .

ولما مات ملك من بعده ابنه يشجب بن يعرب ، وكان ضعيف الرأى واهن العزيمة خاملا ، فاستبد أعمامه به واستقلوا بحكم ما كان فى أيديهم .

ولما مات خلفه ابنه عبد شمس الملقب بسبأ .

٤٢ — الدور البنطى :

لانعلم متى ظهرت دولة بنط ، ولكن التاريخ المصرى القديم ينبئنا عن رحلات تجارية كانت تقوم إلى الجنوب عن طريق البر أو البحر للحصول على السلع الغالية القيمة التى كان يحتاج إليها للأغراض الدينية وغيرها ، وأهمها البخور والصموغ الذكية الرائحة ، والراتينج (القلفونية أوصمغ الصنوبر) والأخشاب العطرية .

وترجع هذه العلاقات التجارية إلى أيام الأسرة الخامسة المصرية ، إذ تذكر النصوص أن الملك ساحو رع من ملوك القرن السادس والعشرين قبل الميلاد قاد أول حملة بحرية فى البحر الأحمر إلى أرض البخور أو بلاد بنط ، التى كان يظن أنها بلاد الصومال الحديثة فحسب . ولكن ثبت أخيراً أن لفظ بنط كان يدل على الأرض

الواقعة على الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، أو على جانبى باب المندب بشقيه الإفريقى والآسيوى . وقد أيد هذا الرأى أخيراً البحوث التى قامت بها كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٧ م ، كما أيدته أيضاً بحوث الأستاذين رانجنز وفون وسمز ، والتى نشرت فى كتاب « فى أعالى اليمن » لمؤلفه هيوسكوت (طبع لندن سنة ١٩٤٢) وقد كان هذا الرأى هو الذى نرجحه سنة ١٩٢٩ . وفى خريطة رسمناها للامبراطورية المصرية القديمة فى أقصى نفوذها وضعنا بلاد بنط على جانبى بلاد المندب . (راجع الأطلس الجغرافى التاريخى لزكى الرشيدى ومبروك نافع طبعة دار الكتب بمصر سنة ١٩٢٩ القسم التاريخى خريطة ١٧ ص ٦٩) .

وقد ظل المصريون القدماء يطلقون لفظ بنط على هذه البلاد الجنوبية رغم تقلب الدول عليها ، وكانت تسمى عندهم أيضاً « نانتر »ومعناها أرض الله ، ولقد أرسلت الملكة حتشبسيوت أول امرأة شهيرة فى التاريخ وهى من ملكات الأسرة الثامنة عشر المصرية (حوالى ١٥٠٠ ق . م) حملة إلى بلاد بنط مكونة من خمس سفن كبيرة للحصول على أشجار البخور والأخشاب الثمينة والجواهر وسن الفيل والعنبر . وعند وصول الحملة إلى « الأرض المباركة » أى بنط قابلهم أميرها بارهو هو وزوجته آتى ، ومعهما ابنتهما وولداهما مقابلة ودية للغاية ، وبعد تبادل الهدايا عاد الأسطول محملا بالأشجار الغالية ـ ومن بينها شجرة المر ـ وبالتبر والذهب والحلقات المعدنية وأكوام من الصمغ النفيس وجلود الفهود وغير ذلك . وقد نجح سفراء حتشبسيوت ـ علاوة على الحصول على الأشجار الثمينة التى غرس بعضها فى حديقة الإله آمون ـ فى الحصول أيضاً على طاعة أهل بنط . وتجد أخبار هذه القصة بأجمعها مدونة على جدران المعبد الكبير الذى أنشأته حتشبسيوت فى الدير البحرى .

٤٣ — الدور المعينى :

يذكر بعض المؤرخين دولة معين فى سياق كلامه عن السبئيين ، ويعتبرها لذلك من الدول القحطانية ، ولكن الكشوف الحديثة دلت على أن المعينيين سكنوا منطقة اليمن قبل السبئيين بعدة قرون ومن المحتمل جداً أن تكون معين قد تعاصرت مع دولة بنط وهى ـ على كل حال ـ أول دولة نستطيع أن نلمح بعض معالمها وسط ضباب التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية ، وقد ورد ذكرها فى مؤلفات اليونان

والرومان ، فذكرها پلينى واسترابون وبطليموس وغيرهم ، ونسبوا إليها الاشتغال بالتجارة وأنها كانت مصدر غناهم ، ولكنهم كانوا يعتبرونها تالية للدولة السبئية لا سابقة لها كما هو الواقع أما كتاب العرب فلم يرد لها ذكر فى كتبهم وصمتوا عنها صمتاً تاماً .

وفى عهد هذه الدولة كانت حملة حتشبسوت التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة .

وقد أظهرت الكشوف الحديثة أسماء ما يزيد عن عشرين ملكا من ملوك معين ، ورغم ذلك فانا لا نستطيع أن نكتب تاريخ معين السياسى .

أما أسماء ملوك معين التى عرفت فهى :

١ — يثعيل صادق ـ وقاه أيل يثيع ـ أبليفع يشير ـ حفنوم ريان .

٢ — أبليفع يثيع ـ أبييدع يثيع ـ وقاه أيل ريام ـ حفنوم صادق ـ أبليفع يتوش .

٣ — أبليفع واقه ـ وقاه أيل صادق ـ أبيكرب يثيع ـ عمييدع نابط .

٤ — أبليفع ريام ـ هوفا عاثت .

٥ — أبييدع ـ كليكرب صادق ـ حفن يائع .

٦ — يثعيل ريام ـ تبعكرب .

٧ — أبييدع حفنوم .

وأما ما يمكن أن يستخلص من الحوادث المبعثرة عن تاريخ معين ، فنذكره فيما يلى :

١ — أن التجارة كانت السبب الأول فى ثراء معين ، لأنها كانت تفرض ضرائب على البضائع التى تمر بها ، والتى كانت تنفرد بنقلها على الطريق البرى .

٢ — أن النظام الحكومى فيها كان إقطاعياً ، أو شبه ذلك .

٣ — أن نفوذها السياسى كان يمتد إلى بلاد كثيرة ، بما يقع على الطريق التجارى ، أو يتفرع منه . بدليل أنهم حصلوا على بعض نقود ونقوش وأختام معينية فى جنوب فلسطين وعلى نهر الفرات الأدنى .

٤ — أنه كان يعيش إلى جوار معين بعض دويلات ، مثل جمهورية قتبان التى كانت تطغى على أملاك معين .

٥ — أن السبئيين كانوا قبائل من البدو تغير على قوافل المعينيين .

٦ — أن السبئيين والقتبانيين تحالفوا على معين ، وتمكنوا من إسقاطها .

٧ — أن المعينيين كانوا يتكلمون نفس اللغة التى كان يتكلمها السبئيون باختلاف فى اللهجة .

٨ — أن نظام الوراثة فى الحكم كان متبعاً ، كما يستنتج من تكرار بعض الأسماء الملكية .

٩ — أن أسماء آلهة معين ـ وقد عرفوا منها الكثير ـ تشبه أسماء الآلهة البابلية . ومنها اسم ود ، ولكن المعلومات عنها ـ على حد تعبير دائرة المعارف البريطانية ـ تلى الجهل بها .

١٠ — أن عاصمة معين كانت تسمى قرناو ، وموضعها الحديث مدينة معين ، التى تخلد ذكرى الاسم القديم ، أما العاصمة الدينية فكانت يثيل ، وموضعها مدينة براقش الحديثة ، وكلتا البلدتين فى الجوف الجنوبى إلى الشمال الشرقى من صنعاء عاصمة اليمن الحديثة .

٤٤ — الدور السبئى :

حكمت الدولة السبئية زهاء تسعة قرون ، وهى أشهر دولة من دول بلاد العرب الجنوبية ، حتى ليطلق اسم السبئية من باب التساهل على كل الدول التى حكمت فى جنوب بلاد العرب وقد تعاصر حكام هذه الدولة الأول مع آخر الحكام المعينيين .

وينسب العرب تأسيسها إلى عبد شمس بن يشجب ، الذى يقولون إنه لقب بسبأ ، لأنه أكثر من الغزو فى أقطار البلاد ، وسبا خلقاً كثيراً ، وهو أول من سن السبى فى العرب ، فالسبئيون فى نظرهم من سلالة القحطانيين . وهناك رأى يقول بأن السبئيين أصلهم من الأحباش . ولكن الأرجح أنهم قبائل من البدو وفدت من الشمال وسكنت اليمن إلى جوار المعينيين ، فعاصروهم مدة كانوا يغيرون فيها على قوافل معين ، حتى تمكنوا ـ بمساعدة بعض الدويلات ، مثل جمهورية قتبان ، التى كانت قائمة إلى جوار معين ـ من إسقاطها . وأقدم إشارة إلى السبئيين فى الخارج ،

نقش يرجع إلى تجلات بلسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م) مؤسس الإمبراطورية الأشورية الثانية ، ونقش آخر يرجع إلى عهد سرجون الثانى (٧٢١ - ٧٠٥ ق . م) يشير إلى يثعمر السبئى، ونقش ثالث يرجع إلى عهد سنحاريب حوالى (٦٨٥ ق . م) يشير إلى كرب أيل السبئى ، وتتحدث هذه النقوش عن هدايا كان يقدمها الحكام السبئيون إلى هؤلاء الملوك ، يرى بعض المؤرخين أنها كانت جزية ، ولكنها لم تعد الهدايا لتحسين العلاقات صيانة لمصالح العرب التجارية . وأورد الأستاذ فلبى فى كتابه الأخير أنه توجد أدلة على أنه فى عهد سليمان كانت توجد قبيلة عربية تسمى سبأ تسكن الأقاليم التى تقيم بها الآن قبيلتا شمر والرولة ، وزعماء سبأ هذه هم الذين يعقل أنهم قدموا الهدايا إلى سرجون الثانى وسنحاريب .

وتذكر التوراة - فى سفر الملوك الأول الإصحاح العاشر - ملكة سبأ وزيارتها لسليمان . كما نجد أيضاً تفصيل قصة سبأ فى القرآن الكريم فى الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من سورة النمل ، وقصة سيل العرم فى الآيات من ١٥ إلى ١٩ من سورة سبأ .

وبمراجعة النقوش التى حصل عليها فى بلاد اليمن ، يمكننا أن نقسم تاريخ الدولة السبئية إلى قسمين : قسم يلقب فيه الحاكم بلقب مكارب سبأ ، وقسم يلقب فيه الحاكم بلقب ملك سبأ .

وليست لدينا معلومات محددة عن أعمال كل من هؤلاء المكارب أو الملوك ، ولا عن مدة حكم كل . ويتميز المكارب عن الملوك بأنهم كانوا يجمعون إلى الحكم الكهانة ، أو الرئاسة الدينية ، وكانت عاصمة المكارب قصر صراوح ، ومكانه مدينة خريبة الحديثة إلى الشرق من صنعاء ، أما عاصمة الملوك فكانت مدينة مأرب ، التى تبعد نحو ستين ميلا إلى الشرق من صنعاء . وتحدد سنة ٦٠٠ ق . م تقريباً لخاتمة عصر المكارب ، وبدأ عصر الملوك ، والفترة الثانية كانت أزهر عصور التاريخ السبئى .

وفى أسماء المكارب والملوك يلاحظ - أكثر من مرة - تعاقب اسم كرب بعد يثعمر ، كما نلاحظ إضافة بعض الألقاب إلى أسماء الحكام ، مثل وتار ومعناها العظيم ، وذرخ ومعناها الشريف ، وبين ومعناها الممتاز ، وينوف ومعناها السامى ، ويهنعم ومعناها المسخر .

(كانت الكتابة اليمنية القديمة تدون بحروف منفصلة ساكنة ليست لها حروف حركة تحدد النطق بالكلمات ، فهى من هذه الناحية تشبه المصرية القديمة ، وضبط النطق بالألفاظ ليست إلا مسألة تخمينية ، فلفظ مكارب مثلا كان يكتب م ك ر ب ، ولفظ و ت ر يمكن أن ينطق وتار أو واتر الخ)

وفيما يلى نثبت بأسماء مكارب سبأ وملوك سبأ التى حصل عليها :

المكارب :

(١) زمر على — سمعهلى ينوف — كرب أيل واتر — يثعمر بين .
(٢) سمعهلى — يدعيل ذرخ — يثعمر واتر — سمعهلى ينوف — يثعمر واتر — يدعيل بين .
(٣) يثعمر — كرب أيل بين — سمعهلى ينوف .

ملوك سبأ :

(١) سمعهلى ذرخ — اليشرح — كرب أيل .
(٢) يثعمر — كرب أيل واتر — يدعيل بين .
(٣) وهب أيل يحوز — كرب أيل واتر يهنعم .
(٤) وهب أيل — انماروم يهمين .
(٥) زمر على ذراح — نشكرب يهمين — واتر واتروم يهمين — يكرب ملك واتر — يريم أيمن .

وبهذه المناسبة نذكر أن لقب مكارب كان يحمله الحكام الأول القتبان التى كانت تتعاصر مع العهد الأول السبئى ، وكانت عاصمتهم تمنع ، وقد عرفت أسماء عدد من حكام قتبان نذكرها فيما يلى :

يدعب ذبيان — شهير يجول — هوفاعم — شهير يجول يهرحب — درويل غبلان يهنعم — أبيشيم — شهير غبلان — بعم — زمر على — يدعب يفول .

وكانت أسرة همدان فى ذلك العصر تتطلع إلى العرش ، وقد كشفت النقوش عن أسماء بعض أفرادها نذكرها فيما يلى :

أوس لات رفشان — يريم أيمن — بارج يهر حب — علهان — شمير أوتر — يريم أيمن — والأخيران هما ولدا علهان .

وفى أواخر هذا العصر بدأت أسرة حمير تظهر لأول مرة كعدو خارجى لدولة سبأ ، وقد كشفت النقوش عن أسماء بعض شخصياتها نذكرها فيما يلى :

فرع ينهب — اليشرح يحضب — يزل بين (والأخيران ولدا الأول) — نشا كرب يمن يهر حب .

٤٥ — ملكة سبأ :

لا يطعن عدم ذكر ملكة سبأ فى النقوش ولا بين الأسماء التى ذكرناها آنفا فى صحة وجودها . فلقد ورد ذكرها فى التوراة والتلمود والقرآن الكريم ، فنى التوراة ورد فى الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول ، الآيات من ١ — ١٤ ما خلاصته أن ملكة سبأ سمعت بخبر سليمان ، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم ، بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيراً وحجارة كريمة ، وامتحنته بمسائل ، فأخبرها بكل كلامها ، وأنها لما رأت حكمة سليمان والبيت الذى بناه ، وطعام مائدته ، ومجلس عبيده .. الخ . قالت إنها لم تصدق الأخبار حتى أبصرت بعينها ، وأنها رأت ضعف ما سمعت ، وقدست إله إسرائيل ، وأن الملك سليمان أعطاها كل مشتهاها الذى طلبت ، فانصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبيدها ، وفى الكتب الدينية اليهودية كالتلمود والترجوم تفصيلات وشروح مما ورد فى التوراة .

أما القرآن الكريم فقد ورد فيه ذكر سبأ فى موضعين ، الأول فى سورة النمل الآيات من ٢٤ — ٤٤ وفيه تفصيل لزيارة ملكة سبأ لسليمان ، والموضع الثانى فى سورة سبأ الآيات من ١٥ — ١٩ وفيه ذكر لسد مأرب وسيل العرم وتفرق القبائل ، وهذا الموضع الثانى سنعود إليه عند الكلام عن سد مأرب .

أما قصة ملكة سبأ الواردة فى سوة النمل ، فخلاصتها أن سليمان عليه السلام تفقد الطير فلم يجد الهدهد ، فلما جاء الهدهد قال لسليمان إنه جاء من سبأ وأنه وجد امرأة تملكهم تسجد هى وقومها للشمس . وأن سليمان بعث معه بكتاب ألقاه للملكة يطلب فيه ألا تعلو عليه وأن تأتى إليه مسلمة ، وأن الملكة جمعت قومها وشاورتهم فى

الأمر ، فقالوا إنهم قوم أولو قوة وإنهم رهن أوامرها ، وأنها أرسلت بعد ذلك إلى سليمان بهدية تصانعه بها فلما وصلت الهدية (أو الرشوة) سليمان لم يقبلها وأظهر أنه أغنى منها ، وهدد بأن يرسل إلى بلادها جنوداً لا قبل لهم بها وأنها على أثر هذا التهديد جاءت إلى سليمان الذى شيد لها صرحا ممرداً من قوارير ووضع فيه عرشها ، وأنها بعد أن رأت ما رأت ، قالت : (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

ويمكننا أن نستنتج من الآيات القرآنية التى وردت فى ملكة سبأ ما يأتى :

(١) أن رســـول سليمان عرف أخبار دولة جديدة على جانب من الغنى كانت تملكها امرأة .

(٢) أن أهل هذه الدولة كانوا يعبدون الشمس (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) .

(٣) أن دولة سبأ كان نظام الحكم فيها غير استبدادى بل شبه شورى بدليل ما ورد فى الآية ٢٣ « إنى وجدت امرأة تملكهم » ولم يقل تحكمهم والحكم يفيد الحكم المطلق والملك يفيد ولاية العرش فحسب ، وبدليل ما ورد فى الآية ٣٢ (قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) .

(٤) أن ملكة سبأ تخوفت من سليمان وأرادت مسالمته بإرسال هدية إليه كأنها هى ترشوه .

(٥) أن سليمان رفض الهدية (أو الرشوة) وهدد بغزو سبأ .

(٦) أن الملكة أذعنت وجاءت إلى سليمان الذى أعد لها قصراً وعرشا أحاطه بما يأخذ بروعتها وأنها فى آخر الأمر آمنت بسليمان وأسلمت معه .

ويمكن أن نستنتج من ثنايا النصوص :

١ — أن دولة سبأ إبان هذه الفترة كانت ضعيفة النفوذ ، بدليل أن الملكة تخوفت من سليمان وملك سليمان لم يكن يتجاوز القرن الغربى للهلال الخصيب إلا قليلا وقد حدى هذا ببعض المؤرخين إلى أن هذه الملكة لم تكن تحكم بلاد سبأ الأصلية إنما كانت تحكم إحدى المقاطعات الشمالية الواقعة على الطريق التجارى الذى

كان يطرقه المعينيون والسبئيون وأن أمارتها هذه كانت على مقربة من فلسطين مقر حكم سليمان .

٢ — كما يمكن أن يستنتج أيضاً أنها كانت تحكم فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد لأنها كانت تعاصر سليمان ، وكان سليمان يحكم حوالى سنة ٩٥٠ ق . م.

٣ — أنها كانت من المكارب الأول الذين كانوا يجمعون بين الرئاسة الزمنية والرئاسة الدينية .

ولم يرد فى العهد القديم أو القرآن الكريم ذكر لاسم هذه الملكة ، ولكن المفسرين وبعض المؤرخين من العرب وبعض شراح التوراة ، قالوا : إنها بلقيس بنت شرحبيل ، أو بنت الهدهاد ، معتمدين فى ذلك على بعض الإسرائيليات ، والواقع أنه كانت هناك ملكة تسمى بلقيس ، هى إحدى ملكات الطبقة الثانية من ملوك حمير المعروفة عند العرب بالتبابعة ، حكمت فى النصف الأول من القرن الرابع للميلاد ، وكانت ذكراها لا تزال تعمر أذهان بعض الناس ، فحسبوها الملكة المعنية فى القرآن .

وقد يكون من المناسب هنا،أن نشير إلى مايذكره مؤرخو العرب ، عن الطريقة التى تولت بها بلقيس الحكم ، إذ يقولون أن أحد التبابعة المسمى مالك ، كان فاحشاً فاسقاً خبيثاً ، لا يبلغه عن بنت ذات جمال إلا أحضرها وفضحها ، حتى أتى بنت عمه بلقيس فى قصرها ، وكانت أعدت له رجلين وأمرتهما بقتله إذا دخل عليها، ولما قتلاه أحضرت وزراءه وأصدقتهم الخبر،وفوضت لهم أن يختاروا رجلا يملكونه ، فقالوا: لا نرضى بغيرك ، وملكوها لما رأوا من شهامتها وإبائها ، وذلك على رغم كراهية العرب لتولية النساء الحكم .

وقبل أن نختم الكلام عن ملكة سبأ ، نرى أن نشير إلى أن بعض المفسرين وغيرهم من المؤرخين ، يشيرون إلى أن سليمان تزوج من ملكة سبأ ، وأنجب منها ولدا . وللأحباش أسطورة انفردوا بها فى هذا الصدد ، إذ يعتبرون أن بيتهم المالك يرجع فى أصله إلى ذلك الولد الذى أنجبه سليمان من سبأ ، وهذا هو السر فى أن نجاشى الحبشة ،كان يلقب بالأسد الهابط من سبط يهوذا .

٤٩ — سقوط دولة سبأ :

على الرغم من المبالغات التى تصحب الكلام عن غنى سبأ وحضارتها ، إلا أنه مما لا شك فيه ، أنها كانت فى القرون السابقة للميلاد ، فى أوج عظمتها وازدهارها ، ولقد كان هذا الازدهار يعتمد على أساس واحد ، هو التجارة ، ذلك لأن الطرق البحرية بين ثغور بلاد العرب الشرقية والهند كانت عامرة منذ قديم الزمان ، وكانت الحاصلات الهندية — وخاصة التوابل والحيوانات النادرة كالنسانيس والطواويس — تنقل إلى ساحل عمان ومن هناك كانت تنقل عن طريق البر ، حتى فى القرن العاشر قبل الميلاد ، إلى خليج العرب (البحر الأحمر) ومن هناك كانت تحمل فى المراكب إلى مصر ، حيث يشتريها الفراعنة والعظماء . وكانت صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر تجعل طريق البر مفضلا فى نقل المتاجر بين اليمن والشام ، فكانت طرق القوافل تبدأ من مدينة شبوة (سابوتا عند اليونان والرومان) فى حضرموت ، وتسير إلى مأرب عاصمة سبأ ، ومنها إلى مكة ، ومنها إلى البتراء (بطره) فغزة على ساحل البحر المتوسط وقد ظل رخاء السبئيين مستمراً حتى تحولت تجارة الهند عن الطريق البرى إلى طريق البحر . والراجح أن ذلك كان فى أيام دولة البطالسة ، التى قامت فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، بمشروعات تجارية ترمى إلى الأخذ بنصيب موفور من التجارة الشرقية . ومن المشروعات التى قاموا بها فى تحقيق هذا الغرض ، تعبيد الطريق بين قنا والقصير ، وإعادة بطليموس الثانى (٢٨٥ — ٢٤٦ ق . م) فتح القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وبذلك صارت السفن تأتى من الشرق رأساً إلى مصر،واستطاع التجار المصريون من البطالسة أن يخرجوا من البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ، وأن ينافسوا التجار العرب منافسة خطيرة ، فعملوا بذلك على تخفيض أثمان السلع تخفيضاً واضحاً ، بعد أن كان أهل الغرب يضجون من شدة الغلاء ، ومن الأثمان الباهظة التى كان يفرضها عليهم التجار من عرب الجنوب ثمناً لسلعهم ، التى كانوا لا يجدون محيصاً عن دفع أثمانها نقداً لشدة حاجتهم إليها فى الأغراض الدينية أو الدنيوية .

وتذكر المراجع أن رجلا إغريقياً فى أواخر العصر البطليموسى ، أحاط علماً بخفايا الطرق البحرية ، وتغيرات الرياح الموسمية ، يدعى هيبالس — ويلقبونه كولمبس تجارة البطالسة — نجح فى الخروج إلى المحيط الهندى والعودة منه ، وقد حمل معه حمولة من السلع المرغوب فيها ، ذات القيمة العالية ومن بينها القرفة والفلفل من

الهند ، وهى سلع كان الغربيون — بتمويهات التجار العرب — يعتقدون أنها من منتجات بلاد العرب الجنوبية . وقد قفى على أثرهيبالس هذا كثيرون غيره ، فساهموا بذلك فى ضرب الاحتكار العربى وتدميره . وترتب على ذلك أن انتقل ما كان بأيدى العرب إلى أيدى المصريين ، وقلت إيرادات سبأ فلم تعد تحتفظ بمنشآتها القديمة كسد مأرب الذى أهمل ، وانتهى به الأمر إلى أن يتصدع فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد (حوالى سنة ١١٥ ق . م) وكان تصدع سد مأرب الذى كان من أعظم المبانى السبئية العامة ، والذى تكاتف أكثر من ملك سبئى على إقامته لأغراض اقتصادية ، مؤذناً بسقوط دولة سبأ النهائى ، وهجرة كثير من سكان اليمن إلى الشام .

وحادث تصدع سد مأرب أو سيل العرم ، هو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى الآيات من ١٥ — ١٩ من سورة سبأ .

هذا ونظراً لأهمية سد مأرب ، سنفرد للكلام عليه فقرات خاصة فى آخر هذا الباب .

٤٧ — الدور الحميرى :

فى الوقت الذى أخذت فيه دولة البطالسة فى الازدهار ، والاستيلاء على مقاليد التجارة العربية ، كانت دولة سبأ فى دور الاحتضار ، وانتهى الأمر بسقوطها كما بينا ، وعلى أثر سقوطها ، قامت مكانها الدولة المشهورة المسماة فى التاريخ دولة حمير . ومن حسن حظ هذه الدولة ، أن فى الوقت الذى أخذت تظهر فيه ، ابتدأت دولة البطالسة تضعف وتتلاشى أمام نفوذ دولة الرومان المتغلبة ، وكانت نتيجة ذلك أن التجارة القديمة أخذت تعود إلى طريقها القديم طريق البر . كذلك كانت دولة القتبانيين قد سقطت أيضاً فى بلاد اليمن ، فلم يكن للحميريين منازع فى الطريق التجارى .

وقد عمرت دولة الحميريين نحوا من ٦٤٠ سنة ، يقسمها المؤرخون عادة إلى قسمين معتمدين فى ذلك على اختلاف ألقاب الملوك الواردة فى النقوش ، وهما :

(١) دولة حمير الأولى : من ١١٥ ق . م . — ٣٠٠ م .

(٢) دولة حمير الثانية : من ٣٠٠ م . — ٥٢٥ م .

وكانت عاصمة كل من الدولتين مدينة ريدان ، وهى المشهورة فيما بعد باسم ظفار

إلى الجنوب الغربى من صنعاء . وظفار هذه هى التى حلت محل مأرب عاصمة سبأ . وقرناو عاصمة معين .

وكان لقب الملوك فى الدولة الحميرية الأولى « ملك سبأ وذو ريدان » . أما الدولة الحميرية الثانية (المعروفة عند العرب بدولة التبابعة) فكان لقب ملوكها « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » ، وقد أضيف فيما بعد كلمات : « وعربهم فى الجبال وفى تهامة » .

ومن ملوك العصر الحميرى الأول كشفت البحوث عن الأسماء الآتية :

ياسر يهنعم — شمر يهرعش — زمر على بين — كرب أيل وتار يهنعم — هالك زمر على ذارح — لعز نوفان يهصدق — ياسر يهصدق — ذمر على يهبر — فرع ينهب — ايلشرح يحضب — يزل بين — نشا كرب يمن يهرحب .

ومن ملوك الدولة الحميرية الثانية كشفت النقوش عن الأسماء الآتية :

ملكيكرب يهمين — دارى أمر أيمن — أبو كرب أسعد (وهذان الأخيران ولدا الأول) شرحبيل يعفور — شرحبيل يكف — لحيعت ينوف — ذوشناتر — معد يكرب ينعم — ذو نواس .

وبرغم كشف هذه الأسماء ، فإنا لا نستطيع أن نكتب تاريخاً خاصا لكل منهم كما أنا لا نعرف على وجه الدقة مدة حكم كل .

٤٨ — الدولة الحميرية الأولى :

حدثت فى عصر هذه الدولة عدة حوادث ، كان أهمها محاولة الرومان فتح بلاد العرب ، وذلك أنهم حوالى سنة ٢٤ ق . م . فى عهد الإمبراطور اغسطس قيصر أرسلوا حملة خرجت من مصر ، تحت قيادة حاكمها ايلوس جالوس Aelius Gallus كان قوامها عشر آلاف مقاتل ، وكان هدفها الاستيلاء على طرق النقل التى كان يحتكرها عرب الجنوب ، واستغلال موارد اليمن لمصلحة روما ، وقد ساعد الحملة وزير دولة الأنباط المسمى سيلوس ، وبعد مضى عدة شهور من توغلهم إلى الجنوب ، استولوا على نجران ، وكادوا أن يصلوا إلى مأرب ، ولكن يظهر أن دليل الحملة سيلوس أنبه ضميره على خيانة بنى جلدته العرب ، وأحس بأنه يرتكب إثما فظيعا فى مساعدته

للرومان ، فتركهم يتيهون فى الصحراء ، التى لا يعرف مسالكها إلا العرب ، واضطروا أن يتلمسوا طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر ، ومن ثم عبروا إلى الشاطىء المصرى، وقد استغرقت عودتهم هذه ستين يوما . وكان يرافق هذه الحملة المؤرخ المشهور استرابون الذى كان صديقا شخصيا لجالوس والذى صب جام غضبه على دليل الحملة سيلوس . وهكذا باء الجيش الرومانى بفشل ذريع ، ولم تفكر منذ ذلك الوقت روما ولا أية دولة غربية غيرها ، فى محاولة فتح بلاد العرب الصحراوية وهذه الحملة تمت فى عهد الملك ايل شرح يحضب .

وفى عهد هذه الدولة أيضا ، حدث أن هاجر جماعة من أهل اليمن إلى بلاد الحبشة، فأنشأوا مستعمرة هناك ، ونجحوا فى إقامة ثقافة لم يكن من المحتمل أن يستطيع الأحباش الوطنيون الوصول إليها ، ولا نعلم علم اليقين الأهداف التى حملت هؤلاء اليمنيين والحضارمة على استعمار الحبشة ، إنما يرجح أن التجارة التى أشربتها نفوس العرب كانت الباعث على هذا الاستعمار . ويعتبر هذا الغزو العربى لإفريقية أسبق من الغزو الإسلامى لها فيما بعد .

وينسب إلى أحد ملوك هذه الأسرة ، المسمى إيلى شريحا (ولعله ليشرح ابن يحضب الذى ذكره ياقوت فى معجم البلدان) من ملوك القرن الأول المسيحى ، أنه أسس قصر غمدان المشهور فى صنعاء ، الذى كان مكونا من عشرين طبقة ، فكان بذلك أول ناطحة للسحاب روى التاريخ أخبارها . وقد شيد هذا القصر من الجرانيت والمرمر ، وغطيت أعلى طبقة فيه بصفيحة واحدة من حجر المرمر ، الذى بلغ من شفافيته أن الإنسان يستطيع النظر من خلاله والتطلع إلى السماء .

وكان الغرض من تأسيس هذا القصر وغيره من القصور ، التى كانت شائعة فى اليمن هو حماية الأمراء الحضر لأنفسهم من غارات البدو .

وكان نظام الحكم فى هذا العصر الحميرى الأول نظاما إقطاعياً فى أساسه ولكنه كان خليطاً غريباً من النظام القبلى القديم ونظام الطبقات والأرستقراطية والملكية الإقطاعية .

قرب نهاية هذا العصر الحميرى الأول ابتدأت قوة عرب الجنوب تنزل من عليائها ؛ وقد كان ذلك نتيجة لتذبذبهم بين الطريقين البرى والبحرى فى نقل المتاجر ؛ يضاف إلى ذلك مزاحمة الرومان لهم فى الطريق البحرى مزاحمة خطيرة وخاصة بعد تنظيم

المتاجرة البحرية خلال القرن الأول الميلادى . ولو أنهم ثبتوا على الطريق البرى عبر الحجاز ، الذى كان غاصاً بالمحطات الحميرية ، وكان آمنا لا يزاحمهم فيه آخرون ، لكان خيراً لهم . وهذا الطريق البرى بمحطاته المتعددة ، هو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى سورة سبأ آية ١٨ — ١٩ فى قوله تعالى : (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

٤٩ — الدولة الحميرية الثانية :

ولكن دولة حمير لم تلبث أن لمت شعثها حوالى سنة ٣٠٠ ميلادية ، وضمت إليها القبائل المجاورة من بدو وحضر ، فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن ، وأصبح لقب الملك الحميرى هو « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » وبعد مدة قليلة أضيفت ألقاباً أخرى وهى « وعربهم فى الجبال وفى تهامة» ويفهم من هذا أن الدولة الحميرية الثانية أصبحت أشبه بالإمبراطورية ، تخضع بلاد كثيرة لسلطانها ، وهذه الدولة هى المعروفة عند العرب باسم دولة التبابعة . ويرسم المؤرخون العرب إلى ملوكها قصصا أشبه بالخرافة منها بالتاريخ الحقيقى ، وسنعود لذكرها فى الفقرة التالية . أما النقوش فإنها تذكر لنا أسماء تسعة من ملوك حمير فى ذلك العصر ، وقد ذكرناها فى الفقرة ٤٧ .

ويمتاز هذا العصر الحميرى الثانى بدخول المسيحية واليهودية إلى بلاد اليمن ، ومحاولة زحزحة الديانة الوثنية — التى كانت تدور حوله عبادة النجوم والكواكب والشمس — عنها . وقد بدأت المسيحية على المذهب المنوفستى القائل بأن المسيح له طبيعة واحدة تسلك سبيلها إلى الجنوب من الشام ، وكانت روما تشجع هذه الديانة وتستعين بالأحباش الذين تنصروا أيضاً على نشرها ، وكان غرض روما من تشجيعها للمسيحية ، غرضاً سياسياً أكثر منه دينياً .

وانتشرت فى الوقت نفسه الديانة اليهودية فى بلاد اليمن ، وكانت قد توطنت قبل ذلك فى شمال بلاد العرب ، وشجع الملوك الحميريون اليهودية ، ليقاوموا المسيحية دين عدوهم السياسى والاقتصادى .

وفى منتصف القرن الرابع الميلادى ، غزا الأحباش بلاد اليمن ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا ، وعاد الحكم إلى الحميريين ، الذين ظلوا يحتفظون بلقبهم الطويل إلى الربع الأول من القرن السادس الميلادى .

واعتنق الملك التالى على العرش اليهودية ، سياسة منه لكى يعارض السياسة الرومانية ؛ ثم تولى بضعة ملوك كانوا يعتنقون اليهودية ، وكان آخرهم ذو نواس ، الذى يسميه المؤرخون اليونان ديمانوس ، وهو الذى جعل اليهودية دين الدولة الرسمى واضطهد النصارى فى نجران كما سنبينه عند الكلام عن الدور الحبشى .

٥٠ — حمير والتبابعة عند العرب :

اشتهرت هاتان الدولتان شهرة واسعة ، إلا أن المبالغات التى ذكرها المؤرخون العرب جعلت من الصعب استخلاص شىء حقيق مما ذكروه ، ولا شك فى أن نفوذ هذه الدولة التجارى جعلها تبسط سلطانها على بعض أجزاء الجزيرة العربية فى الشمال . من ذلك أنها أقامت دولة فى شمال شبه الجزيرة ، تسمى دولة كندة ، سنفرد لها فصلا خاصا ؛ ونكتفى هنا بذكر أشهر ملوك حمير والتبابعة مع نبذ من أخبارهم ، كما وردت فى كتب العرب .

(١) حمير : — وهو فى نظر نسابة العرب ابن سبأ — هو أول ملوكهم ؛ كان أجمل أهل زمانه وأفرسهم ، وقيل إنه كان أول من تتوج بالذهب ، وكان مقر حكمه مدينة مأرب ، وقد مد حكمه إلى حدود الصين ، وكان ملكه خمساً وثمانين سنة ، وقيل هو الذى أخرج ثمود من اليمن إلى الحجاز ، ولما مات وثب أخوه كهلان على الملك ، ولكن أبناء حمير استردوه ؛ وظلت كهلان فى الحدود فيما يلى الصحراء .

(٢) ثم تعاقب عدة من الملوك كان أشهرهم فى كتب العرب شداد بن عاد بن الملطاط ، الذى قيل أنه أخذ يغزو فى البلاد حتى بلغ أقصى المغرب ، وبنى مدنا كثيرة .

(٣) ثم تولى آخرون ، حتى آل الملك إلى عمرو بن عامر ماء السماء ، المعروف بمزيقياء ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب ، ويذكرون أن فى عصره حدثت حادثة سيل العرم .

(٤) ثم تولى آخرون ، حتى آل الملك إلى الحارث الرائش ؛ وهو أول

التبابعة — ويقولون إن عددهم ١٣ ملكا — وسمى بالرائش لأنه أصاب غنائم كثيرة فى غزواته وأدخلها أرض اليمن ، فرشا الناس بالعطاء .

(٥) ملك بعده ذو القرنين ، وسمى كذلك لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على قرنيه ، أى جانبى رأسه ، ويعتقدون أنه هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم .

(٦) ثم تولى ذو المنار ، وسمى كذلك لأنه كان يرفع المنارة ليهتدى بها .

(٧) ثم تولى افريقش ، فغزا أرض المغرب ، وبنى بها مدينة عظيمة .

(٨) ثم تعاقب الملوك ، حتى تولت بلقيس بنت شرحبيل ، وقد قدمنا ما ينسب إليها عند الكلام على مملكة سبأ .

(٩) وأشهر التبابعة على الإطلاق هو أسعد أبو كرب ، الذى زعموا أنه غزا أذربيجان وفارس ، ولقى الترك وهزمهم ، وقتل وسبا ثم رجع إلى اليمن وهابته الملوك ، وهادنه ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسانا إلى الصغد ، وابنه يعفر إلى الروم ، وابن أخيه شمر يرعش إلى الفرس وأن شمر لقى ملك الفرس فهزمه وملك سمرقند — التى تذكر القصة أن اسمها مشتق من اسمه — فقتله ، وجاز إلى الصين فوجد أخاه حساناً قد سبقه إليها ، فأثخنا فى القتل وانصرفا بما معهما من الغنائم إلى أبيهما ، وبعث ابنه يعفر إلى القسطنطينية ، فتلقوه بالجزية والأتاوة ، فسار إلى رومية وحاصرها الخ . .

(١٠) ومن ملوكهم حسان بن تبع ، وينسبون إليه أنه استباح طسما ونصر جديساً ، كما بينا ذلك فى فقرة ٣٣ .

(١١) ومن الملوك تبان أسعد ، الذى يقال إنه بعد عودته من الغزو فى المشرق مر بيثرب ليحاربها ، لأنهم قتلوا ابناً له غيلة ، فكان سكان المدينة — يثرب — يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فأعجبه ذلك ، وكلمه حبران من أحبار اليهود فمال إلى دينهم واعتنقه .

(١٢) ومن الملوك حسن بن تبان أسعد أبى كرب ، ويقال إنه سار بالجيش يريد أن يطأ بهم أرض الأعاجم ، حتى إذا وصلوا العراق كرهت حمير المسير معه ، فكلموا أخا له يقال له عمرو فقتله وملكه الجيش ، ولم ينهه من الحميريين إلا ذو رعين ، الذى كتب رقعة وختمها وأعطاها الملك .

(١٣) ومنهم عمرو بن تبان أسعد ، الذى منع عنه النوم عندما ولى الملك بسبب

وخز ضميره لقتل أخيه ، فأخذ يقتل كل رجل أشار عليه بقتل أخيه حتى خلص إلى ذى رعين فقال له : إن لى عندك براءة . قال وما هى ؟ قال الكتاب الذى دفعت إليك ، فأخرجه فإذا فيه البيتان الآتيان :

ألا من يشترى سهراً بنوم   سعيد من يبيت قرير عين

فأما حمير غدرت وخانت   فمعذرة الإله لذى رعين

(١٤) وآخر ملوك التبابعة هو ذو نواس ، وتتفق المراجع العربية مع الآثار والمراجع اليونانية فى أخبار هذا الملك ، ويقولون إنه سمى ذو نواس لأنه كان يرسل ذوائب من شعره على ظهره . وكان يهودياً ، وهو صاحب حادثة الأخدود التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة البروج الآيات من ٤ إلى ٨ وتتلخص هذه الحادثة فى أنه اضطهد النصارى ، وحارب أهل نجران واقتحم مدينتهم ، وقبض على عدد كبير منهم وأحرقهم بالنار ، مما أدى إلى استنجادهم بالامبراطور جوستنيان امبراطور الدولة البيزنطية التى كانت تنتحل لنفسها حق الإشراف على النصارى ، فكان أن أرسل الامبراطور إلى ملك الحبشة لقربه من بلاد اليمن وبصفته نصرانيا ، فأغارت الحبشة على اليمن ، وأسقطت دولة التبابعة حوالى سنة ٥٢٥ للميلاد كما سنبينه فى الفقرة التالية .

٥١ — الدور الحبشى من ٥٢٥ إلى ٥٧٥ :

ليست هذه أول مرة غزت فيها الحبشة اليمن ، بل لقد سبق أن غزتها قبل ذلك مرتين أو ثلاثا ، فقد عثر النقابون على أثر باللغة الحبشية تسمى به ملك الحبشة « ملك أكسوم وحمير وريدان وسلحين » وقد أشرنا إلى غزو آخر فى الفقرة السابقة .

ولم يكن الصراع بين الحبشة وحمير إلا صراعا بين اليهودية والمسيحية وكانت الحبشة المسيحية تعضدها الدولة البيزنطية ، التى كانت تنتحل لنفسها حماية المسيحيين كما قدمنا . على أن هذا التعضيد من جانب الدولة البيزنطية لم يكن خالصا لوجه الدين ، بل كان للعوامل الاقتصادية والرغبة فى السيطرة على تجارة المشرق أثر كبير فيه ، ولقد نجحت المحاولة أخيراً فى سنة ٥٢٥ إذ استمر خضوع اليمن للأحباش أكثر من نصف قرن . هذا ما تقوله المراجع اليونانية ، ويميل إلى الأخذ به المستشرقون .

أما المؤرخون العرب فيرجعون أسباب الغزو الحبشى إلى قصة أصحاب الأخدود ، وهى فى نظرنا تعتبر السبب المباشر للحرب ولا تنفى تطلع الرومان الى ذلك من قبل ، ونحن نلخصها فى الفقرة التالية .

٥٢ — قصة أصحاب الأخدود :

كان ذو نواس يهوديا ، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم لهم رئيس يقال له عبدالله بن التامر ، وكان من بقايا أهل دين عيسى رجل صالح يقال له فيميون وكان سائحا لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى غيرها . فما زال يضرب فى الأرض حتى وصل إلى نجران ، فوجد القوم هناك يعبدون نخلة ، فقال لو دعوت إلهى الذى أعبد لأهلك النخلة ، فقالوا إفعل لئن فعلت دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه ، فصلى فيميون ودعا الله تعالى فأرسل عليها ريحا فجففتها وألقتها . فاتبعه عند ذلك أهل نجران .

وكان ذو نواس متعصبا لليهودية ، وتابعته حمير عليها . كراهية منهم للأحباش الذين يعتنقون المسيحية ، واتخذ ذو نواس من قتل غلامين يهوديين تكأة للفتك بنجران ، فسير إليهم جيشا كبير العدد ، ودخل مدينتهم وخيرهم بين اليهودية وبين القتل ، فاختاروا القتل ، فخد لهم الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف حتى قتل قريبا من عشرين ألفا . ويرى الدكتور اسرائيل ولفنسن فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » ، أن عدد القتلى مبالغ فيه ، إذ لم تكن نجران سوى بلدة صغيرة لا يزيد سكانها عن بضع مئات ، وفضلا عن ذلك لم يقتل كل أهالى نجران ، بدليل أن لهم ذكرا فى أخبار صدر الإسلام ، فليس من شك فى أن عدد القتلى لم يدرك عشرين ألفاً بوجه من الوجوه ؛ فهى مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذى نواس للنصارى كان عنيفا جداً ، حتى أنه ترك آثاراً أهاجت النفوس العربية فى البادية والحاضرة . وقتلى نجران هم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله تعالى : (قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) الآيات من ٤ إلى ٨ من سورة البروج .

ودفع ذو نواس ثمن اضطهاده غاليا ، إذ فر رجل من نجران يسمى دوس

ذو ثعلبان إلى امبراطور الدولة البيزنطية فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره بما فعل بهم ؛ فقال له قيصر : بعدت بلادك عنا ؛ ولكن سأكتب إلى النجاشى ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم ، فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره .

٥٣ — غزو الحبشة لليمن :

أرسل ملك الحبشة — وتسميه النقوش كلب إلى أصبحا — إلى بلاد اليمن سبعين ألف جندى ، يقال إن مراكب من مصر هى التى حملتهم إلى شاطىء اليمن ، وأمر على الجيش رجلا يقال له أرياط ومعه قائد يسمى أبرهة الأشرم — أبرهة شكل من اسم ابراهام — فساروا فى البحر حتى نزلوا بساحل اليمن ، وجمع ذونواس جنوده والتقى بالحبشة عند ساحل عدن ، ولكن جنود اليمن لم يكونوا مخلصين لذى نواس ، فلم يلبثوا أن تفرقوا دون كبير قتال ، ولما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه اقتحم البحر بفرسه فغرق ، ودخل أرياط اليمن فهدم معظم حصونها وأذل حمير فقتل ثلث رجالهم ، وبعث إلى النجاشى بثلث سباياهم ، واتخذ أرياط صنعاء مقرا للمستعمرة الجديدة ، وهكذا ضاع استقلال اليمن ، وتحققت أطماع قيصر الروم . وكل ما بقى من الذكريات الرائعة لتلك الذكريات الحميرية هو تخليد اسمها فى شخص قبيلة من عدن .

٥٤ — اليمن تحت الحبشة :

نذكر هنا نصا كاملا لما أورده الدياربكرى نقلا عن ابن اسحق فى الجزء الأول من كتابه « الخميس فى تاريخ أنفس نفيس » عن حكم الحبشة لليمن :

« أقام أرياط السنين باليمن يحكمها باسم نجاشى الحبشة ، ثم نازعه أبرهة الحبشى ، حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهم طائفة منهم ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لاتصنع أن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا بعدشىء ، فابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط أن أنصفت ، فخرج إليه أبرهة وكان رجلا لحيما قصيرا وكان ذا دين فى النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلا جميلا طويلا وفى يده حربة ، وخلف أبرهة غلام له يمنع ظهره ، فرفع أرياط الحربة فضرب بها أبرهة

يريد يافوخه ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته ، فبذلك سمى أبرهة الأشرم ، وحمل الغلام على أرياط من خلف أبرهة فقتله وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، فلما بلغ ذلك النجاشى غضب غضبا شديدا ، وقال : عدا على وعدا على أميرى فقتله من غير أمرى . ثم حلف لايدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته . فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشى . ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك ، اختلفنا فى أمرك إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة ، وأضبط لها وأسوس منه ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرضى ليضعه تحت قدميه فتبر قسمه فى ، فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى ، وأقام أبرهة باليمن » .

٥٥ — محاولة أبرهة غزو الكعبة :

لما دام ملك أبرهة باليمن وتمكن به بنى القليس — وهى تحريف للكلمة اليونانية اكليزيا ومعناها كنيسة — بصنعاء وهى كنيسة لم ير مثلها فى زمنها ، ثم كتب إلى النجاشى إنى قد بنيت كنيسة لم ير مثلها ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجلان من قبيلة فقيم فأتيا الكنيسة فدنسا قداستها ثم لحقا بأهلهما . فأخبر بذلك أبرهة وعرف أنهما وثنيين من أهل البيت الذى تحجه العرب بمكة ، فغضب وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه . وأمر الحبشة فتجهزت وكان مع الجيش ثلاثة عشر فيلا بينهما فيل كبير اسمه محمود (وكلمة محمود تحريف للفظ ماموث Mammoth ومعناها فيل) وخرج على الجيش رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر فقاتلهم فهزم ذو نفر وأخذ أسيراً . ثم خرج عليه نفيل الخثعمى فانهزم وأخذ أسيراً . فضمن لأبرهة أن يدله على الطريق ومر على الطائف فبعثت معه ثقيف أبا رغال ليدله على الطريق حتى أنزله المغمس ، فلما نزله مات أبو رغال فرجمت العرب قبره . وبعث أبرهة نفراً إلى مكة فساق أموال أهلها وساق فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ثم بعث واحد من حمير إلى مكة فقال : سل عن سيد قريش وقل له إننى ما جئت لحربكم بل جئت لهدم هذا البيت . وانطلق عبد المطلب مع الحميرى إلى أبرهة فأذن له بالدخول وكان عبد المطلب رجلا عظيما جليلا وسيما فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه فنزل عن سريره وأجلسه إلى جنبه على

بساط وقال لترجمانه قل له ما حاجتك . فقال : حاجتى أن يرد على مائتى بعير أصابها لى ، فقال أبرهة : كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى إبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل وللبيت رب يمنعه ، وأمر أبرهة برد إبله إليه . وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر ، فأخذوا يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة ، ثم انطلقوا إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ، وحاول أبرهة توجيه الفيل إلى مكة ، فألقى الفيل نفسه إلى الأرض ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام وإلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فسقط إلى الأرض ، ثم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر ، يقول ابن الأثير إنها أمثال الخطاطيف ، مع كل طير منها ثلاثة أحجار تحملها ، حجر فى منقاره وحجرين فى رجليه ، فقذفتهم بها ، وهى مثل الحمص والعدس الخ . . .

وكانت النتيجة أن انهزم جيش أبرهة وفشلت حملته .

وكان سبب تدمير الجيش الحبشى انتشار الجدرى ، وهو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (ترميهم بحجارة من سجيل) وهذا العام الذى حدثت فيه هزيمة الحبشة هو المعروف بعام الفيل نسبة إلى الفيل الذى رآه العرب لأول مرة فى هذه الحملة . وفى هذا العام ويقابل ٥٧١ كان ميلاد النبى عليه الصلاة والسلام .

٥٦ — سوء سيرة الأحباش فى اليمن :

لم يكد يعود أبرهة إلى اليمن حتى مات . فملك بعده يكسوم ، فأساء السيرة فى اليمن وأذلهم ، وتولى بعده أخوه مسروق فسار على خطته ، فلما اشتد البلاء على أهل اليمن فكروا فى التخلص من الحبشة بأى ثمن كان ، وقاد حركتهم هذه رجل من الأشراف يسمى ذو يزن كان قد اعتدى أبرهة على زوجه فاستنصر عليه كسرى فأبطأ عليه حتى مات ببابه ، وتولى ابنه سيف بن ذى يزن قيادة الحركة بعده ، وسيف بن ذى يزن هذا بطل من أبطال القصص والتاريخ معا . والظاهر أن الحركة الوطنية فى اليمن ضد الأحباش لقيت فى آخر الأمر تعضيدا من فارس ، لأن الأحباش هم صنائع عدوتها بيزنطة . على أن الغريب فى الأمر أن سيف بن ذى يزن ، وهو يعتقد أن اليمن لا يمكن أن تتخلص من الأحباش إلا بتدخل أجنبى ، لم يلتمس التدخل

من فارس مباشرة ، إنما لجأ إلى قيصر الروم بالقسطنطينية ، وكان طبيعيا أن لا يعير قيصر الروم أمره اهتماما ، لأنه هو الذى حرك الأحباش لغزو اليمن ، فولى وجهه شطر النعمان بن المنذر ملك الحيرة يطلب إليه تقديمه لكسرى الفرس ملك لعرض قضيته ، وقبل النعمان بن المنذر الوساطة .

٥٧ — الدور الفارسى :

قال الدكتور هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد » : « فلما دخل النعمان على كسرى دخل سيف بن ذى يزن معه ، وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دارا ، وكانت موشاة بصور رسوم المجرة فإذا كان فى مشتاه وضعت هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفس الفراء ، تتدلى أثناءه ثريات من فضة وأخرى من ذهب ملئت بالماء الفاتر ، ونصب فوقها تاجه العظيم ، يضىء فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة ، مشدوداً من السقف بسلسله من الذهب ، فما يلبث من يدخل إلى مجلسه أن تأخذه رهبته حين يراه ، وكذلك كان شأن سيف بن ذى يزن ، فلما تطامن وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قص عليه أمر الحبشة وظلمها لليمن » .

وتروى كتب التاريخ الأخرى أن كسرى قال : بعدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب ، لاحاجة لى بذلك ، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم ؛ وخرج سيف فنثر ذلك المال على حاشية الملك ، وسمع كسرى فاستدعاه وقال له : كيف تعمد إلى حباء الملك تنثره للناس ؟ فقال : وما أصنع بهذا ، ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهبا وفضة ، يقصد سيف أن يرغبه فيها ، فنجحت حيلة سيف ، فأرجأ الأمر حتى يستشير رجال دولته . فقال قائل منهم : أيها الملك إن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فان يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن يظفروا كان ملكا ازددته ، فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمانمائة رجل . استعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضل أولئك المجرمين حسباً . وتقول القصة إنه لطعنه فى السن كانت جفونه مدلاة فوق عينيه ، فكان إذا أراد الرمى عصبوا له جفنيه إلى أعلا حتى يتمكن من إصابة الهدف .

وأبحرت الحملة يرافقها سيف فى ثمان سفائن . غرقت منها سفينتان ووصلت الست إلى شاطىء حضرموت وعليها الجيش الفارسى . وقد بلغت عدته ستمائة وانضم

إليهم عدد كبير من اليمنيين . ووصلت أخبار الجيش إلى مسروق حاكم الحبشة . فخرج على رأس قوته ليلاقى الغزاة . ويقولون إن سيف أحرق سفنه حتى لا يفكر الجيش فى العودة . ثم تصاف الجيش فقال وهزر : أرونى ملكهم . فأشاروا إلى رجل على الفيل عاقد تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء فى حجم البيضة . وأطلق وهزر سهمه فصك الياقوتة التى بين عينى مسروق فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ونكص عن دابته . وكان سقوط الملك نذير الفشل فى صفوف الأحباش الذين تفرقوا فتعقبهم الفرس والعرب بالقتل والتذبيح . ودخل وهزر صنعاء بعد أن هدموا له بابها . لأنه لم يرد أن يدخلها منكساً رايته . وتختلف الروايات فى تفصيل ما حدث بعد ذلك ، فمعظم المراجع العربية تقول إن وهزر أرسل إلى كسرى يعلمه بالفتح ، وبعث إليه بأموال ، فكتب إليه أن يملك سيف بن ذى يزن ، فعاد وهزر إلى فارس ، وجلس سيف على سرير اليمن ، واتخذ قصر غمدان مقرا له ، وجاءته وفود العرب تهنئه ومن بينها وفد برئاسة عبد المطلب زعيم مكة الذى أكرم سيف وفادته وخصه بعشرة أمثال ما أعطى الآخرين ، ثم أخذ سيف يطوف بلاد اليمن يطلب الأحباش فلا يقف على أحد منهم إلا قتله . وكان يبقر بطون النساء ولم يبق من الأحباش إلا جماعة قليلة جعلهم عبيده ، فكانوا يمشون بين يديه بالحراب حتى إذا خلوا به فى الصحراء وقد خرج إلى الصيد انقضوا عليه بالحراب وقتلوه ثم هربوا . وبلغ الخبر كسرى فبعث إليهم وهزر ثانية فى أربعة آلاف فارس ، وأمره أن لا يترك باليمن حبشيا ولا سلالة حبشى من عربية . وفعل وهزر ما أمره كسرى فعينه كسرى حاكما على اليمن يبعث إليه بخراجها . هذه رواية معظم الكتب العربية . أما بعض المراجع الأجنبية فتقول بأن الفرس بسطوا نفوذهم على اليمن مباشرة . وكان وهزر مندوبا ساميا له الحكم الفعلى ؛ ولسيف بن ذى يزن الحكم الرسمى إلى أن قتل .

ولما مات وهزر أقام كسرى مكانه ابنه المرزبان ، ثم حفيده . وكان خامس ولاة الفرس على اليمن وآخرهم باذان الذى اعتنق الإسلام فى سنة ٦٢٨ م وهى السنة السادسة للهجرة ، وظل والياً عليها حتى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى دخلت فيها فى حوزة الإمبراطورية العربية . وبذلك انتهى حكم فارس لليمن .

وانتهت بعد ذلك أهمية اليمن فى مجرى التاريخ العربى ، إذ حلت محلها الحجاز فى استرعاء الانتباه العام .

ونصف فى الفقرات التالية أهم مظاهر الحضارة فى دول بلاد اليمن القديمة منذ أقدم العصور إلى أن ظهر الإسلام .

٥٨ — الحكومة والحالة الاجتماعية :

كانت حكومات اليمن تقوم على قبائل لا تربط بينها روابط القربى بقدرما تربط روابط المصلحة وكان نظام الحكم ملكياً وراثياً فى الأبناء أو الأخوة ؛ وفى بعض الأحيان كان يشرك الملك ابنه معه فى الحكم على غرار ما كان يصنع ملوك الأسرة الثانية عشر المصرية . وكان للنساء حق وراثة العرش كالرجال ؛ كما حدث فى الدولة المصرية القديمة أيضاً . ولكن الملكية لم تكن مطلقة بل كانت مقيدة ؛ إذ كانت توجد مجالس لها صفة نيابية تمد الملك بالمشورة والنصيحة وتساعده فى المسائل التشريعية ؛ تؤيد ذلك النقوش التى كشفت كما يؤيده القرآن الكريم فى قصة سليمان وملكة سبأ التى أشرنا إليها آنفاً ، إذ أنها لما ألقى إليها كتاب سليمان يطلب إليها فيه أن تأتيه مسلمة : (قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) الآية ٣٢ من سورة النمل ، فالنقوش هنا تتفق على ما جاء فى القرآن تماما .

ثم أن نظام الحكم الذى كان فى قتبان وفى غيرها من الحكومات كان يسمح لمجلس من الشيوخ بأن يهيمن إلى حد ما على تصرفات الملك ولو أن السياسة العامة كانت تقررها جمعية عمومية من رجال القبائل .

وكانت الأوامر الملكية تصدر على هيئة مراسيم ، وتكتب فى غالب الأحيان على لوحات من البرونز أو الحجر وتعرض فى الطرق العامة أو المعابد ليراها الناس جميعا . وقد عثر المنقبون على مجموعة كبيرة من هذه اللوحات التى كثيراً ما كانت تزخرف من أعلاها أو أسفلها بنقوش مختلفة يمثل بعضها أبا الهول المجنح أو غير المجنح أو النخيل أو غير ذلك . وكان الملوك يلبسون مآزر محوكة بالذهب ويتحلون بأساور ثمينة فى أذرعهم ، ويمكننا أن نستنتج من رسوم الملوك على النقود أنهم يرسلون شعور رؤوسهم ولا يرسلون شواربهم أولحاهم ، كما كان يفعل قدماء المصريين .

وساد الحكم الاقطاعى فى اليمن ، فكان الملك على رأس المملكة والبلاد تقسم إلى مخاليف (جمع مخلاف) وكل مخلاف يقسم إلى محافد (جمع محفد) وكل محفد يقسم إلى قصور أو حصون ، وأصحاب المخاليف يسمون أقيال (جمع قيل) وأصحاب المحافد يسمون أذواء (جمع ذو) وفى الغالب كان المحفد ينسب إلى أشهر قصر فيه ، والمخلاف إلى أشهر محفد فيه ، وفى بعض الأحيان كان ينسب كل إلى إله المنطقة ، وكثيراً ما كان يطغى أحد الأقيال على مخلاف جاره إذا أنس من نفسه قوة فيضمه إليه بل وكان يطمع فى بعض الأحيان أحد الأقيال فى الملك ، فينزل الملك عن عرشه ويتولى مكانه ، وكان يساعد هؤلاء أن الملوك قلما كانوا يعتنون بتنظيم الجند لقلة الحروب والفتوح . ويشبه هذا النظام كثير الشبه النظام الاقطاعى الذى قامت عليه الأسرة الثانية عشر فى تاريخ مصر القديم ، أو النظام الاقطاعى فى العصور الوسطى فى أوربا . وكانت طبقات الشعب تشبه طبقات النظام الاقطاعى فكان هناك أشراف وملاك رقيق عدا جاليات الأجانب . وكانت تفرض على الأراضى ضرائب ثلاث ، وليست لدينا معلومات عن قيمة هذه الضرائب ولكن النقوش تدل على أنها كانت تحدد والمحاصيل فى الحقول ، وكان للكهنة الحق فى فرض الضرائب وفى أخذ الزكاة ، وكان يسخر الناس فى تشييد المبانى العامة .

وذكر استرابون أن الرياسة فى العائلة كانت لأكبرها سناً ، وأن أموال العائلة ومتاعها كان شركة بين أفرادها ، وأن زواج الأخت وزواج الأم وجمع المرأة بين أزواج عدة كان معروفا ، كما كان يعاقب بالموت من يتزوج من غير أسرته . وبعض هذا كان شائعاً عند قدماء المصريين ، فقد كان الأخ يتزوج أخته والإبن يرث أباه فى زوجاته ، ولا نعلم مبلغ صحة ما ذكر عن اليمانيين .

٤٩ — التجارة والزراعة والصناعة والفنون :

قامت حضارة بلاد اليمن على التجارة بحكم توسطها بين أمم العالم القديم ، فكانت تأتى إليها المتاجر من الهند وجزائر الهند الشرقية وبلاد الصين وسواحل أفريقية ، فترسو بها السفن على شواطىء اليمن ثم تنقل إلى صنعاء أو مأرب حيث تحملها ظهور الإبل فى قوافل ضخمة إلى الشام والعراق ومصر وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وكانت سبأ تتقاضى مكوسا وضرائب جمركية على البضائع المارة بها ؛

وكانت قوافلها تحمل متاجر البلاد الشمالية إلى اليمن ، كما كانت تحمل معها بعض الإماء من غزة أو يثرب أو غيرها للخدمة فى المعابد ، وكان أكثر ما تحمله القوافل إلى الشمال الذهب والقصدير والعاج والتوابل وريش النعام والقطن والحجارة الكريمة . وكان من بين ما تحمله إلى الشمال بعض ما تنتجه أرض اليمن نفسها كالبخور والمر واللادن والعطور والطيب والصموغ مما كان يحتاج إليه فى المعابد وكانت ترجع القوافل بحاصلات الشمال التى أهمها الحنطة والزيوت والخمور والمنسوجات والأصباغ والآنية وسبائك الفضة ؛ وكانت التوابل والبخور من السلع المقدسة التى لا يجوز أن يتجر فيها كل إنسان ؛ والتى كانت قاصرة - كما ذكر بليني - على ثلاثة آلاف عائلة من الأشراف كانوا يدفعون عنها زكاة لمعبد شبوة .

أما الصناعة فقد اشتهرت بها بلاد اليمن من قديم . فكانت تنسج المواد الخام التى كانت تستوردها من الهند ، والبرد اليمنية مشهورة ، وأكثر منها شهرة السيوف التى كانت تصنع هناك ، وقديما كانوا إذا أرادوا امتداح سيف قالوا « سيف يمانى » . وكذلك كانت تدبغ الجلود وتصنع منها الدرع السميكة .

ووجه أهل اليمن قديما عناية للزراعة ، ولم يكونوا يزرعون السهول المنبسطة فحسب ، بل كانوا يزرعون سفوح الجبال أيضاً بعد تهيئتها طبقات الواحدة تلو الأخرى وقد عنوا عناية كبيرة بمسائل الرى وحفر القنوات لتوصيل الماء إلى مدرجات السفوح المنزرعة ، كما أنشأوا مئات السدود لخزن الماء فى أيام المطر ورفع مستواه ليصل إلى السفوح وكانوا يعنون بوجه خاص بزراعة النباتات النادرة والفواكه والكروم ، حتى لقد ذكر الهمدانى صاحب كتاب صفة جزيرة العرب أسماء أكثر من عشرين صنفا من العنب .

وكان أهل اليمن الأقدمون مهرة فى فن العمارة ونحت الأحجار ، يدلنا على ذلك ما خلفوه وراءهم من سدود وقصور وحصون ومدائن ومعابد وحياض لخزن الماء . وإن ما ذكره الهمدانى من وصف قصر غمدان ومن أنه كان عشرين طبقة بعضها فوق بعض بين كل سقفين عشرة أذرع ، ومن أن بانيه لما بلغ غرفته العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة ليس فيه مبالغة ، ويدل على مهارتهم . وأن ما بقى من الآثار يصعب على الإنسان أن يرى الفواصل بين حجارتها . وكانت تزخرف مبانيهم نقوش كتابية

ورسوم تمثل حيوانات أو زخارف من ورق الشجر ، وهى تدل جميعها على مهارة فى الحفر الغائر فى الحجر . أما صناعة التماثيل فلم تكن متقدمة كما كانت عند المصريين واليونان أوحتى عند الآشوريين ، فكان الجسم ينحت ككتلة صماء . أما الوجه فكانت لا تجرى فيه أية حياة ولا يعبر عن شيء ، وكانت النسبة فى معظم الأحيان بين أجزائه خاطئة . والظاهر أن القوة الفنية للإبتكار لم تكن قوية فيهم ، فإن أحسن نماذجهم الفنية فى الآنية أو التماثيل يظهر فيها الأثر الأجنبى إن لم تكن صنعتها يد أجانب . وصكوا عملتهم فى أول الأمر على غرار العملة اللاتينية . ولكن صناعتها تدهورت فى آخر الأمر وكانت تقليداً ضعيفاً للنقود الرومانية .

وكان لأهل اليمن نظام غريب فى تشييد مدافنهم ومعابدهم ، فمدينة مأرب عاصمة سبأ تدل أنقاضها الحالية على أنها كانت مستديرة الشكل تماما ويرجح أن ذلك كان راجعا إلى اعتبارات دينية . وكان بعض مبانيهم بيضى الشكل كالأثر المعروف الآن باسم حرم بلقيس ولعله كان معبدا . ونلاحظ أن معظم المدائن اليمانية كانت تبنى على مرتفعات ، وهذا طبيعى فى بلاد حارة كبلاد اليمن .

وقد عرف اليمانيون العقد المدبب ، ولا تزال كثير من الأحواض التى بنوها لخزن المياه مستعملة إلى الآن . أما قصور اليمن فقد أطنب شعراء العرب فى التغنى بها ووصفها فى أشعارهم ، ولا تزال أنقاض بعضها قائمة إلى الآن .

أما أشهر مبانى اليمن ، فهو سد مأرب ، ولأهميته سنفرد له فقرتين نذكر فيهما تاريخه وتصدعه وما ترتب على ذلك .

٦٠ — اللغة والدين :

كان أهل اليمن يتكلمون لغة سامية ، ولكنها ليست اللغة العربية الشمالية التى نتكلمها الآن ، وهى تمت إلى الحبشة بصلة ، ويعتبرها علماء اللغات من لغات القسم الجنوبى للمجموعة السامية ، وقد تفرعت إلى لهجات بحسب عصور الحكم ، مثل اللهجة المعينية واللهجة السبئية ، واللهجة الحميرية . والكتابة اليمنية القديمة ليست لها حروف حركة تحدد النطق بالكلمات . فهى من هذه الناحية تشبه الكتابة المصرية القديمة . وضبط النطق بالألفاظ فيها ليست إلامسألة تخمينية . وحروف الكتابة لا تتصل إنما يفصل

بين الكلمات فاصل . وأبجديتها مثل الأبجدية الفينيقية متقطعة من الأبجدية السينائية التى كشفت فى السنوات الأخيرة فى سرابيط الخادم بسيناء وكان كل من تجار العرب والفينيقيين قد نقلوها من سيناء ، وهذه مأخوذة من الخط المصرى القديم . ويعرف الخط اليمنى القديم بالمسند ، وهو اسم أطلقه علماء المسلمين عليه لأن الحروف تستند إلى أعمدة . وتتكون الأبجدية من تسعة وعشرين حرفا ، هى الحروف الثمانية والعشرون للأبجدية العربية ، تضاف إليها السين الثانية العبرية . وكان اليمنيون يكتبون من اليمين إلى اليسار ، وبعض النقوش القديمة يقرأ منها سطر من اليمين إلى اليسار وسطر من اليسار إلى اليمين على التعاقب . وقد ظل الخط الحميرى (المسند) يقرأ إلى صدر الإسلام ، حتى أدخل الإسلام فى بلاد اليمن مع العقيدة الدينية لغة القرآن (العدنانية المضرية أو القرشية الفصحى) ومحى محوا تاما كل اللهجات الجنوبية ، التى كانت قد ضعفت لأسباب شتى ، ونسى أهل اليمن مع نسيانهم للغتهم القومية أخبار أقوامهم السابقين . (راجع تاريخ اللغات السامية للدكتور اسرائيل ولفنسون والجزء الأول من كتاب الأساس للدكتور العنانى) .

هـذا ، ولا يزال المستشرقون يجدون صعوبة كبيرة فى ترجمة النقوش العربية الجنوبية ، وأن معانى شطر كبير منها لا يزال موضع خلاف بينهم .

وقد ذكر الأستاذ فلبى فى مقدمة كتابه الأخير عن عصر ما قبل الإسلام الذى أشرنا إليه آنفاً أنه : « يستطيع أن يدعى أنه قد قرأ بقدر الاستطاعة وهضم بالفعل كل النقوش العربية الجنوبية — وعدتها نحو ٦٠٠٠ نقش — هى كل التى كشفت أو على الأقل نشرت ، ... » وأنه عندما يعتزم تفصيل المختصر الذى كتبه عن تاريخ العرب قبل الإسلام بالتدريج وينتوى أن يؤيد آراءه بإضافة ملحق إلى الكتاب يتضمن ترجمة انجليزية لكل النقوش العربية الجنوبية ذات الأهمية التاريخية » .

ولاشك أن اليمانيين الأقدمين كانت لهم آداب لأنهم ضربوا فى المدنية بسهم وافر ولكن لم يصلنا من آدابهم شيء ، أما النقوش التى وصلتنا فإنها لا تتضمن إلا أدعية واستغفارات أومراسيم ملكية تتعلق بالرى أو الضرائب أو ماشاكل ذلك . وقد قسمها العلماء إلى الأقسام الستة التالية :

(١) نقوش معمارية وجدت على جدران المعابد وغيرها من المبانى العامة تخليداً لذكرى بانيها أو من اشتركوا فى إقامتها .

(٢) نقوش تاريخية دونت عليها أخبار بعض المعارك ، أو أعلن فيها ذكرى بعض الانتصارات .

(٣) نقوش دينية محفورة على لوحات من البرونز أقيمت فى المعابد قربانا للآلهة.

(٤) نقوش جنائزية أو قبريات .

(٥) قوانين عسكرية محفورة على أعمدة فى مداخل المبانى العامة أو المعابد .

(٦) نقوش تتضمن وثائق قانونية تنم على نظام دستورى طويل العمر .

أما ما ينسب إلى بعض ملوكهم من شعر أو غيره بالعربية الفصحى ، فليس إلا من خيال بعض المؤرخين المتأخرين .

أما دياناتهم فقد نقلت إلينا النقوش أسماء معابد كثيرة ، وأكثر من مائة إله ، ولكن لا نعرف عن هذه الآلهة إلا أسماءها ، ولاشك أن بعض الآلهة كان يعبد فى كل البلاد ، وأكبر آلهتهم الشمس ، وكانت لهامظاهر متعددة فى جهات مختلفة ، ومن بين آلهتهم عطار الذى يدل على كوكب الزهرة ، ولعل اسمه مشتق من اشتار البابلى أو عشتوريت الكنعانى ، وكان القمر من بين آلهتهم الكبرى ، ويرى بعض العلماء أنه كانت له الأفضلية على الشمس على اعتبار أنه المعبود الذكر،وأن الشمس الأنثى زوجته ، وكان يسمى عندهم ورح أو شهر أو سين ؛ وكان لكل منطقة إلهها المحلى، فكانت معين تعبد الإله ود ، وقتبان تعبد الإله عم ، وسبأ تعبد الإله المقاه ، وهمدان تعبد الإله تعلب ريام ، ولعل هذه الآلهة المحلية أو القبلية كانت مظاهر لإله القمر؛ وهناك فى النقوش ما يشير إلى أن القمر والشمس والزهرة كانت تكون أسرة مقدسة كما كان أوزوريس وإيزيس وحوريس يكونون ثالوثا مقدسا عند المصريين . وكان الثور وقرنا الثور والهلال تعتبر من رموز القمر كما كانت البقرة هاتور عند المصريين القدماء .

وفى بعض الأوقات كان الملوك يعبدون بعد موتهم بوصف كونهم آلهة . وكان اليمنيون يعتقدون أن الشعب هو سليل الملك ، وان الملك هو الابن البكر للإله ، وكثيراً ما نرى عبارة « الإله والملك والشعب » على النقوش . ولم يكن للآلهة تماثيل كما كان عند المصريين القدماء . وكان الناس يتقدمون إلى الآلهة بتماثيل لأشخاصهم

لكى تبارك أعمالهم ؛ كما كانوا يقربون لهم قرابين من الضحايا والبخور ، وكانوا يؤدون الحج فى فصول معلومة من السنة ، وكان شهر الحج يسمى ذو الحجة أو ذو المحجة. وعرفنا أيضا أسماء بعض شهورهم ، ويمت عدد منها بصلة إلى الزراعة ، وكان اسم الكاهن فى لغتهم (رشو) ولعل معناها المعطى .

وزاد النفوذ اليهودى فى أواخر أيام دولة الحميريين ، وتهود بعض ملوكهم ، وكان من آثار اليهودية أن شاع ذكر اسم (الرحمن) فى النقوش دلالة على الله .

ودخلت النصرانية بلاد اليمن قبل الغزو الحبشى ، وانتشرت بعد ذلك الفتح ، ولكنها لم تلق قبولا ، وذلك لأنها كانت تعتبر دليلاعلى السيطرة الأجنبية ، وأسس أبرهة كنيسة القليس المشهورة فى صنعاء ، ولكنها لم تلق ارتيادا كبيرا ، أما الفتك بالنصارى فى نجران فكانت له أسباب سياسية كما كانت له أسباب دينية .

٦١ — سد مأرب أو سد العرم :

أشار القرآن الكريم إلى سد مأرب وتصدعه فى قوله تعالى :

(لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبةورب غفور ۞ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمطوأثل وشىء من سدر قليل ۞ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) (سورة سبأ الآيات من ٥ إلى ١٧) .

وغنى عن البيان أن القرآن الكريم فى هذه الآيات يشير إلى تصدع واحد من التصدعات التى أصابت السد أكثر من مرة ، فيما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن السادس بعده ، وكان منها ذلك الذى حدث سنة ١١٥ ق . م . والذى حدث سنة ٤٥٠ م . وسنة ٥٤٠ م ، ولا نعلم علم اليقين إلى أيها يشير القرآن الكريم .

وكتب الهمدانى فى كتاب « الإكليل » منذ عشرة قرون عن السد ما ملخصه : « سبأ كثيرة العجائب ، والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان ، وإنما عفتا لما اندحق السد ، أما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس » ولقد ظل الناس فى شك من أمر السد بعد رواية الهمدانى حتى تمكن المستشرق الفرنسى ارنو من الوصول إلى مأرب سنة

١٨٤٣ م . وشاهد آثاره ورسم له خريطة ووصفه وصفا جاء مطابقا فى مجموعه لما قاله الهمدانى .

ورد فى الجزء الثانى من « رحلة إلى بلاد العرب السعيدة » للأستاذ نزيه المظم آخر من زاروا مأرب ماخلاصته :

« على مسافة ١٤٥ كيلومتر تقريبا إلى الشرق الشمالى من صنعاء ، تجتمع سيول اليمن الغربية مع السيل الذى يأتى من الشمال ، والسيل الذى يأتى من الجنوب ، وتؤلف جميع هذه السيول شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ، ومنخفضة من جهة الشرق حيث تسير جميعها شرقا فى مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أ كبرها أى اسم ذنه (إذنه) وتدخل جميعها فى واد كبير فى جبل يقال له جبل بلق ، فتقسمه إلى جبلين الشمالى ويقال له بلق الأيسر ، والجنوبى ويطلق عليه بلق الأيمن ، لأنه واقع على يمين الآتى إلى مأرب ويزداد اتساع الوادى بين البلقين كلما سار الإنسان إلى جهة الشرق إلى أن يبلغ عرضه ٥٠٠ متر ، ثم يأخذ فى الضيق إلى يبلغ نحو ١٧٥ متراً فى مخرجه بآخر الجبلين بمكان يقال له مربط الدم وهو المكان الذى بنى فيه سد العرم ، ولم يبق سيل العرم للسد ههنا أثراً غير مخرج الماء ؛ وهو كناية عن جدار مبنى بالتوازى إلى جانب جبل بلق الأيمن ، وفيه مخرج واحد الماء قائم إلى جانب الجبل وعرضه أربعة أمتار ونصف تقريبا ، وجداره الواحد هو عبارة عن صخرة عظيمة فى جانب الجبل عليها بعض الكتابة الحميرية الآتى نص ترجمتها : « يثعمر بين بن سمهعلى ينوف حاكم سبأ ، ثقب الحجر الرخامى فى حوض حبايض فى الجهة الشمالية » .

هذا خلاصة بعض ما كتبه آخر رائد ، استطاع أن يظفر من إمام اليمن بتصريح بزيارة مأرب فى سنة ١٩٣٦ .

٦٢ — وصف السد والغرض منه وتصدعه :

ليست ببلاد اليمن أنهار دائمة الجريان ، ولكن تنزل بها أمطار غزيرة فى فصل واحد من فصول السنة هو الصيف ، فتخلف الأمطار سيول عظيمة تنساب فى الأودية بين الجبال ، فيجرى بعضها إلى البحر ، وينساب بعضها فى الصحارى ،

وتكون فى بعض الأحيان هذه الأمطار بغزارة حتى تكون خطراً على الزراعة ؛ فإذا ولى فصل المطر ظمىء القوم وجفت زروعهم ، فدفعتهم الحاجة - وهى أم الاختراع كما يقولون - إلى اتقاء خطر الغريق وخطر الحريق فأقاموا الخزانات لضبط المياه واختزانها ورفعها إلى سفوح الجبال وتوزيعها على قدر الحاجة ؛ وقد ذكر الهمدانى أسماء عدة لسدود كان أهمها سد مأرب . وسد مأرب عبارة عن حائط ضخم أقيم فى عرض وادى أذنه ، ويبلغ طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه من أسفل ١٥٠ ذراع ، وارتفاعه بضعة عشر ذراعا ، وكان ينتهى من أعلى بسطحين مائلين على زاوية منفرجة ، تكسوهما طبقة من الحصى ، والظاهر أنه بنى بالتراب والحجارة ، وكانت به منافذ ينصرف منها الماء إلى الجنتين اليمنى واليسرى وكانوا يقفلونها بعوارض ضخمة من الخشب أو الحديد ويفتحونها متى شاؤا .

وتقع مدينة مأرب إلى الشمال الشرقى من السد ، وبينها وبينه متسع من الأرض تبلغ مساحته ٣٠٠ ميل مربع كان قفراً قاحلا فأصبح بعد تدبير الماء بالسد غياضا وبساتين هى المعبرة عنها بالجنتين اليمنى واليسرى .

وقد اختلف مؤرخو العرب فيمن بنى السد فقيل بنته بلقيس وقيل حمير وقيل سبأ ، وقد أشرنا فى الفقرة السابقة إلى ترجمة النقش الذى نقله الأستاذ نزيه المظم ، ومنه يستنتج أن يثعمر بين بن سمهعلى ينوف اشترك فى بناء السد ، وقد ترجم الأستاذ مولر نقشاً وجد على الجانب الأيسر نص ترجمته « أن سمهعلى ينوف بن زمر على مكارب سبأ اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الرى » . وسمهعلى هذا هو والد يثعمر المذكور ، ويستنتج أن كلا منهما بنى حائطا وكلاهما من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد ، ولعلهما أول من قام ببناء السد ولكنهما لم يتمكنا من إتمامه ، فأتمه أخلافهما الذين ذكرت أسماء بعضهم فى أماكن متعددة من السد ؛ وإذن نستطيع أن نقرر أن السد لم يتم فى عهد ملك واحد شأن كل مشيدة ضخمة ، وليس لروايات العرب فى ضوء هذه النقوش نصيب من الصحة .

أما تصدع السد فالظاهر - كما قال الأستاذ الخضرى فى الجزء الأول من تاريخ الأمم الإسلامية - أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ، ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه المحجوزة خلفه فانكسر ،

وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفتها ، وكان ذلك حوالى سنة ١١٥ أو ١٢٠ قبل الميلاد كما قاله العالم سيديو أى قبل الهجرة بسبعة قرون ونصف قرن تقريباً ، وكان تصدعه الحد الفاصل بين سقوط سبأ وقيام دولة حمير . وقد أثبتت الكشوف الحديثة أن السد رمم بعد ذلك التصدع المشهور عدة مرات ، بدليل أنهم حصلوا على نقش بين أنقاض ذلك السد يرجع إلى عهد أبرهة الحبشى فى منتصف القرن السادس الميلادى فى سنة ٥٤٢ م أو ٥٤٣ م وخلاصته أن أبرهة جاءه النبأ بتهدم السد فبعث إلى القبائل بإيفاد الحجارة والأخشاب والرصاص لترميمه ، فرمم واستغرق العمل فى ذلك زهاء السنة .

وللمؤرخين من العرب قصة طريفة تتعلق بتصدع السد ، إذ يقولون أن الملك عمرو بن عامر ماء السماء الملقب ميزيقيا قالت له زوجته المسماة ظريفة وكانت امرأة كاهنة إذ حلمت حلماً أن كارثة ستحدث ، فقالت له : إذهب إلى السد فإن رأيت الجرذ ينخب بمخالبه ، ويحمل الحجارة الكبيرة بقدميه الخلفيتين ، فتأكد بأن الكارثة حادثة ، فذهب عمرو إلى السد ، واشد ما كانت دهشته إذ رأى فأراً يحرك صخرة هائلة لا يقدر على زحزحتها من موضعها خمسون رجلا ، فتيقن عمر من أن السد لابد متصدع ، فاستقر عزمه على أن يبيع ممتلكاته ويبرح مع أسرته ، ولكى لا يرتاب الناس فى أمره دبر الحيلة الآتية إذ دعا زعماء قومه إلى مأدبة فاخرة ، واتفق مع ابنه أن يلطمه فى أثناء الحفل ، وفعل الابن ما طلب أبوه ، فصاح عمرو : ياللعار ، وأقسم أن لا يقيم فى بلد يلطم فيها وجهه ، ثم عرض كل أملاكه للبيع فتهافت الناس على شرائها ولما تم له بيع ممتلكاته أخبر الناس بالخطر الذى يهددهم ، ثم بارح مأرب على رأس جمهور صغير منهم إلى الشمال ، ولم تمض أيام على رحيله حتى جاء السيل ففزعت البلاد ولم يبق من الأرضين والكروم إلا ما كان فى رؤوس الجبال ، وتفرق القوم أيدى سبا . وبصرف النظر عما تنطوى عليه القصة من خرافة فإنها تشير إلى أن الهجرة حصلت قبل التصدع ، وهناك رأى يقول بأن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والزرع ، ويرجح الأستاذ الخضرى فى الجزء الأول من محاضراته الرأى الثانى لسببين: أولها أن مفارقة البلاد والنزوح كلية عن الوطن ليس بالأمر الهين ، ولا يقدم عليه قوم لمجرد تكهن كاهنة ، والثانى ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة سبأ الآيات من ١٥ إلى ١٩ مما يدل بوضوح على أن سيل

العرم أصابهم ، وبدل فى شكل أرضهم وهم يقيمون بها ، وممن سار على هذا الرأى العلامة الفرنسى سيديو .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن تصدع السد لم يكن إلا السبب المباشر لمجموعة من من الأسباب التاريخية الطويلة بين اقتصادية واجتماعية وسياسية خارجية وداخلية أدت إلى تفكك المجتمع العربى الجنوبى وسقوطه النهائى كان يجهلها المؤرخون القدامى فتلمسوها فى قصة وضعوها عن ذلك الفأر الذى جعلوه يحدث ذلك الانقلاب الخطير فى التاريخ !

٦٣ — تفرق قبائل اليمن فى الشمال بعد تصدع السد :

بعد تصدع السد ترك أهل مأرب السد ، وبدأوا يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم ـ هكذا تقول الروايات العربية التى لا يسلم بصحتها معظم المؤرخين المحدثين ـ ونحن نثبت هنا خلاصة ما أورد العرب عن أشهرهم :

(١) بنو ثعلبة بن عمر بن عامر الذين منهم الأوس والخزرج ساروا نحو يثرب وبها جماعة من بنى إسرائيل متفرقون فى نواحيها فاستوطنوها معهم وأقاموا بها حتى غلبوهم عليها .

(٢) بنو حارثة بن عمرو وهم خزاعة الذين ساروا إلى مكة ، وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه وهم جرهم .

(٣) عمران بن عمرو وقد انعطف نحو عمان فنزلها ، واستوطنها هو وبنوه وهم أزد بن عمان .

(٤) بنو جفنة بن عمرو وهذا سار مع أولاده إلى الشام ، وهم الذين أصبحت أبناؤهم الملوك الغساسنة ، وغسان ماء فى تهامة نسب هؤلاء إليه .

(٥) لخم بن عدى الذين منهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة ، وأول من اتخذها منهم منزلا عمرو بن عدى بن نصر الذى ملك بعد جذيمة الوضاح .

(٦) طى وهؤلاء نزلوا جبلى أجا وسلمى لما رأوه هناك من الخصب .

(٧) كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة إلى الشمال من نجد . هؤلاء هم أشهر الذين تحركوا ، وقد بقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكانت السيادة لحمير التى كونت الدولة الحميرية كما بينا آنفاً .

الباب الخامس

تاريخ الأنباط

٦٤ — تمهيد :

لم يكن عرب الجنوب الذين تكلمنا عن تاريخهم فى الفصل السابق هم وحدهم الذين يسيطرون على شئون بلاد العرب التجارية والسياسية ، بل عاصر بعض دولهم فى شمال شبه الجزيرة ووسطها عرب آخرون ، أقاموا دولا ـ أو بالحرى دويلات ـ صغيرة فى عصر ما قبل الإسلام ، وكانت هذه الدويلات العربية الشمالية شأن دول الجنوب ، تستمد قوتها فى الغالب من التجارة ، وتلعب فى شمال بلاد العرب الدور الذى لعبته دول الجنوب فى تجارة العالم القديم ، وكانت هذه الدول أكثر اتصالا بالشعوب الساكنة فى غرب آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط ، بحكم مجاورتها لها واستهلاكها للمتاجر الآتية من الجنوب ، ولم تكن ـ لا عند نشأتها ولا عند تطورها دول حربية ، ولكن هذا لا ينفى أنها كانت تلعب دوراً سياسياً آخر ، إذ كان بعضها يقوم بمثابة الدول الحاجزة ، تفصل ما بين الحدود الدول العظمى المتصارعة فى الشرق والغرب ، مثل دولتى فارس وروما ، والدول التى سلفتهما ، أو تحمى حدود هذه الدول من غارات البدو فى الصحراء وهذه الدول ـ بحسب ترتيب ظهورها أو تعاصرها ـ هى :

دولة الأنباط ـ دوله تدمر ـ دولة المناذرة ـ دولة الغساسنة ـ دولة كندة .

٦٥ — دولة الأنباط :

كانت أقدم تلك الدول الشمالية ، وقد ذكرنا فى الفقرة ١٣ أنهم هاجروا من وسط شبه الجزيرة حوالى سنة ٥٠٠ ق . م . إلى الشمال الشرقى من شبه جزيرة سينا ، واستعمروا المنطقة التى تفصل ما بين الشام وبلاد العرب . وتمتد من نهر الفرات إلى البحر الأحمر ، وكان الأقدمون من اليونان والرومان يطلقون على بلادهم اسم بلاد

العرب الصخرية . وقد استولى الأنباط من الآدوميين على مدينة البتراء واتخذوها عاصمة لهم ، وهيمنوا منها على المنطقة المجاورة . وتقع البتراء (بطرة) إلى الشرق من وادى عربة فى منتصف المسافة تقريباً ما بين رأس خليج العقبة والبحر الميت ، وكانت تهيمن على طرق القوافل الممتدة منها إلى غزة فى الغرب وإلى بصرى ودمشق فى الشمال وإلى أيلة (العقبة) فى الجنوب ، وعبر الصحراء إلى الخليج الفارسى فى الشرق . والبتراء (بطرة) كلمة يونانية معناها صخر ، وهى ترجمة للكلمة العبرية سلع ، ويقابلها فى اللغة العربية الرقيم ، وهذا الاسم الأخير هو الذى كان يطلقه الأنباط على مدينتهم كما ذكر المؤرخ يوسفيوس . أما اسمها الحديث فهو وادى موسى ، وهى تقع على سطح هضبة عالية وهى محصنة من نواحيها الشرقية والغربية والجنوبية لا يمكن اقتحامها ولا يدخل إليها إلا من طريق ضيق متعرج تبلغ سعته فى أضيق نقطة اثنى عشر قدما فقط ، وفى الصخور الشواهق التى تحيط بها من كل ناحية كشف الناقبون عن جبانة شاسعة منحوتة فى الصخر يستطيع الرائى أن ينظر فى طبقاتها — ذات الحجر الرملى — معظم ألوان قوس قزح ، وقد زينت معظم القبور بوجهات منحوتة فى الصخر لا تزال بحالة حفظ جيدة ، كما كشفوا أيضا عن بقايا مسرح منحوت فى الصخر يسترعى الإعجاب . وتعتبر المدينة البقعة الوحيدة بين نهر الأردن وأواسط بلاد العرب التى كان يوجد فيها الماء الصافى بكثرة . وفى هذه البقعة كان عرب الجنوب فى رحلات قوافلهم إلى الشمال يحصلون على بدل جديد من الإبل والحداة ، وبذلك كان الأنباط يكونون حلقة هامة فى السلسلة التجارية التى كانت عاملا على ازدهار بلاد العرب الجنوبية .

ولا نعلم من تاريخ الأنباط شيئاً يرجع إلى ما وراء سنة ٣١٢ ق . م وهى السنة التى استطاع فيها الأنباط أن يصدوا حملتين وجههما ضدهم أنتيجونوس الأول ، الذى خلف الاسكندر كملك على الشام وأن يعودوا منتصرين إلى عاصمتهم الصخرة . وقد انتفع الأنباط من تدهور السلوقيين أخلاف الاسكندر ، فمدوا حدودهم إلى الشمال صوب المنطقة الأكثر خصبا الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن . لقد احتلوا حوران وحوالى سنة ٨٥ ق . م . أصبح ملكهم الحارث (حارثة أو أريتاس) سيدا على دمشق وما يجاورها من بلاد الشام ، ومنذ ذلك الوقت اتصل الأنباط بالرومان ـ لأول مرة ـ اتصالا وثيقاً . وفى سنة ٤٧ ق . م . طلب يوليوس قيصر إلى مالك (مالكو أو ملخوس الأول) أن يمده بالفرسان لحرب الاسكندرية . وفى عهد عبيدة (عبيدات أو أوبوداس الثانى) اشترك وزيره سيولوس فى الحملة التى قادها ايلوس جالوس فى

عهد الامبراطور أغسطس قيصر لغزو بلاد العرب الجنوبية سنة ٢٤ ق.م. (كما بينا فى الفقرة ٤٨) ، وقد وصلت دولة الأنباط إلى أقصى نفوذها فى عهد الحارث الرابع (٩ ق.م. — ٤٠ م) إذ كانت تمتد إلى الشمال حتى دمشق وإلى الجنوب حتى الحجر أو مدائن صالح فى شمال الحجاز ، بما فى ذلك سواحل البحر الأحمر المجاورة لهذه المنطقة ، وقد أخذت مدينة بطرة منذ ذلك الحين تصطبغ بالصبغة الرومانية ، حتى إذا كانت ١٠٦ م اهتضمتها الامبراطورية الرومانية ، بسبب جشع الامبراطور تراجان وقصر نظره ، وكان ذلك فى عهد آخر حاكم مستقل لها ، وهو ربيل الثانى ، ومنذ ذلك اليوم فقدت دولة الأنباط استقلالها . وأصبحت مقاطعة نظامية من مقاطعات الرومان ، تعرف باسم بروفينسيا أرابيا (أى مقاطعة بلاد العرب) ولولا سوء تصرف تراجان هذا لاستمرت بلاد الأنباط تعمل حاجزاً بين روما وغارات البدو من سكان الصحراء على أقاليمها .

واستمرت بطرة كمركز تجارى فى عهد الاحتلال الرومانى ولكن عندما بلغ رخاء المدينة أقصاه فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى أبطل سك العملة فجأة وربما كان ذلك بسبب اشتداد غارات البدو وتحريض الدولة الساسانية ، التى كانت حديثة الظهور إذ ذاك ، ثم لا ننسى أن مدينة تدمر أخذت - فى نفس الوقت - تزداد أهمية ، وتجتذب إليها الحضارة العربية ، فأدى ذلك إلى تدهور بطرة التجارى .

٦٦ — حضارة الأنباط :

كان الأنباط عرباً كما تدل على ذلك أسماء بعض ملوكهم التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة ولكنهم اندمجوا مع الآراميين ، وبرغم أنهم كانوا يتكلمون العربية الدارجة إلا أنهم كانوا يستعملون الحروف الآرامية ، التى كان يستعملها جيرانهم الشماليون وذلك بسبب عدم وجود الخط العربى فى ذلك التاريخ البعيد . ثم إنهم كانوا يستعملون اللغة الآرامية كلغة للعلم ، ولكن الأغلاط التى كانت تحدث فى النقوش الآرمية ، واستعمال بعض التعبيرات العربية فيها ، ينم عن اللغة العربية الأصلية لمؤلفيها .

وقد استمد الأنباط خطهم من الخط الآرامى ، وفى القرن الثالث الميلادى تحول هذا الخط النبطى إلى الخط الذى استعمل فى تدوين اللغة العربية الشمالية لغة القرآن ولغة الوقت الحاضر ، وقد حول إلى الخط المستدير المعروف بالنسخى تمييزاً له عن

الخط ذى الزوايا المعروف بالكوفى ، ومن أقدم النقوش العربية نقش النمارة فى شرق حوران ، وهو يرجع إلى سنة ٣٢٨ م ، وقد أقيم كلوحة تذكارية على قبر امرىء القيس أحد ملوك الحيرة اللخميين . وبمناسبة الخط النبطى الذى هو الأصل فى الخط العربى نذكر هنا أن كل هذه الخطوط التى استعملتها الشعوب العربية الشمالية ، وكذلك شعوب بلاد العرب الجنوبية إنما هى مستمدة جميعاً من الخط السينائى المأخوذ من الهيروغليفى ، الذى هو الأصل فى الأبجديات المستعملة فى أوروبا الآن وفى بلاد الشرق .

وآثار البتراء القائمة إلى الآن عظيمة ، وهى تجذب عدداً كبيراً من السائحين وتعتبر مورداً هاماً من موارد الدخل لحكومة شرق الأردن ، وأهم هذه الآثار هى المعروفة بخزنة فرعون المنحوتة فى جانب الصخر . وكان فى البتراء معبد يشبه الكعبة ، يضم عدة أصنام على رأسها ذو الشرى (ذو شرا أو دوسارس ومعناها سيد الشراه) وكان يعبد على شكل حجر أسود مستطيل ويعتبر إله الخير ، ومن بين الآلهة نذكر أيضاً اللات. ومن بين الآثار أيضا النجر ، ويبدو أنه جبل مقدس ، وعلى مقربة منه تمتد بعض مذابح لتقديم القرابين . وتنتشر فى الجدران الجبلية المحيطة بالمدينة القبور المحفورة فى الصخر على شكل بروج ، وبعض هذه الآثار يرجع إلى عصر الاستقلال القديم والبعض الآخر يرجع إلى العصر الرومانى ، وقد دخلت المسيحية إلى البتراء منذ العصور القديمة ، واتخذت من بعض المقابر كنائس ، ومازالت على المسيحية حتى اكتسحها — مع بقية بلاد العرب الشمالية — دين الإسلام ، فيما بين سنتى ٦٢٩ ، ٦٣٢ ميلادية .

الباب السادس

تاريخ تدمر

٦٧ — دولة تدمر (بلميرا — بالمرينا) :

تطلق كلمة بلميرا فى اليونانية واللاتينية على بلد شهير، يقع إلى الشمال الشرقى من مدينة دمشق، فى منتصف الصحراء الشامية، واسمها عند العرب والشاميين (تدمر). وهى واحة خصيبة كانت تقع بين الإمبراطوريتين المتنافستين بارثيا وروما، وتعتمد فى سلامتها على حفظ التوازن بين هاتين الدولتين، ووقوفها موقف الحياد منهما. وعندما فتح العرب هذه المدينة لم يكن الرواة يذكرون من أخبارها شيئا، فنسبوا بناءها إلى الجن الذين بنوها ـ كما اعتقد أولئك القصاص العرب ـ للملك سليمان :

ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه ... ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن إنى قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وفى سفر الأيام الثانى ٨ : ٤ تقرأ أن سليمان بنى مدينة تدمر فى البرية، وهو غلط لأن أقدم ذكر لهذه المدينة، نقرأه فى نقش يرجع إلى أيام تجلات بلسر الأول (حوالى ١١٠٠ ق . م .) .

والظاهر أنه فى حوالى القرن السادس قبل الميلاد — بعد سقوط الامبراطورية البابلية — اخذت بعض القبائل العربية تسكن فى شرق إقليم كنعان، وبدأت تتعلم الكلام والكتابة باللغة الآرامية، التى كانت شائعة فى المنطقة الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات .

وأول ذكر للمدينة فى المراجع الرومانية كان عند ماحاول مارك أنطونى فى سنة ٤٢ — ٤١ ق . م محاولة فاشلة، الاستيلاء على مغانمها، وأقدم نقش فى المدينة يرجع إلى سنة ٩ ق . م . وهو مكتوب بالخط الآرامى وكان ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه مدينة تدمر مركزا هاما للتجارة بين الدولتين الرومانية والبارثية .

وسرعان ما ارتقت الواحة من محطة للقوافل إلى مدينة من الطبقة الأولى ومركز للعبادة أكبر آلهته الشمس مع عدد من الآلهة الصغرى .

ولقد كانت أشهر سلع العالم القديمة الفاخرة هى الحريريات والجوهرات واللآلىء والعطور والبخور وما شابه ذلك، كلها تأتى من الهند والصين وبلاد العرب الجنوبية، وكانت المتاجر تسير فى طريقين أحدهما عبر البحر الأحمر ومصر والاسكندرية، والآخر من الخليج الفارسى عبر الصحراء الشامية ؛ وهذا الطريق الثانى كان فى مبدأ الأمر فى أيدى الأنباط سكان بطرة ولكن عندما سقطت بطرة سنة ١٠٥ ميلادية انتقل ما كان بأيديهم إلى التجار من أهل تدمر ؛ فكانت قوافلهم التجارية تعبر الصحراء الشامية إلى بعض المراكز التجارية على ضفاف نهر الفرات، ولقد كانت هذه التجارة ذات نفع عظيم لا للتجار فحسب بل للمدينة نفسها التى كانت تفرض الضرائب على كل ما يمر بها من صادرات أو واردات .

ولما كانت المتاجر تتعرض أثناء الطريق لعدة أخطار، منها انتهاب قبائل الصحراء أو اعتداءات البارثيين، لذلك كان أمر تأمين التجارة والوصول بها سالمة من المسائل التى تهم الدولة، ولذلك نجد أن النقوش القديمة يكثر فيها ذكر رئيس القوافل ورئيس السوق، على اعتبار أنهما من زعماء المواطنين. ولم تكن الصناعات المحلية بذات أهمية كبيرة، ذلك لأن شغل سكان المدينة الأكبر كان فى قيادة قوافل التجارة والإشراف على آبار الماء فى الطريق والقيام بأعمال « السكرتارية » وما شابه ذلك من الشئون المتعلقة بالتجارة .

ولعبت تدمر فى التاريخ القديم لبلاد العرب دوراً سياسياً، إلى جوار أهميتها التجارية، إذ كانت كل من دولتى روما وبارثيا يرقبان بعناية تامة موقفها بينهما ويخشيان أن ترجح كفة إحداهما عن الأخرى . أما أزهر عصور تدمر فكان فى الفترة بين سنتى ١٣٠، ٢٧٠ ميلادية، وإلى هذه الفترة ترجع معظم الآثار التى تحمل نقوشا . ولقد أزاح سقوط بطرة سنة ١٠٥ م من أمام تدمر كل منافسة فى التجارة الشرقية، وكان الامبراطور هدويان يعاملها برعاية خاصة، وعلى أثر زيارته للمدينة سنة ١٣٠ م . أطلق عليها اسم هدريانا بلميرا، ثم أعلنت فى عهد هذا الملك نفسه تعريفة جمركية جديدة، حلت محل نظام الضرائب القديم الذى كان شائعا، وقد أخذ النفوذ الرومانى منذ ذلك الوقت يتغلغل فى تدمر، فلم يكد ينتهى القرن الثانى، حتى

كانت تدمر تنحدر إلى مستوى المستعمرة ، ولكنها كانت تتمتع باستقلال إدارى مع الاعتراف الاسمى فقط بالسيادة الرومانية . وبعد ذلك الوقت بدأ التدامرة يضيفون إلى أسمائهم ألقابا رومانية .

وبرزت تدمر إلى الأمام إبان الحروب البارثية فى القرن الثالث ، وأصبحت سيدة الصحراء لفترة قصيرة . فلقد كان الشرق إذ ذاك يضطرب بالصراع بين الامبراطوريتين البارثية فى ثوبها الجديد الساسانى والرومانية . وكان على التدامرة أن يختاروا الانضمام إلى إحدى الدولتين . فآثروا أن ينضموا إلى روما ؛ ذلك لأن الامبراطور الرومانى كان — بسبب بعد روما — أقل خطرا عليهم من الامبراطور الساسانى القريب منهم .

واغتنم أهل تدمر فرصة هزيمة الرومان ، ونجاح سابور الأول ملك فارس ، فى التوغل فى سوريا والقبض على الامبراطور فاليريان الرومانى ، فظهر زعيمهم أذينه (واسمه عند الرومان أوديناتوس) لحارب سابور وتعقبه إلى أسوار عاصمته طيشفون (المدائن) سنة ٢٦٥ م . وبعد موت فاليريان منح الامبراطور جالينوس أذينة لقب الامبراطور واعترف به سيدا على كل الكتائب الرومانية فى الشرق ، ولكن حدث — بعد ذلك بعام واحد (سنة ٢٦٧) — أن قتل أذينة غدراً هو وابنه الأكبر فى مدينة حمص ، فانتقلت بعد ذلك مصائر تدمر إلى أيدى زوجته زينوبيا (اسمها بالآرامية باث زباى وبالعربية الزباء وأيضا زينب) التى كانت تشارك زوجها فى نشاطه وتؤيده فى سياسته التى ترمى إلى اغتنام الفرصة وتكوين امبراطورية عربية . لقد أثبتت زينوبيا أنها خير خلف لزوجها وتولت الحكم بالنيابة عن ابنها الصغير وهب اللات (أى عطية اللات) واسمه باليونانية (اثينودورس) ثم نادت بنفسها ملكة على الشرق ، مستخفة — إلى حين — بالامبراطورية الرومانية . لقد كانت تدمر تضم فى أيام أذينه بلاد الشام وبلاد العرب ، ولكن جنود زينوبيا الذين قيل إن عددهم كان ٧٠٠٠٠ قد تقدمت الآن لاحتلال مصر ، كما احتلت أيضا جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى ، حتى دفعت الحاميات الرومانية فيها إلى ما وراء أنقرة سنة ٢٧٠ بل وحاولت أن تبسط نفوذها عند خلقدونة على ضفاف البسفور قبالة بيزنطة ، وقد احتلت جنودها فى نفس العام — مدينة الاسكندرية ثانى مدائن الامبراطورية ونودى بابنها الأصغر ملكا على مصر فأصدر عملة أسقط منها رأس أورليان ، وأطلق

على نفسه لقب الإمبراطور ، وكذلك فعلت أمه زينوبيا . وفى سنة ٢٧١ ميلادية أقام القائدان التدمريان العظيمان زبدا وزباى تمثالا للملك المقتول أذينة ولقباه — فى نقش على قاعدة التمثال — بملك الملوك ، وإلى زباى وزبدا — هذين — يعزى الفضل — إلى حد كبير — فى نجاح زينوبيا فى ساحة الوغى .

ولم يكن من الطبيعى أن تصبر روما على هذه الاستهانة بأمرها طويلا ، فتشجع أورليان فى آخر الأمر وأعد حملة لغزو تدمر مصدر الخطر كله فجاء عن طريق آسيا الصغرى وهبط إلى بلاد الشام فلاقته جيوش تدمر تحت قيادة زبدا عند مدينة انطاكية ولكنها هزمت وعند مدينة حمص لاقت جيوش تدمر هزيمة أخرى وأصبح الطريق الآن مفتوحا إلى تدمر فاستولى عليها أورليان فى ربيع سنة ٢٧٢ وأصدر عفوا عن كل سكانها ولم يعاقب بالقتل إلا كبار الموظفين والمستشارين وفرت الملكة المتكبرة — وقد تملكها اليأس — على ظهر هجين سريع إلى الصحراء ، ولكنها أسرت هى وولدها فى آخر الأمر وقيدت فى سلاسل ذهبية أمام عربة المنتصر الذى أراد أن يفخر بها أثناء دخوله روما مظفرا .

وعرف أورليان — ولم يكد يعبر الدردنيل فى طريقه إلى روما — أن أهل تدمر ثاروا وقتلوا الحامية الرومانية التى أقامها فى المدينة ونادوا بأحد زعمائهم رئيسا عليهم، فعاد أدراجه بمنتهى السرعة دون أن يتوقع عودته أحد ؛ وفاجأ المدينة فأكمل دمارها وأسلم أهلها إلى السيف ثم نقل تحف معبد الشمس الرائعة وحليه الغالية ، إلى المعبد الذى أقامه فى روما لإله الشمس فى الشرق ، تخليدا لذكرى هذا الانتصار . ولم تنهض المدينة من كبوتها منذ ذلك اليوم ، ولا استردت مجدها وأهميتها ، وتركت المدينة أنقاضا هى نفس الأنقاض التى نراها فى الوقت الحاضر . وهكذا غربت شمس المجد التدمرى ، وكان كشهاب أضاء لحظة ثم انطفأ .

٦٨ — الحضارة التدمرية :

كانت الحضارة التدمرية مزيجا لطيفا من عناصر مختلفة ، بين يونانية وسورية وإيرانية . ولا جدال فى أن أهل تدمر كانوا من الأرومة العربية يدل على ذلك أسماء أعلامهم العربية ، وكثرة ترداد الكلمات العربية فى نقوشهم الآرامية . وكانت اللغة التى يتكلمونها لهجة من اللهجات الآرامية الغربية ، وهى تنتمى إلى الأصل الذى

استمدت منه النبطية أو الآرامية المصرية ، وهى تضم كثيرا من المصطلحات الحكومية اليونانية التى صبغها أهل تدمر بصبغتهم ، كما أن فيها بضع كلمات لاتينية صبغت بالصبغة الآرامية أيضا . وأما الخط الذى كانوا يكتبون به فهو تطور للخط الآرامى القديم . وأسماء الشهور عندهم هى نفس الأسماء البابلية التى كان يستعملها الأنباط والسوريون واليهود المتأخرون ، وكانوا يحسبون تواريخهم من العصر السلوقى ، الذى يبدأ بأكتوبر سنة ٣١٢ ق . م .

أما ديانة أهل تدمر فلا تختلف كثيرا فى أصولها عن ديانة أهل شمال سوريا والقبائل العربية الضاربة فى الصحراء الشرقية ، وكان أشهر آلهتهم إله الشمس ويسمى عندهم سمس أو شمش ومعناها شمس ، وبقايا معبد الشمس الكبير لاتزال قائمة فى أنقاض تدمر الآن . وكانوا يعبدون القمر أيضا ، ويسمونه عجل بل ، وكانت أشهر الإلهات الأنثيات الآلهة اللات المشهورة عند العرب القدامى ، ومن بين الآلهة بعل شمين « أو سيد السموات » ومن بين الآلهة إله يحمل هذا الاسم العربى الواضح ، وهو « شيعا القوم » وكانوا يصفونه بأنه إله الخير الطيب الذى لا يشرب الخمر ومعنى شيعا القوم أى حامى أو مرافق القوم ، وهو الذى يرعى القوافل فى سيرها ، هذا وقد كشفت النقوش عن أسماء نحو اثنين وعشرين إلهاً فى تدمر .

وبسقوط مملكة تدمر انتقل الطريق التجارى مرة أخرى إلى الجنوب فحلت بصرى وغيرها من المدائن الغسانية محل تدمر وورثتها كما ورثت تدمر بطرة من قبل.

ولكن تدمر انتعشت قليلا فى أواخر القرن الثالث الميلادى عندما اتخذها دقلديانوس محطة حربية . وقبيل ذلك الوقت سلكت المسيحية سبيلها إليها ، بدليل أننا نجد ذكرا لبعض التدامرة بين الآباء الدينيين الذين حضروا مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م وفى سنة ٥٢٧ أمدها جاستنيان بقناطر لجلب الماء ، وأقام فيها حائطا لاتزال آثاره باقية .

وعند الفتح الإسلامى للشام سلمت تدمر لخالد بن الوليد ، ولكن أهلها لم يعتنقوا الإسلام . ثم تحولت المدينة إلى معقل إسلامى يأوى إليه الكثيرون من المستعمرين العرب .

الباب السابع

تاريخ الحيرة

٦٩ — تمهيد :

فى أوائل القرن الثالث للميلاد ، تجمعت عدة قبائل فى منطقة البحرين يقول عنها مؤرخو العرب إنها من القبائل اليمانية ، التى تفرقت على أثر تصدع سد مأرب ، فأخذت تغير على أطراف الدولة الفارسية فى العراق ، وذلك فى فترة الاضطراب التى تلت سقوط الدولة البارثية وتأسيس الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ م . ولا تستطيع أن تفعل الدولة الفارسية معهم شيئا ، لأنهم كانوا بعد إتمام غارتهم يعتصمون بالصحراء ، التى يعبرعنها بأنها حصن العرب الحصين ، والتى لا يعرف مسالكها الفرس ولا غيرهم ، وبخاصة لأن فارس فى ذلك الوقت لم تكن فيها حكومة مركزية مهمة ، لأن الاسكندر المقدونى لما غزا فارس سنة ٣٣٣ قبل الميلاد ، جزأ الإمبراطورية الفارسية إلى دويلات صغيرة ، يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، وقد اتبع الاسكندر هذه السياسة حتى لا تقوى الفرس مرة أخرى على الإغارة على اليونان ، واستمر الحال كذلك حتى ٢٦٦ م إذ تمكن أردشير بن بابك من تأسيس الدولة الساسانية التى يعرف ملوكها بالأكاسرة ، فوحد بذلك كلمة الفرس ، وأعاد سلطانها إلى الأراضى العربية المتاخمة للبادية كالحيرة والأنبار ، ولما وجد أنه لا قبل له بصد غارات العرب المستمرة ، رأى من السياسة أن يبيح لهم السكنى فى منطقة الحيرة ، ومنحهم شبه استقلال لغرضين : الأول أن يتخذ منهم حاجزاً يقى بلاده شر غارات البدو ، وهم أقدر الناس على ذلك ، فكانوا بذلك يكونون ما يعرف فى الاصطلاح التاريخى باسم مملكة حاجزة ، والثانى ليستعين بهم على الرومان ، الذين كانوا فى حروب مستمرة مع فارس .

وقد قلنا إن مؤرخى العرب يقولون إن عرب الحيرة من عرب الجنوب (قضاعة والأزد) ولكن بعض المؤرخين المحدثين والمستشرقين ، يرجحون أنهم من العرب

الشمالية ، ويستدلون على ذلك بعدة براهين ، بعضها لغوية لأن لغة عرب الحيرة تنطبق على العدنانية ، ولا تمت إلى الحميرية الجنوبية بشيء ، ومنها الأسماء التي تشبه في مجموعها أسماء عرب الشمال ، وكذلك العادات والدين فإنها كلها أكثر انطباقا على عادات وديانة عرب الشمال ، ونحن نميل إلى هذا الرأي ، وإن كان لا يزال موضع افتراض وتمحيص بين المؤرخين .

٧٠ — مدينة الحيرة وسكانها :

تقع الحيرة على نهر الفرات ، على مقربة من أنقاض بابل ، وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة ، وقيل إن العرب هم الذين سموها هذا الاسم من الحيرة أو الضلال . ولكن الصحيح أن اللفظ سرياني ، مأخوذ من كلمة حرتا ومعناها الحصن أو الدير ، وقد بدأت هذه المدينة صغيرة شأن كل المدن ، ثم ازدهرت على مر الأيام في عهد دولة المناذرة آل نصر اللخميين .

أما سكانها فقد قسمهم ابن الكلبي إلى ثلاثة أقسام :

(١) تنوخ : وهؤلاء هم العرب الذين نزحوا من البحرين ، والذين ذكرنا أنهم مختلف في أصلهم ، هل هم عدنانيون أو قحطانيون ؟

(٢) العباد : وهؤلاء هم الفريق الأصلي ، الذي كان متوطنا في تلك المنطقة ، والذين يؤخذ من تاريخهم أنهم كانوا نصارى على المذهب النسطوري وأنهم كانوا أهل قراءة وكتابة وعلم بالإنجيل ، وكانوا يزاولون الصناعة والتجارة أيضاً ، وربما سموا بالعباد لأنهم كانوا يعبدون الله (أو المسيح) .

(٣) الأحلاف : وهم بعض أفراد من العرب ، هجروا بلادهم لسبب من الأسباب ، ونزلوا على تنوخ والعباد ، وارتبطوا معهم برباط حلف ، فسموا لذلك الأحلاف .

ونلاحظ أن السيادة كانت للعنصر العربي ، كانت له السيطرة العسكرية أما العباد فهم الذين كانوا يزاولون شئون الحياة العامة . ذلك كان تقسيم السكان منذ القرن الثالث الميلادي ، وقد كونوا وحدة سامية ، وكونوا دولة المناذرة التي كان لها أثر كبير في الحضارة العربية ، والتي كان أهلها يجوبون أجزاء الجزيرة العربية

يحملون المتاجر ، وأصبحوا ركناً هاماً في نشر العلوم بتعليمهم القراءة والكتابة كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب ، أثر اعتناق ملوكهم لها وظلوا كذلك حتى اكتسح الإسلام بلادهم سنة ٦٣٢ م . وتاريخ ملوك هذه الدولة أوضح في مجموعه من تاريخ الغساسنة ، وما ذكره مؤرخو العرب عنهم يتناسق مع ما ورد في التواريخ الفارسية ، على عكس ما ذكروه عن ملوك غسان ، ولعل ذلك إلى أن ملوك الحيرة كانوا يدونون أخبارهم ، ويودعونها في البيع والأديرة ، التي كانت منتشرة في منطقتهم وقد ذكر المؤرخون أسماء أكثر من خمسة وعشرين ملكا ، تعاقبوا الحكم على الحيرة يكون الأربعة أو الخمسة الملوك الأول منهم التاريخ الميثولوجي للحيرة ، وسنلخص أخبار هذا الدور الميثولوجي أولا ، ثم بعد ذلك نكتفي بالكلام عن أشهر ملوك الحيرة الحقيقيين .

٧١ — الدور الميثولوجي :

(١) مالك بن فهم الأزدي : هو أول من حكم الحيرة في نظر مؤرخي العرب ، حكم عشرين سنة ثم مات على أثر سهم رماه به سليمة ، وهو ابنه في رواية ، وأحد خواصه الذين رباهم في رواية أخرى ، فقال في ذلك شعراً جرى مجرى الأمثال :

جزاني لاجزاه الله خيراً . سليمة إنه شراً جزاني
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

(٢) عمرو بن فهم : تولى بعد أخيه ولم يذكر عنه شيء ذو بال .

(٣) جذيمة الأبرش أو الأبرص أو الوضاح : هو ابن عم عمرو بن فهم ، وقيل ابن أخته ، قالوا إنه كان متكبراً . وكان لا ينادم أحداً في الشراب اكتفاء بمنادمة الفرقدين وهما نجمان ، وكان له غلام يسمى عدى بن نصر ، أخذه من أياد التي سرقت صنميه المسميين الضيزنين ، وردتهما بعد تهديده مع عدى ، هذا وكان عدى له جمال وظرف فوقعت في هواه رقاش أخت جذيمة ، وحملته على أن يطلب زواجه منها إذا سكر جذيمة ، ونجحت حيلة رقاش وتزوجت من عدى ، وفي الصباح عرف جذيمة الأمر فاستنكره . فبعث إلى أخته وكان شاعراً بالأبيات الآتية :

خبريني رقاش لا تكذبيني   أبحر زنيت أم بهجين ؟
أم بعبد فأنت أهل العبد   أم بدون فأنت أهل لدون

فقالت له لا ولكنك زوجتني أمرءاً عربياً نسيباً ، ولم تستأمرني في نفسي، ولم أكن مالكة لأمري، فكيف عنها ، وولدت رقاش غلاما أسمته عمراً ، وتبناه جذيمة وألبسه طوقاً من فضة ، واختفى الغلام عمرو فجأة ، ولم يوقف له على أثر ، وأخيراً عثر عليه الأخوان مالك وعقيل وقدماه هدية للملك الذي سر كثيراً ، وقبل أن ينادمهما ، وكان لا ينادم إلا الفرقدين كما سبق .

وجذيمة هو صاحب قصة الزباء ملكة تدمر ، ولأهمية قصتها في كتب التاريخ العربية والأدب العربي نفرد لها الفقرة التالية .

٧٢ — قصة الزباء

نلخص هذه القصة عن المراجع العربية فيما يلي :

كان جذيما رجلا ميالا إلى الحروب ، فجمع جيشا وسار إلى مشارف الشام ، فحارب عمرو بن الظرب ملك تدمر فقتله ، ثم انكفأ راجعا بجنوده إلى الحيرة ، وملكت الزباء ـ واسمها ليلى وفي رواية نائلة ـ مكان أبيها عمرو وكانت امرأة حازمة ذات رأى ، وكان ملكها يمتد من الفرات إلى تدمر .

فلما استحكمت ملكها صممت على أن تثأر لأبيها ، فنصحت لها أختها ـ وتسمى زبيبة ـ بالعدول عن الحرب وإعمال الحيلة ، فنزلت الزباء عند رأى أختها وكتبت إلى جذيمة تقول له إن ملك النساء قبيح وتطلب إليه أن يتزوجها وأن يضم ملكها إلى ملكه وأن يقدم إليها .

واستشار جذيمة رجال دولته ، فأجمعوا على أن يسير إليها إلا واحدا يسمى قصيراً ، اقترح أن يكتب إليها لتجيء هي إليه فرفض جذيمة ذلك ، قصير : (لا يسمع لقصير رأى) واستخلف جذيمة على ملكه ابن اخته عمرو بن عدى ، وسار إلى الزباء في وجوه أصحابه، فاستقبلته رسل الزباء بالهدايا والتحف ،ولم تلبث خيلها أن أحاطت به ، وأدرك قصير الخطر فركب فرسا لجذيمة تسمى العصا وفر ؛ فقال جذيمة : (إنى أرى حزما على متن العصا)

ولما وصل جذيمة إلى الزباء أجلسته على نطع ، وأحضرت طستا من الذهب ، وأمرت جواريها أن يقطعوا راهشيه ، وهما عرقان في الذراع ، وقالت للجوارى : لا تضيعوا دم الملك ؛ فقال جذيمة (دعوا دما ضيعه أهله) .

ولما ضعف الملك سقطت يداه ، فقطر من دمه قطرة في غير الطست ، فتشاءمت الزباء وخافت أخذ الثأر .

أما قصير فانه قدم على عمرو بن عدى بالحيرة ، وطلب إليه أن يستعد للثأر لخاله ، ثم جدع قصير أنفه ودق ظهره كأنه هارب . وأتى الزباء ورأته على هذه الحالة

فقالت (لأمر ماجدع قصير أنفه) ثم أخبرها أن عمراً فعل به ما ترى لأنه اتهمه بممالأتها ضد خاله ، فانخدعت ووثقت به ، وبعد مدة قال لها : إن لى بالعراق أموالا فائذنى لى لأحمل مالى وأحمل لك من طرف العراق ومتاجرها ، فدفعت له أموالا ، وجهزت له عيرا ، ورجع بما طلبت فأعجبها وسرها ، ثم جهزته مرة أخرى بأكثر من الأولى فرجع وفى المرة الثالثة أرسلته فى عير كبيرة ، فأخبر عمراً الخبر ، وجمع له عمرو ثقاة أصحابه وحمل كل جمل رجلين فى جوالقين ، وكان بين الرجال عمرو نفسه ، وتقدم قصير فبشر الزباء بوصول العير وبكثرة ما حمل من الثياب والطرف وخرجت الزباء فرأت الإبل تتهادى فى أحمالها فقالت :

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلا يحملن أم حديدا ؟
أم صرفانا تارزا شديدا أم الرجال جثما قعودا ؟

ودخلت الإبل المدينة ، وحدث أن آخر جمل نخس حارس المدينة أحد جوالقيه بمنخسة فى يده فصرخ من فى الجوالق ، وصاح الحارس (شر فى الجوالق) ولكن الأمر كان قد انقضى ، إذ أنيخت الإبل ، وخرج الرجال من الجوالق ، وقام عمرو على باب نفق أعدته الزباء للهروب ، ووضع رجاله السلاح فى أهل المدينة وخرجت الزباء تريد النفق فوجدت عمراً عنده بإرشاد قصير ، فعرفت عمر بصورة كان عملها لها مصور أرسلته خفية إلى الحيرة فعرفته وأيقنت بالهلاك فآثرت أن تنتحر فمصت سما كان فى خاتمها وقالت (بيدى لا بيد عمرو) .

هذه هى قصة الزباء رأينا أن نصوغها فى أقصر عبارة وتجد تفصيلها فى الأغانى والطبرى والمسعودى وغيرها من كتب الأدب والتاريخ .

وقد وضعنا بعض العبارات بين قوسين وهى العبارات التى سارت مسير الأمثال والقصة فى مجموعها طريفة والخيال فيها منسجم ، ويحاول كثير من المؤرخين أن يقول إن الزباء هى زينوبيا ملكة تدمر زوجة أذينه ملك تدمر الذى ساعد الرومان فى حرب الفرس ، وتمكن فى أواخر القرن الثالث الميلادى من مطاردة الفرس حتى أسوار المدائن عاصمتهم . والزباء ـ لاشك ـ شخصية خرافية لاتمت بصلة إلى زينوبيا التى ذكرنا فى الفصل السابق أنها بعد قتل زوجها أذينه حاولت أن تقيم إمبراطورية شرقية مقلدة فى ذلك كليوبترا وأنها تمكنت من دخول مصر وإخضاعها فترة ؛

ولكن الرومان لم يمهلوها إذ تغلب عليها القائد أورليان وقادها أسيرة أمام مركبته الحربية فى شوارع رومة سنة ٢٧٤ م .

والآن وقد انتهينا من الكلام عن الدور الخرافى ـ سنتكلم فى الفقرات التالية عن أشهر ملوك الحيرة وأهمهم :

١ ـ أمرؤ القيس بن عمرو . ٢ ـ النعمان الأول .
٣ ـ المنذر الأول . ٤ ـ المنذر الثالث .
٥ ـ عمرو بن هند . ٦ ـ النعمان الثالث .
٧ ـ إياس بن قبيصة الطائى .

٧٣ — امرؤ القيس بن عمرو ـ ٢٨٨ ـ ٣٢٨ م :

ويسمى بامرىء القيس البدء هو ابن عمرو بن عدى ، وهو ثانى ملوك الحيرة إذا اعتبرنا أن عمرو بن عدى ـ الذى ذكرنا شطراً مما يقال عنه فى الفقرة السابقة ـ أولهم وتنحصر أهميته فى أن النقابين عثروا فى حوران على حجر كبير من البازلت عليه نقوش باللغة العربية الشمالية ، مكتوبة بالخط النبطى ، ترجمتها — نقلا عن تاريخ العرب قبل الإسلام لجورجى زيدان ـ ما يأتى :

١ — هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد
٢ — التاج وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم
٣ — وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معدا واستعمل
٤ — بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك
٥ — مبلغه إلى اليوم . . .

والظاهر أنه كان فى رحلة إلى حوران فمات ودفن بها .

٧٤ — النعمان الأول ٤٠٠ـ٤١٨ م :

هو النعمان بن امرىء القيس ، ويلقب بالأعور ، ويشتهر فى التاريخ ، لأنه هو بانى الخورنق والسدير ، وسبب بناء الخورنق أن يزدجرد الأول ملك فارس لم يعش

له ولد ، فسأل عن منزل برىء مرىء صحيح من الأدواء والأسقام ، فدل على ظاهر الجبل ، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان ، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له ، وأن ينزله إلى بوادى العرب ، وكان الذى بنى الخورنق مهندس بيزنطى يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان صنعته ، فقال : لو عرفت أنكم توفوننى أجرى وتصنعون بى ما أنا أهله ، لجعلته بناءاً يدور مع الشمس حيثما دارت ، فقال النعمان : وإنك لتقدر على بناء ما هو أفضل منه ثم لم تبنه ؟ وأمر به فطرح من رأس الخورنق .

وهناك رواية أخرى تتعلق بمصرع سنمار ، وهى أنه قال للنعمان : إنه يعرف فى القصر حجراً واحداً وأنه لو حرك من مكانه لتردى القصر ، ثم عرف الملك موضع الحجر ، وخشى أن يدل سنمار آخرين عليه ، فأمر به فأردى من أعلى القصر ، وهى رواية ظاهرة الخرافة ، وعلى كل فان ما صنعه النعمان بسنمار سار مسير الأمثال ، حتى قيل فى نكران الجميل (جزاه جزاء سنمار) وقال الشاعر فى ذلك :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

ونعرض الآن لناحية أخرى من نواحى النعمان وهى تنسكه . روى الدكتور حسن إبراهيم فى كتابه تاريخ الإسلام السياسى ـ نقلا عن حمزة الأصفهانى ـ ما نصه : « لما أتى على الملك النعمان ثلاثون سنة علا بمجلسه على الخورنق ، وأشرف منه إلى النجف وما يليه من البساتين والجنان والأنهار مما يلى المغرب ، وعلى الفرات مما يلى المشرق . فأعجبه ما رأى فى البر من الخضرة والنور والأنهار الجارية، وإلفاظ الكماة ورعى الإبل وصيد الظباء والأرانب ، وفى الفرات من الملاحين والغواصين وصيادى السمك وفى الحيرة من الأموال والخيول ومن يموج فيها من رعيته ، ففكر وقال أى درك فى هذا الذى قد ملكته اليوم ويملكه غيرى غداً ، فبعث إلى حجابه ونحاهم عن بابه ، فلما جن الليل التحف بكساء وساح فى الأرض فلم يره أحد ، وفيه يقول عدى بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر :

وتدبر رب الخورنق إذ أشـــرف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غا ية حى إلى الممات يصير

ثم بعد الفلاح والملك والنعـــمة وارتهمو هناك القبور
ثم ساروا وكأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

وتذكر بعض الكتب أن ما حمله على التنسك هو أنه سأل يوماً وزيره وهو فى مجلسه هذا هل رأيت أحسن مما نحن فيه ؟ فأجاب لا لو أنه يدوم ، فسأل النعمان وما يدوم ؟ فرد الوزير : ما عند الله ، فسأل وكيف الوصول إلى هذا ؟ فقال الوزير : بالانصراف عن الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده فكان ما كان من أمره .

وذكر الأستاذ نكلسون أن ما يقوله مؤرخو العرب فى اعتناق النعمان للنصرانية ، لا يقوم على أساس ، ولكن هناك ما يؤيد أنه كان يحسن معاملة رعاياه النصارى ، ويسمح لهم بحرية تامة فى ممارسة شعائرهم الدينية ، بدليل وجود أسقف مسيحى فى الحيرة منذ سنة ٤١٠ ميلادية .

٧٥ — المنذر الأول ٤١٨ - ٤٦٢ م :

خلف أباه العرش الذى تركه ، وسد الفراغ الذى خلفه أبوه ، وتنحصر أهميته التاريخيه فى أنه تدخل فى شئون فارس ، فنصر بهرام جور فى النزاع الذى قام بينه وبين الكهنة عند توليته العرش ، كما أنه أعان بهرام جور فى حربه مع الروم ، التى قامت بسبب اضطهاده للنصارى .

٧٦ — المنذر الثانى ٥٠٥ — ٥٥٤ م .

ويعرف باسم المنذر بن ماء السماء ، وماء السماء كان لقباً لأمة مارية أو ماوية ، وقد عاصر قباذ وابنه أنو شروان من ملوك الفرس، وعاصر جستنيان من ملوك الروم، والحارث بن أبى شمر الغسانى ، والحارث بن عمرو الكندى ، وسيتناول الكلام عليه المسائل الآتية :

١ — منافسة كنده ٢ — مزدك ٣ — حربه مع الحارث بن جبلة الغسانى
٤ — حربه مع الروم ٥ — يوم البؤس ويوم النعيم .

١ — كان حكم المنذر زاهراً ، ولكن اعترضته سحابات من الاضطراب بسبب امتداد نفوذ كنده (وسنفرد للكلام عليها الباب التاسع) وتقرب الحارث ملكها

من قباذ منافسة للمناذرة ، وساعده على ذلك أن المنذر رفض اعتناق مذهب مزدك فكانت النتيجة أن الحارث اعتنقه بعد رفض المنذر ذلك ، ثم غزا الحارث بمساعدة قباذ الحيرة وطرد المنذر منها .

٢ — أما مزدك هذا فهو رجل فارسى ظهر فى عهد قباذ ، وكان صاحب مبدأ شيوعى خطير ، خلاصته كما ورد فى الجزء الثانى من الشاهنامه صحيفة ١١٩ « أن الذى يمنع الناس من سلوك طريق السداد منحصر فى خمسة أشياء لا غير ، وهى الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر ، وإذا قمعت هذه الأخلاق الشيطانية استقام طريق الحق . ومنشؤها كلها من شيئين المال والنساء ، فينبغى أن يجعلا على الإباحة بين الخلق أجمعين حتى تأمن الآفات الخمس » فاستهوى هذا المبدأ العامة وتبعه خلق كثير ، وازداد قوة وانتشاراً لما اتبعه قباذ ، ولكن كسرى أنو شروان لأسباب خاصة لا محل لذكرها تمكن - وهو لا يزال ولياً للعهد - من قتل مزدك ومن تبعه ، ولما آل إليه الملك بعد أبيه قباذ تعقب المزدكية فى كل مكان ، حتى طهر منهم بلاد فارس نوكان من نتيجة القضاء على المزدكية أن طرد الحارث الكندى من الحيرة وأعيد المنذر إلى الحكم .

٣ — ولقد قامت حرب بين المنذر والروم - بتحريض من كسرى - تمكن فيها من اجتياح بلاد الشام ، حتى وصل إلى أنطاكية ، ورأى جستنيان نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغسانى لصد تيار المنذر .

٤ — وهنا بدأت سلسلة حروب بين المنذر والحارث، فكان كل منهما يعتدى على أرض الآخر ، وكان النزاع فى الغالب يقوم على الأرض المسماة استراتا Strata (وهى الممتدة على جانبى الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر) إذ كان كل من الفريقين يدعى السلطة على القبائل العربية النازلة بها ، وكان النزاع لا يلبث أن يسوى حتى يقوم مرة أخرى - بلا شك - بتحريض من قيصر الروم . وفى إحدى هذه الحروب أسر المنذر إبناً للحارث ثم ذبحه فى الحال تقرباً إلى الآلهة العزى ، كما يقال إنه فى حرب أخرى تقرب بأربعمائة مسيحى إلى نفس الآلهة .

ثم انتهت هذه الحروب بمعركة قامت فى مقاطعة قنسرين هى المعروفة باسم يوم حليمة ، وهى التى تمكن فيها الحارث - بحيلة من حيلة - من القضاء على خصمه المنذر .

ويوم حليمة هذا هو الذى يضرب به المثل ، فيقال : (وما يوم حليمة بسر) . وحليمة هى ابنة الحارث التى قيل إنها عطرت بيدها مائة بطل من الغساسنة .

٥ — ونختم الكلام عن المنذر بحكاية مشهورة فى كتب الأدب ، ولكننا لا نعلم مدى صحتها من الناحية التاريخية ونقصد بها قصة الغريين ويوم البؤس ويوم النعيم ونحن نلخصها فيما يلى :

كان للمنذر نديمان ، أحدهما يسمى خالد بن المضلل ، والآخر عمر بن مسعود ، فحدث - وهم على الشراب - أن غضباه ، فأمر بهما فدفنا حيين وفى صبيحة اليوم التالى افتقدهما ، وتذكر الخبر فندم أشد الندم ، وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وجعل لها يوم نعيم ويوم بؤس ، فكان لا يطلع عليه فى يوم بؤسه أحد إلا أمر بذبحه ، وبأن يطلى بدمه الغريان ، أما أول من يطلع عليه فى يوم نعيمه فإنه يعطيه مائة من الإبل . ولقد ذهب ضحية يوم البؤس كثير من الناس من بينهم عبيد بن الأبرص الشاعر . وذات يوم طلع عليه فى يوم بؤسه حنظلة الطائى ، وكان له على المنذر فضل ، ولم ينفع هذا الفضل حنظلة إلا فى إرجاء التنفيذ إلى عام بضمانة واحد من حاشية المنذر يسمى شريك بن عمرو، ولما حان الموعد ولم يظهر حنظلة كان المنذر على وشك أن يقتل كفيله شريكا ، ولكن ظهر فجأة شبح من بعد فلما وصل عرف أنه حنظلة ، فأعجب المنذر بوفاء حنظلة وتضحية شريك ، فقال : لا أكون ألأم الثلاثة ، وأغدق عليهما وأبطل من يومه هذه العادة السيئة .

٧٧ — عمرو بن هند ٥٥٤ — ٥٦٩ م :

هو ابن المنذر الثالث ، وأمه هند بنت الحارث الكندى وهى عمة امرىء القيس الشاعر ، وكان يعاصر كسرى أنو شروان ، وقد أصبحت الحيرة فى عصره مركزاً هاماً للأدب ، يزور بلاطه فيها الشعراء المشهورون مثل طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، وكان رجلا ظالما تهابه العرب ، شديد الزهو والكبرياء ، يدلك على ذلك الحكاية التالية ، التى تذكرها كتب الأدب والتى كانت — فيما يقولون — سبباً فى قتله :

« قال عمرو بن هند يوما لجلسائه . هل تعلمون أن أحداً من العرب تأنف أمه

من أن تخدم أمى ؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبى ، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو ، فسكت مضرط الحجارة (وهو لقب عمرو بن هند) على ما فى نفسه ، وبعث إلى ابن كلثوم يستزيره ، ويأمره أن تزور أمه أمه ، فقدم ابن كلثوم فى فرسان من تغلب ومعه أمه ليلى ، فنزل على شاطىء الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر بسرادق فضرب بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته ، وصنع لهم طعاما ، وجلس عمرو بن كلثوم وخواص أصحابه فى السرادق ، وجلست هند هى وليلى أم عمرو بن كلثوم فى قبة ، وكان عمرو بن هند قد قال لأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ولم تبق إلا الطرف نحى خدمك عنك فإذا دنت الطرف استخدمى ليلى ، ففعلت ولما فرغ الناس من الطعام قالت : ياليلى ناولينى ذلك الطبق ، فقالت : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فألحت عليها فصاحت ليلى : واذلاه يا لتغلب . فسمعها ولدها عمرو فثار الدم فى رأسه ، ونهض إلى سيف ابن هند وهو معلق فى السرادق ولم يكن هناك غيره ، فأخذه وضرب به عمرو بن هند ، ونادى فى بنى تغلب ، فانتهبوا جميع ما فى السرادق ، واستاقوا النجائب وسبوا النساء وانصرفوا » .

هذه حكايته مع عمرو بن كلثوم ، وهى حكاية يتعذر على الإنسان أن يؤمن بها على علاتها .

هذا ويقال إنه صاحب يوم أوارة الثانى ، وخلاصته أن جماعة من زرارة قتلوا ابنا أو أخا له ، فأقسم ليقتلن منهم مائة ، فسار يطلبهم حتى بلغ أوارة ، فتفرقوا فبث سراياه فيهم ، فأتوه بتسعة وتسعين رجلا وتعذر عليه إتمام المائة ، فلما كان آخر النهار أقبل رجل من البراجمة ـ وهم قوم من تميم ـ يقال له عمار كان قد شم رائحة الدخان (وكان عمرو قد ألقى بالقتلى فى النار) فظن أن هناك مأدبة ، فأسرع حتى أناخ إلى عمرو ، فسأل عمرو ممن الرجل ؟ فقال : من البراجمة فقال : (إن الشقى وافد البراجم) فذهبت مثلا ، ثم أمر بالرجل فألقى فى النار ، فصار ذلك عارا لبنى تميم . قال الشاعر :

إذا ما مات ميت من تميم　　وسرك أن يعيش فجىء بزاد

بخبز أو بلحم أو بتمر　　أو الشىء الملفف بالبجاد

تراه ينقب البطحاء حولا　　ليأكل رأس لقمان بن عاد

والحكاية فى مجموعها ظاهرة الطرافة ، وإن كانت لا تمت إلى التاريخ بصلة ، وهذا هو رأينا فى كل أيام العرب إلا القليل منها .

٧٨ — النعمان الثالث ٥٨٠ - ٦٠٢م :

هو آخر ملوك الحيرة اللخميين ، وأكثرهم شهرة فى كتب الأدب ، وهو ابن المنذر الرابع ، وكنيته أبو قابوس ، عاصر كسرى أبرويز ، وكان المنذر الرابع قد خلف ثلاثة عشر ولدا قيل لهم الأشاهب لجمالهم ، وفيهم قال الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهب بالحـــيرة يمشون غدوة بالسيوف

والظاهر أن ملوك الحيرة أصبحوا من الضعف بحيث أصبح ملوك فارس يضعون على عرش الحيرة من شاءوا ، وأخيراً ظفر بعرش الحيرة النعمان الثالث بمساعدة عدى بن زيد العبادى (لأنه من عباد الحيرة) وكان يتولى الترجمة فى بلاط فارس ، وكان المنذر أبو النعمان قبل أن يرسله إلى المدائن قد عهد إليه بتربية ابنه النعمان ، وغضب لتولية النعمان بعض إخوته ، وحقدوا على عدى بن زيد ، وما زالوا بأخيهم يوغرون صدره ضد عدى حتى حملوه على أن يستقدمه ، وأرسل النعمان إلى ابن زيد فاستأذن كسرى فأذن له ، فلما أتى الحيرة أمر النعمان بحبسه ، وطال حبسه وعلم كسرى بخبره ، فأرسل إلى النعمان أن يطلق سراحه ، فتظاهر النعمان بالطاعة وأمر بقتل السجين ، وكان لعدى بن زيد ابن يسمى زيداً وصل إلى مركز الترجمة فى بلاط فارس بدل أبيه ولما كبر أراد أن يثأر لقتل أبيه ، فما زال بكسرى يوغر صدره على النعمان ملك الحيرة حتى أفلح ، فاستقدم كسرى النعمان ، فلما أحس بقرب يومه استودع أمواله وسلاحه رجلا من قبيلة بكر ، ثم انصرف إلى كسرى ليبدى له براءته مما اتهم به ، فأمر به كسرى فحبس حتى مات فى الحبس سنة ٦٠٢ على بعض الروايات ، وعلى أثر موته زال الحكم عن أسرة المناذرة ، وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى ، وأشرك معه فى الحكم رجلا فارسيا اسمه النخيرجان .

٧٩ — بعض أخبار النعمان الثالث :

يتداعى إلى الذهن ـ إذا ذكر اسم النعمان بن المنذر ـ اسم النابغة الذبيانى الشاعر

المشهور . ولا غرو فقد كان النعمان راعيا للأدب والشعر ، وكان فى بلاط الحيرة أيامه يموج بالشعراء ، الذين كان من أحبهم إليه النابغة الذى هرب من الحيرة على أثر وشاية قام بها أحد منافسيه من الشعراء عقب قصيدته المشهورة التى وصف فيها المتجردة زوج النعمان وزوج أبيه من قبل ، وهى مشهورة فى كتب الأدب .

والنعمان هو صاحب يوم طفخة ويوم السلان ، والأول كان بينه وبين بنى يربوع بسبب الردافة وهى بمنزلة الوزارة . والثانى ـ وهو الأشهر ـ كان بينه وبين بنى عامر بن صعصعة وسببها غضب النعمان من أجل لطيمه لكسرى (قافلة تجارية) أرسلت لتباع بعكاظ فاعتدى عليها بنو عامر . ورغم تنكر الجيش الذى بعثه النعمان فى زى التجار فإن الدائرة دارت عليه .

٨٠ — إياس بن قبيصة الطائى ٦٠٢ - ٦١١ م :

قلنا من قبل إن كسرى لما حبس النعمان حتى مات فى السجن استعمل مكانه إياس بن قبيصة الطائى ، ونضيف هنا أن كسرى طلب من إياس أن يجمع ما خلفه النعمان ويرسله إليه فأرسل إياس إلى هانىء بن مسعود يطلب ما استودعه النعمان فأبى ، فغضب كسرى وأشار عليه أحد أعداء بكر بن وائل أن ينتظر ريثما ينزلون مياه ذى قار وقت القيظ ، فيبعث من يأخذهم بالقوة ، فصبر كسرى حتى نزلوا المكان فبعث إليهم بمن يخيرهم بين الحرب أو تسليم ما خلفه النعمان ، فآثروا الحرب ، وقاد ابن قبيصة جنود الفرس والعرب وأراد هانىء بن مسعود ـ بعد أن فرق سلاح النعمان فى رجاله ـ أن يفر ، ولكن رجلا اسمه حنظلة بن ثعلبة أنبه . فرد هانىء الناس وقطع ودن الهوادج وضرب على نفسه قبه وأقسم ألا يفر حتى تفر القبة ، وثبت العرب ثباتا جميلا ، وانهزم الفرس بصفوفهم وخيولهم على الرغم من كثرة عددهم ، وتعرف هذه المعركة فى تاريخ العرب بيوم ذى قار . وروى أن النبى عليه السلام ـ وهو فى مكة بعد البعثة ـ لما بلغه انتصار العرب قال ما معناه : « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم » . وقد حقد سائر العرب على إياس ، وكانت هذه المعركة نذيراً بزوال النفوذ الفارسى وفألا حسنا للعرب .

وبعد موت إياس تولى ملك الحيرة من قبل فارس اثنان كان آخرهما المنذر الخامس الملقب بالمغرور ، ثم سقطت الحيرة تحت أقدام خالد بن الوليد فى سنة ١٣ هجرية أيام الخليفة أبى بكر الصديق .

والآن — وقد انتهينا من الكلام عن أشهر ملوك الحيرة — يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على تحضر هذه الدولة ومبلغ ما أفاد منها العرب أو الفرس .

٨١ — حضارة دولة الحيرة :

كانت دولة الحيرة فى سطوتها تشمل المنطقة الواقعة غرب الفرات ، ابتداء من مجراه الأوسط إلى منتصف الخليج الفارسى ، وكان نفوذها يمتد إلى كافة القبائل الضاربة فى هذه المناطق ، وكانت الدولة مستقلة استقلالا يكاد يكون تاما ، وقد استمرت زهاء أربع قرون وربع قرن ابتداء من أوائل القرن الثالث ، وكان على رأس الدولة ملك له بلاط يكاد يكون صورة مصغرة من بلاط المدائن ، وله وزير يسمى الرديف ، وتحت تصرفه قوة عسكرية بعضها نظامى وبعضها غير نظامى . وكان الجند النظامى كتيبتين إحداهما فارسية يقال لها الشهباء ، وأخرى عربية يقال لها دوسر أما القوة غير النظامية فكانت تنظم القبائل الموالية التى كان معظمها يستنفر وقت الحرب وكان أهمها كتائب الرهائن والصنائع والوضائع ، وكانت لهذه الكتائب كلها حصون تعرف بالمسالح (جمع مسلحة) .

ويبدو أن الحضارة العربية فى الحيرة ، التى كانت تواجه فارس لم تصل إلى الدرجة العالية ، التى وصلت إليها الحضارة العربية فى بطرة وتدمر وأرض الغساسنة ، تحت التأثير البيزنطى السورى .

وكان عرب الحيرة يتكلمون العربية الشمالية فى حاجاتهم اليومية ، ولكنهم فى الغالب كانوا يستعملون السريانية فى كتاباتهم ، وهم من هذه الناحية يشبهون الأنباط والتدامرة ، الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون الآرامية . وقد أدت هذه الدولة خدمة كبيرة للغة العربية بما احتضنت من الشعراء ، كما أنه كان لها فضل كبير — فيما بعد — فى تعليم الخط العربى ، وفى إغناء اللغة العربية بكثير من الألفاظ الفارسية ، التى تعبر عن أشياء لم يكن العرب يعرفونها .

وكان الملوك فى الشطر الأول من الدولة وثنيين ، أما فى الشطر الثانى فقد اعتنق معظمهم النصرانية ، وسبب عدم اعتناق الأولين منهم للنصرانية ـ ديانة البيزنطيين ـ يرجع إلى أن ملوك الحيرة ، وجدوا — من حسن السياسة — أن يظلوا على صداقتهم

مع الفرس . وكان معظم النصارى فى الحيرة من النسطوريين . وطبيعى أن النصرانية انتقلت إليهم من الشام ، حيث كان أصحاب المذهب النسطورى مضطهدين ، وكان المذهب النسطورى « مذهب شرق الشام » أقل مذهب يلقى اعتراضا من الفرس. وإلى نصارى الحيرة — والعباد أهم فرقة فيهم — يرجع الفضل فى نشر المسيحية فى بعض الأجزاء التى انتشرت فيها فى بلاد العرب ، كما يرجع إليهم الفضل أيضا فى تعليم العرب الوثنيين القراءة والكتابة والدين ، وتذكر بعض الروايات أن قريشا تعلمت من الحيرة فن الكتابة والزندقة .

ويجب أن لا ننسى أثرهم أيضا فى حمل بعض مظاهر الحضارة الفارسية إلى بلاد العرب ، ولا ما شيدوه من أبنية رائعة كالخورنق والسدير .

الباب الثامن

تاريخ الغساسنة

٨٢ — تمهيــــد :

قامت دولة الغساسنة للروم مقام دولة المناذرة للفرس ، بمعنى أنها كانت دولة حاجزة ، اتخذ منها الروم مجنا يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء من جهة ، وليثيروهم ضد الفرس ويستعينوا بهم عليهم من جهة أخرى . وتاريخ هذه الدولة غامض ، ولا تتفق المراجع العربية مع المراجع اليونانية إلا فى النذر اليسير . والمؤرخون العرب أنفسهم يختلفون فى عدد الملوك وأسمائهم وسنى حكمهم ، فهم عند حمزة الأصفهانى ٣٢ ملكا ، وعند ابن قتيبة ١١ ، وعند الجرجانى ٩ ، وعند المسعودى ١٠ ، ويرى الأستاذ نلدكه — وهو حجة فى تاريخ الغساسنة — أن عدد الملوك لا يتجاوز عشرة حكموا مدة لا تتجاوز قرنا وبعض قرن ، بينما يحدد حمزة الأصفهانى لهم ستة قرون ، وتقصى هذه الروايات ليس فيه كبير غناء ما دامت لا توجد آثار تتكلم . والغسانيون عند مؤرخى العرب من عرب الجنوب كالمناذرة ، ولكن العلماء المحدثين لا يزالون يشكون فى هذا ، ويرجحون أنهم من عرب الشمال كما بينا سابقا .

ولا نستطيع أن نحدد بدء قيام هذه الدولة بالضبط بسبب الخلافات التى أشرنا إليها ، وأقصى ما يمكن أن نتخلصه من المراجع العربية : أنه فى الوقت الذى هاجرت فيه بعض القبائل إلى العراق ، سارت فيه قبائل من قضاعة إلى الشام ؛ فنزلوا فى الإقليم المعروف الآن باسم « شرق الأردن » وكانت تسكنه قبائل تعرف بالضجاعمة ، فساكنوهم مدة ، ثم لم تلبث أن هاجرت قبائل أصلها من أزد اليمن ، أقامت مدة فى تهامة فى ماء يسمى غسان ، فعرفوا بأزد غسان. وقبل أزد غسان أن يدفعوا الإتاوة لقيصر الروم ، يجبيها منهم الضجاعمة، الذين كانوا عمالا لقيصر على الشام، ولكن — بعد قليل — قامت حرب بين الضجاعمة والغسانيين ، بسبب الخلاف على الإتاوة وانضم الروم إلى الضجاعمة ، ولكن الغسانيين صمدوا ، فلما رأى ملك الروم صبرهم

وأنهم أقوى من الضجاعمة ، آثرهم عليهم وجعلهم عمالا وبذلك صارت لهم رئاسة العرب فى هذه المنطقة . وتعهد الروم بأن يمدوا الغسانيين بأربعين ألف جندى من جند الروم ، وتعهدت غسان بأن تمد الروم بعشرين ألف مقاتل إذا اعتدى الفرس على الروم ، والظاهر أن الغسانيين — قبل أن يتصلوا بالروم — كانت لهم ملوك ، ولكننا لا نعرف من أخبارهم شيئا .

وتكاد تجمع الروايات التاريخية ، وما ورد فى كتب الأدب على أن جفنة هو جد أسرة الغساسنة ؛ وكان ملكهم يشمل المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهرى العاصى والشريعة (الأرنت والأردن) ، ومن أطراف العراق بالشمال إلى خليج العقبة فى الجنوب .

وسنكتفى بالكلام على ثلاثة من ملوكهم ، هم الحارث بن جبلة ، والمنذر بن الحارث ، وجبلة بن الأيهم .

٨٣ — الحارث الثانى ابن جبلة ٥٢٩ — ٥٦٩ م :

يلقبه مؤرخو العرب بالأعرج ؛ وهو أول شخصية صحيحة فى تاريخ الجفنيين . وكان يعاصر الإمبراطور جستنيان وكسرى أنوشروان والمنذر الثالث ملك الحيرة ، وقد رقاه الإمبراطور إلى رتبة بتركيوس وفيلارك أو ملك ، وهى ثانى رتبة فى الدولة بعد لقب الإمبراطور . والظاهر أنه كان يقصد بذلك أن يقيم منه خصما قويا فى وجه المنذر ملك الحيرة .

وكان جستنيان قد تهادن مع كسرى أنوشران ، حتى يتمكن من تنفيذ أغراضه فى إعادة مجد الدولة الرومانية القديمة بالفتح فى أفريقية وأوربا ، ونجح بلساريوس قائد جستنيان فى حروبه ، فأدرك أنوشروان أنه تورط فى هذه المهادنة فأوحى إلى المنذر الثالث أن يتحرش بالحارث بن جبلة ، فادعى ملك الحيرة أن القبائل العربية النازلة على الطريق الحربية بين دمشق وتدمر خاضعة لسلطانه ، ونازعه الملك الغسانى هذه السلطة . فكان من أمرهما ما بيناه سابقا ، وجر النزاع بين التابعين — إذا صح هذا التعبير — إلى النزاع بين الدولتين الكبيرتين ، فحمل كسرى على سوريا وآسيا الصغرى وكاد أن يفتح القسطنطينية، فانزعج القيصر جستنيان واستنهض قائده

بلساريوس واستنصر بعرب غسان ، فمشى جند الروم بقيادة هذين البطلين فأوغلا فى أرض الجزيرة ، وكأنما أراد بلساريوس أن ينال شرف الانتصار وحده ، فخلف الحارث وراءه ولم يتصل به ، فدارت الدائرة على الروم واضطر القيصر إلى طلب الصلح .

وقد ذكر المؤرخ تيوفانيس أن الحارث زار بلاط جستنيان فى سنة ٥٦٣ م وكان ظهوره بزيه البدوى ذا أثر فى نفوس أتباع الإمبراطور . وقد استطاع الحارث أثناء إقامته فى القسطنطينية أن يظفر بتعيين الأسقف يعقوب البردعى المنوفستى العقيدة أسقفا على عرب الشام وقد عرفت الكنيسة الشامية المنوفستية من ذلك الوقت باسم الكنيسة اليعقوبية .

٨٤ — المنذر بن الحارث :

ويعرف فى المراجع البيزنطية باسم « المنداروس » ذكر الدكتور حسن إبراهيم فى كتابه (تاريخ الإسلام السياسى) نقلا عن أمراء غسان للأستاذ نلدكه : « أنه فى عهد المنذر بن حارث بن جبلة . وقع شىء من الجفاء بين غسان والروم انقطع على أثره وصول المدد ثلاث سنوات ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ، فاضطر الروم إلى استرضاء الأمير الجفنى ، وعقدت محالفة بين إمبراطور الروم وملك الغساسنة . ثم ارتاب فيه الإمبراطور ونفاه إلى القسطنطينية ثم إلى صقلية، ولكن المنذر لم يلبث طويلا فى منفاه فقد سخط على الإمبراطور أبناء المنذر الأربعة ، وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهم الأكبر النعمان فى الصحراء ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضى الدولة ، غير أن القائد البيزنطى تمكن من القبض على النعمان وأخذه أسيراً إلى القسطنطينية سنة ٥٨٣ م . . . وقد تفرقت كلمة العرب فى سوريا بعد أن حمل المنذر أسيراً إلى عاصمة الروم ، وفككت عرى وحدتهم ، فاختارت كل قبيلة منهم أميراً لها . وكان من أثر ذلك أن التحق بعضهم بالفرس ولما كثر التنازع والتطاحن بين القبائل العربية بعد فقد أميرها ، أقام الروم مكان المنذر عاملا . . »

ونستطيع أن نستنتج مما ذكره نولدكه : أن رواية واحدة كانت تمثل على مسرحين : أحدهما فى دمشق والآخر فى الحيرة . فليس عزل النعمان الثالث وتعيين

إياس بن قبيصة الطائى بدله على عرش الحيرة : بمختلف عن أسر المنذر بن الحارث ، وتعيين عامل جديد بدله ، وإن اختلف ممثلو الرواية فى كل حالة .

٨٥ — جبلة بن الأيهم :

كان غزو الفرس للروم والاستيلاء على دمشق وأورشليم (٦١٣ - ٦١٤ م) هو الضربة القاضية على نفوذ الغساسنة .

وقد حدث سنة ٦٢٩ م لما استرد هرقل بلاد الشام من الروم ، أن ظهر أحد الغسانيين وهو جبلة بن الأيهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة ، وقد أتى الإسلام على ملكه بعد سقوط الشام فى أيدى المسلمين .

وقد انضم إلى جانب الروم فى أثناء الفتح الإسلامى للشام ولكنه أسلم على أثر انتصار العرب فى معركة اليرموك سنة ٦٣٦ م فى عهد الخليفة عمر ، « واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته لكرم وفادته ، وأحسن عمر منزلته وأجله بأرفع رتب المهاجرين . ثم ـ على حد تعبير ابن خلدون ـ غلب عليه الشقاء ، ولطم رجلا من بنى فزارة وطىء فضل إزاره وهو يسحبه فى الأرض ، ونابذه إلى عمر بالقصاص . فأخذته العزة بالإثم ، فقال له عمر: لابد أن أقيد منك .. . فهرب إلى قيصر ، ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠ هـ » . وتذكر المراجع أنه ندم على فراره وارتمائه فى أحضان بيزنطة وينسبون إليه فى ذلك شعراً قاله .

والآن وقد أتينا على تاريخ آخر الغساسنة يجمل بنا أن نشير إشارة خفيفة إلى حضارتهم .

٨٦ — حضارة الغساسنة :

لاشك فى أن درجة الثقافة التى وصل إليها الغساسنة جيران البيزنطيين كانت أعلى مما استطاع منافسوهم عرب الحيرة الوصول إليه ، وكانت دولتهم تمتد فى الطرف الشمالى الغربى من بلاد العرب ، إلى الشرق من نهر الأردن ، ابتداء من المنطقة الواقعة على مقربة من بطرة فى الجنوب ، إلى ما يجاور الرصافة فى الشمال الشرقى .

ويبدو أنه فى عهد حكم الغساسنة ، وأثناء الحكم الرومانى السابق له ، قد نمت حضارة عربية ، وتطورت على طوال الحدود الشرقية لسوريا ، وكانت مزيجاً من العناصر العربية والشامية واليونانية ، وكان من مظاهر ذلك ما يشيدونه من المدن والقرى والقصور والقلاع ، التى كانت تعرف بالمسالح ، والتى كانت تكون خط دفاع فى أطراف حوران ، يفصل بينها وبين البادية . ومن أشهر القصور التى بنوها القصر الأبيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى ، وكذلك شيدوا عدة أقواس نصر ، وحمامات عامة ، وقناطر للمياه ، ومسارح وكنائس ، حتى لقد كانت السفوح الشرقية والجنوبية لحوران عامرة بما يقرب من ثلثمائة مدينة وقرية لا نجد قائما فى أيامنا هذه منها إلا بضع خرائب وأنقاض .

وكان ملوك غسان يقتنون كثيراً من الجوارى الروميات ، ويكثر فى قصورهم المغنون من مكيين وبابليين ويونانيين ، والموسيقيون من كلا الجنسين ، وكانوا يسرفون فى شرب الخمر . وإذا صح ما رواه أبو الفرج فى (الأغانى) من أن جبلة كان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب وأوقد له العود الندى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل (يمتاز) هو وأصحابه بها وفى الشتاء بالفراء وما يشبهها ، نقول ـ إذا صح هذا ـ كان دليلا على ما تمتع به الغساسنة من ترف وحضارة . وقد وجد عدد كبير من شعراء العرب فى ملوك غسان أعظم رعاة لهم . وعندما نشب الخلاف بين النابغة الذبيانى والملك الحيرى وجد النابغة فى بلاط غسان خير ملجأ له ، وقد حارب لبيد أحد أصحاب المعلقات فى جانب الغساسنة فى معركة حليمة كما زار بلاطهم . وامتدحهم فى الجاهلية حسان بن ثابت الشاعر المدنى قبل أن يصبح شاعر النبى عليه الصلاة والسلام .

أما ديانة الغساسنة فكانت ـ بحكم جوارهم للروم ـ النصرانية ، ولكنها كانت على المذهب المنوفستى الذى كان شائعاً فى منطقتهم والذى عرف فيما بعد باسم المذهب اليعقوبى نسبة إلى يعقوب البرادعى الرهوى .

أما لغتهم فكانت العربية ، ولكنهم أيضاً اتخذوا لغة الشام الآرامية لغة ثانية

لهم فكان شأنهم فى ذلك شأن كل القبائل العربية التى سكنت أرض الهلال الخصيب كالتدامرة والمناذرة ، أعنى أنهم كانوا مزدوجى اللغة .

ولم تكن عاصمة الغسانيين واحدة كما كانت عاصمة المناذرة الحيرة . وفى مبدأ دولتهم كانت عاصمتهم معسكراً متحركا . ثم اتخذوا لهم فيما بعد عاصمة ثانية فى الجابية وقد ذكر بعض المؤرخين أن عاصمتهم كانت دمشق أو جلق القريبة منها . وقال آخرون البلقاء ، وقال غيرهم تدمر ، وقال بعضهم صفين . ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أنهم أقاموا بجلق فترة غير قصيرة من الزمن . وتقع جلق إلى الجنوب الغربى من دمشق وإلى الشمال من نهر اليرموك .

الباب التاسع

تاريخ كندة

٨٧ — تمهيد :

ذكر الأستاذ نكلسون فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » : أن دولة كندة كانت لتبابعة اليمن ما كان اللخميون لملوك الفرس .

ودولة كندة هذه هى التى كانت تنتظم معظم بلاد نجد بما يلى الحجاز شرقا وتمتد إلى طرف الشام والعراق من ناحية الشمال ، وتمارس نفوذا على قبائل عمان فى الجنوب . ولم تكن دولة على غرار دولتى المناذرة والغساسنة بل كانت عبارة عن اتحاد أو تحالف يجمع عدة قبائل . ولقد بدأ ظهورها فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، واستمرت قائمة أكثر من قرن ونصف قرن .

والكنديون قد يكون أصلهم من عرب الجنوب . والظاهر أن التبابعة لجأوا إليهم ليهيمنوا لهم على الطرق التجارية الشمالية التى كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها . ولم يكن للكنديين مدن كما كان للمناذرة والغساسنة ، ولكن الظاهر أنهم — بعد أن توطد سلطانهم — أصبحوا منافسا خطرا لهاتين الدولتين ، وخاصة دولة المناذرة التى تمكنوا بممالأة الفرس من طرد ملكها المنذر الثالث ، وضمها إلى حلفهم المعظم كما سيأتى .

ولا نجد ذكراً فى النقوش اليمنية للكنديين . ولكن الذى نستخلصه مما كتبه العرب هو : أن الكنديين كانوا يعيشون فى الأصل فى بلاد اليمن ، ثم تفرقوا إلى حضرموت ، وساكنوا الحضرميين فى موضع يعرف بكندة وهو الذى ينسبون إليه . ثم حدث بينهم وبين الحضرميين خلاف وحروب كادت تأتى عليهم ، ثم ضعفت كندة وظهر عجزها عن مواصلة الحرب . فهاجروا إلى الشمال . وتصادف فى ذلك الوقت أن خلافا وقع فى قبيلة بكر التى تسكن شمال نجد فغلب السفهاء فيها على العقلاء

وأ كل القوى الضعيف فلجأ زعماؤها إلى تبع اليمن حسان . وطلبوا إليه أن يولى عليهم ملكا فاختار حجر بن عمرو زعيم الكنديين وكان أخاه من الرضاع أو أخا غير شقيق له ، وكان ذا رأى ووجاهة ، وهو أول ملوك الكنديين فى أغلب الروايات .

٨٨ — حجر بن عمرو الملقب بآكل المرار حوالى ٤٨٠ م :

قدم حجر إلى نجد وكان المناذرة قد ملكوا كثيراً منها ، لاسيما مواطن البكريين فحاربهم واستخلصها منهم ، فأجمع القوم على احترامه ، وما زال كذلك حتى مات ، ويقال إنه لقب بآكل المرار لأنه بلغه أمراً أغضبه فاستشاط غضباً ، وجعل يأكل المرار (وهو نبات مر إذا أكلته الإبل تقلصت مشافرها) .

وبعد موت حجر ولى ابنه عمرو بن حجر مكانه ، ولم يضف إلى المملكة أو الحلف قبائل جديدة ومن أجل ذلك سمى بالمقصور .

٨٩ — الحارث بن عمرو :

ولى بعد أبيه عمرو ، وهو أشجع ملوك كندة . كان معاصراً لقباذ ملك الفرس وكان ملكا كثير المطامع . وفى أيامه فتح الأحباش اليمن ، وأذهبوا دولة التبابعة ، فضعف شأن ملوك كندة لأنهم إنما كانوا يستمدون نفوذهم من اليمن فوجه الحارث التفاته إلى المناذرة ، وما زال يحسدهم على تقربهم من الأكاسرة ، ويترقب الفرص لضم الحيرة لدولته حتى حانت عندما تغير قباذ ملك الفرس على المنذر الثالث وطرده من الحيرة بسبب رفضه اعتناق المزدكية ، فاعتنقها الحارث وظفر من قباذ بتوليته الحيرة بدلا من المنذر كما بينا ذلك آنفاً ، ولقد رحبت قبائل معد وغيرها بملكه على الحيرة وتقربوا إليه بالطاعة ، وطلبوا إليه أن يولى عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما قام بينهم من القتل ، ففرق أولاده فيهم على النحو الآتى :

١ — حجر بن الحارث على أسد وغطفان .

٢ — شرحبيل بن الحارث على بكر بن وائل بأسرها .

٣ — معد يكرب بن الحارث على قيس عيلان بأسرها .

٤ — سلمة بن الحارث على تغلب والنمر بن قاسط .

على أن مقام الحارث فى الحيرة لم يطل فما هو إلا أن مات قباذ سنة ٥٣١ م وآل الملك إلى أنو شروان حتى أعاد المنذر الثالث وطرد الحارث ، ففر بماله وأولاده فتبعتهم خيل المنذر ، ولحقتهم بأرض كلب ؛ فهرب الحارث تاركا ماله وإبله فانتهبها المنذر، وأسر ثمانية وأربعين من بنى آكل المرار من بينهم عمرو ومالك ابنا الحارث فأمر المنذر بهم فقتلوا فى ديار بنى مرين ، وفيهم يقول امرؤ القيس الشاعر الكندى:

ملوك من بنى حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن فى الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنتزع الحواجب والجفونا

أما الحارث فظل فى بنى كلب حتى قتل ، وقيل مات عقب تتبعه ظبياً مدة ثلاثة أيام .

أما أبناؤه فقد ظلوا على ما خلفهم أبوهم عليه . ولكن المنذرالثالث أخذ يسعى بينهم بالوقيعة انتقاما لنفسه منهم ومن أبيهم حتى تحاربوا ، فقتل شرحبيل ملك بكر فى معركة تعرف عند العرب بيوم الكلاب (وهو ماء بين البصرة والكوفة) قتله رجال أخيه سلمة الحاكم على تغلب ، وبلغ أخاه معد يكرب قتله فجزع ، وكذلك أدرك سلمة أخيراً نوايا المنذرالسيئة ، فخرج من تغلب ، والتجأ إلى بكر بن وائل فأذعنت له ، وقالوا لا يملكنا غيرك ، فبعث إليهم المنذر الثالث يدعوهم إلى طاعته فأبوا ، فسار إليهم وكانت بينه وبينهم المعركة المعروفة عند العرب بيوم أوارة الأول الذى انتصر فيه المنذر عليهم ، وأسال دمهم على جبل أوارة ، وأحرق النساء .

وكان طبيعيا بعد قتل الأخوين سلمة وشرحبيل أن يضعف أثر ملوك كندة ويتضعضع نفوذهم ، وأول ماظهر ذلك كان فى خروج بنى أسد على حجر بن الحارث

ونبذهم طاعته ورفضهم دفع الأتاوة إليه ، فحاربهم عليها وأخضعهم ، وأباح أموالهم وحبس أشرافهم . وكانت النتيجة أنهم حقدوا عليه ، واغتنموا فرصة فقتلوه .

٩٠ — امرؤ القيس بن حجر الكندى :

كان حجر قبل موته قد عهد إلى أحد أصحابه أن يدفع بتركته من سلاح وخيل إلى أى واحد من أبنائه الكثر لم يجزع لموته . ونفذ الصديق الوصية فمر على أبناء الحجر الواحد بعد الآخر ، وروى لهم حكاية مقتل حجر ، فكل جزع حتى إذا أتى امرأ القيس وكان ببعض أرض اليمن يلعب النرد مع بعض أصحابه فلم يجزع ، وانتوى الثأر لأبيه على الرغم من أن أباه كان مهملا له فى صباه بسبب قوله الشعر وتشبيبه بالنساء. فأسلم إليه الصديق المال والسلاح ، وأخذ امرؤ القيس يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة أبيه بنى أسد ، فمنهم من كان يمده ، ومنهم من كان يرفض خشية بطش بنى أسد ، وإغضاب المناذرة والفرس . حتى انتهى به الأمر إلى أن يستودع أمواله ودروعه الشاعر اليهودى السموأل الذى كتب له كتابا إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى يطلب إليه فيه أن يتوسط لامرىء القيس عند قيصر الروم ليساعده على الانتقام من قتلة أبيه وبخاصة لأن ملوك الحيرة — وهم عمال الفرس أعداء قيصر — ساعدوهم .

وقبل الحارث ما أشار به السموأل ، وسار امرؤ القيس يقصد قيصر ، ولكنه مات فى الطريق عند أنقرة فى خبر تجد تفصيله فى كتب الأدب ، فارجع إليه .

ولم يبق بعد موت امرىء القيس من ملوك كندة إلا معد يكرب على قيس عيلان وبعض أمراء صغار لهم شبه سيادة على بعض قبائل العرب التى كانت ضمن مملكة كندة قبل تضعضعها . وما زال الأمر كذلك حتى جاء الإسلام فاكتسح هذه الدويلات ، إن صح هذا التعبير ، كما اكتسح دولتى المناذرة والغساسنة فلم نعد نسمع عنها شيئا فى التاريخ .

وليس للكنديين حضارة خاصة لأنهم كما أسلفنا كانوا بدوا ليس لهم مدائن

أو حصون . والشىء المهم فى قيام دولتهم القصيرة العمر هو أنه كان أول محاولة فى داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية لها زعيم واحد . ولم تخلد أو تنجح هذه المحاولة ، لأن التوحيد العام نجح على يد نبى الإسلام محمد عليه الصلاة السلام .

وسينطبق كلامنا عن حال العرب الاجتماعية فى الشمال على الكنديين لأنهم على الرغم من إرجاع معظم المؤرخين أصلهم إلى الجنوب ، لا يختلفون عن عرب الشمال فى كثير أو قليل .

الباب العاشر

تاريخ الحجاز

٩١ — تمهيد :

ليست لدينا معلومات مؤكدة عن تاريخ الحجاز القديم قبل البعثة النبوية ، وكل ما كتبه المؤرخون العرب إنما كتب فى القرن الثامن الميلادى وما تلاه من القرون وقد عمدوا إلى بعض ما أجمله القرآن ، فوسعوه من عندهم معتمدين فيما كتبوا على بعض ماورد فى التوراة ، ومحاولين كما يقول الأستاذ نكلسون : أن يضفوا على تاريخ مكة قبل الإسلام ثوبا إسلاميا . فنظروا إلى مكة قبل الرسول بآلاف السنين فى ضوء كالذى ظهرت فيه بعد الرسول .

وقد يعجب الإنسان إذا عرف أن هذا الجزء الأوسط من جزيرة العرب قضى قرونا متطاولة لانعلم مقدارها ، وهو فى شبه عزلة عن العالم المتمدين بينما جنوب الجزيرة وشمالها قد سجل التاريخ لنا من أخبارها وتمدينها شيئا كثيراً . ولكن جدب الحجاز وجفاف تربته ووعورة المسالك إليه لم يجذب الفاتحين العظام — مثل تحتمس الثالث فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، والإسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد وأغسطس قيصر فى القرن الأول الميلادى ، وملوك الفرس فى إبان عظمة دولتهم — لفتحه ، بل وأرجع بعضهم فاشلا . فكانت هذه العوامل الطبيعية من الأسباب التى أبعدت الحجاز عن الاحتكاك بالدول ، وجعلت نشاطه داخليا ، وأبقت عليه حالة البداوة التى نشأ أهله عليها ، ولم يخرج من هذه البداوة إلا مكة وبعض المدن التى هاجر إليها اليهود ، وخاصة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد والأولى بعده فراراً من اضطهاد حكم الرومان ، كما كان لهجرة أهل اليمن بعد سيل العرم بعض الأثر فى تحويل بعض أهل الحجاز من البداوة إلى الحضارة .

ولقد عالجنا فى الفقرة ٣٦ ما أورده العرب فى نسب العرب العدنانية ، وأبدينا رأينا فى صحة هذه الأنساب ، ثم لخصنا قصة إسماعيل عليه السلام ، وسنعالج فى هذا

الباب التاريخ الأسطورى لمكة وتأسيسها ، حسبما ورد فى كتب العرب ، ثم ما يمكن أن يسمى تاريخاً لها لأن الأمر — من الناحية العلمية — لا يزال تحقيق نظرياته موضع جدل بين العلماء ورهن ما يمكن الكشف عنه من مستندات ووثائق تلقى على الموضوع ضوءاً يجلو غوامضه ومعمياته .

وكان الأستاذ فلبى (فى كتابه عن عصر ما قبل الإسلام الذى صدر أخيراً سنة ١٩٤٧ والذى أشرنا إليه آنفاً) آخر من ناقش أصل العرب وقصة إبراهيم (عليه السلام) مناقشة علمية فى فصل عقده بهذا العنوان ذكر فيه أن الباحثين كشفوا عن ألواح بابلية ذكرها تدل دلالة تامة على أن أسرة من أسرها المالكة عدد ملوكها ثلاثة حكمت قرنا من الزمان وكانوا ساميين موحدين وأنهم استولوا على أسفل بابل حتى طردهم السومريون — وهم وثنيون غير موحدين — ثم ذكر أنه بالموازنة الدقيقة بين نصوص التوراة و نصوص الألواح البابلية وبمقارنة التواريخ فى كليهما (القرن العشرين قبل الميلاد) تأكد لديه أن آخر ملوك هذه الأسرة ليس شخصاً آخر غير إبراهيم نفسه وأن اسمه كما ورد فى الألواح (دمقى ايليشيو) وأن ترجمة الإسم هى (خليل الله) وهو اللقب الذى يطلق فى المراجع الإسلامية على إبراهيم الخليل (عليه السلام) . ثم ذكر أنه بسبب سقوط هذه الأسرة السامية وعقب سقوطها هاجر إبراهيم إلى فلسطين . . . الخ .

وظاهر مما ذكرناه الآن فى هذا الصدد وما ذكرناه من قبل فى مواضع أخرى من هذا الكتاب أن الكشوف العلمية الحديثة تؤيد روايات القرآن باستمرار .

هذا وسنعالج بشىء من الإسهاب فى الفقرات التالية تاريخ الإمارة فى مكة ، ونقفى على أثرها بشىء من تاريخ الإمارة فى المدينة .

٩٢ — إسماعيل وتأسيس مكة :

تقع مكة فى واد منحصر بين الجبال ، تربطه عدة طرق بالشمال وبالجنوب ولا نعلم على وجه التحقيق متى أسست هذه المدينة المقدسة ، ولكن الراجح أن هذا الموضع كان قبل تأسيس مكة محطا لرجال القوافل ، يضربون فيه خيامهم ، سواء فى ذلك

القادمون من اليمن قاصدين فلسطين ، والقادمون من فلسطين قاصدين اليمن ، ويتبادلون فيه متاجرهم ، ويقيمون فيه أياما بسبب ما كان فيه من عيون الماء .

وتنسب الرواية العربية ـ وتؤيدها بعض آى القرآن فى ذلك ـ تأسيس مكة إلى إبراهيم عليه السلام ، ولا يذكر القرآن أكثر من الواقعة مجردة ، أما الرواية العربية فإنها تقول : إن هاجر وهى تجوب الصحراء مع ولدها إسماعيل تصل فى آخر الأمر إلى مكة ، ولما أدركها الظمأ هى وولدها أخذت توسع الخطى بين تلين صغيرين ، هما الصفا والمروة ، بحثا وراء الماء ، وفيما هى توسع بين التلين إذا بإسماعيل الذى تركته يبكى على الأرض ، يضرب الأرض بقدمه فينفجر منها ماء حلو صاف ، ذلك الماء هو بئر زمزم ، فيغرى هذا البئر بعض العمالقة والقبائل اليمانية فتقيم إلى جواره ، ويشب إسماعيل بين هذه القبائل ويتزوج ابنة زعيمهم . وتنفيذاً لبعض الرؤى التى رآها إبراهيم نجده يهم بذبح ابنه على مرتفع من الأرض هناك ، ولكن الله يفتديه بذبح عظيم . وفى زيارة أخرى لإبراهيم نسمع أنه بمعاونة أبيه يقيم بيتا لله ، ويبدأ شعائر الحج الأولى ، ولنفصل الآن هذه القصة معتمدين على ما ورد فى كتب التاريخ العربية وتفاسير القرآن .

٩٣ — نشأة إبراهيم الأولى :

نشأ إبراهيم فى مدينة أور من بلاد الكلدان ، لأب نجار كان ينحت الأصنام ويبيعها لقومه الذين كانوا يعبدونها ، وأدرك إبراهيم أن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، فساوره الشك فى أمرها ، فسأل أباه كيف يعبدها وهى من صنع يده ، وتحدث إلى الناس ، فخشى أبوه بوار تجارته ، وأدرك أنه يريد للكيد للأصنام ، ولم يلبث إبراهيم أن اغتنم غفلة من الناس فكسرها إلا كبيرها ، فحاكموه وحكموا عليه بالتحريق ، وأشعلوا لذلك نيرانا ألقوه فى وسطها ، فأنجاه الله منها ، ورأى أنه لا ينجح فى هداية قومه ، وقد فشلت كافة الوسائل لإقناعهم ، فهاجر إلى فلسطين هو وزوجه سارة التى آمنت به ، ومعه لوط ابن أخيه الذى آمن به أيضا ، وحاول أن يهدى أهل فلسطين إلى عبادة الله ، ولكنه فشل فارتحل إلى مصر وحمله على ذلك ـ فى رواية البعض ـ جدب أصاب فلسطين إذ ذاك .

٩٤ — إبراهيم فى مصر :

دخل إبراهيم ومعه زوجه سارة أرض مصر ، فى القرن العشرين قبل الميلاد ، إبان حكم الهكسوس ، كما يستنتج من تواريخ التوراة ، ومن سياق الأقصوصة التالية ، وكان من شأن ملوك الهكسوس ـ كما تقول القصة ـ أن يأخذوا النساء الجميلات ممن يهبطن أرض مصر ، وكانت سارة كما يقول ابن الأثير « من أحسن النساء وجها ، وكانت لا تعصى إبراهيم شيئا ، ولما وصفت لفرعون أرسل إلى إبراهيم ، فقال من هذه التى معك ، فقال أختى ، خشية أن يقتله الملك ليتخذها زوجا ، فقال له : زينها وأرسلها إلى ، فأمرها إبراهيم بذلك ، فتزينت وأرسلها إليه ، فلما دخلت عليه أهوى بيده إليها . . .

« وكان إبراهيم حين أرسلها قام يصلى ، فلما أهوى إليها أخذ أخذاً شديداً ، فقال ادعى الله ولا أضرك فدعت له فأرسل فأهوى إليها فأخذ أخذاً شديداً ، فقال ادعى الله ولا أضرك فدعت له فأرسل ثم فعل ذلك الثالثة فذكر مثل المرتين فدعى أدنى حجابه وقال له إنك لم تأتنى بإنسان وإنما أتيتنى بشيطان أخرجها واعطها هاجر » . فأقبلت بهاجر الجارية المصرية إلى إبراهيم وأزمع الكل الرحيل .

ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال ولم تلد لإبراهيم فإنها وهبته هاجر ، وقالت خذها لعل الله يرزقك منها ولداً ، فدخل بها فلم تبطىء أن ولدت إسماعيل ، وبعد أن شب إسماعيل وترعرع حملت سارة وولدت له إسحق .

٩٥ — إسماعيل فى مكة :

وكانت إقامة إبراهيم فى الطرف الجنوبى من بلاد فلسطين ، فلما كبر الغلامان إسماعيل وإسحق اختصما ، فغضبت سارة على هاجر ، وقالت : لا تساكنينى فى بلد . فأوحى الله إلى إبراهيم أن يأتى مكة ، وليس بها يومئذ نبت ، فجاء إبراهيم بإسماعيل وأمه هاجر فوضعهما بمكة ، فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم من أمرك أن تتركنا بأرض ليس فيها زرع ولا ماء ولا زاد ولا أنيس ؟ فقال : أمرنى ربى ، قالت : فإنه لن يضيعنا فلما ظمىء إسماعيل جعل يدحض الحجر برجله ، وانطلقت هاجر حتى صعدت الصفا لتنظر هل ترى شيئا ، فلم تر شيئاً . فانحدرت إلى الوادى فسعت حتى أتت المروة

فاستشرفت أن ترى شيئا فلم تر شيئا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ثم جاءت إلى إسماعيل وهو يدحض الأرض بقدميه وقد نبعت العين وهى زمزم فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء حتى لا يضيع فى الرمال (وهى تقول زم زم فسمى لذلك زمزم) .

وكانت جرهم بواد قريب من مكة ، ولزمت الطير الوادى حين رأت الماء ، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادى ، قالوا ما لزمته إلا وفيه ماء ، فجاءوا إلى هاجر ، فقالوا لو شئت فكنا معك فآنسناك والماء ماؤك ، فقالت نعم فكانوا معها حتى شب اسماعيل ، وماتت هاجر ، فتزوج إسماعيل منهم ، ويقول ابن الأثير الذى ننقل عنه هذه الرواية : إنه تعلم العربية منهم هو وأولاده . واستأذن ابراهيم سارة أن يأتى هاجر ، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل ، فقدم وقد ماتت هاجر ، فذهب إلى بيت اسماعيل ، فقال لامرأته : «أين صاحبك» قالت : «ليس هاهنا ذهب يتصيد» وكان اسماعيل يخرج يتصيد ثم يرجع ، قال ابراهيم «هل عندك ضيافة ؟» قالت: «ليس عندى ضيافة وما عندى أحد» . فقال ابراهيم : « إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولى له فليغير عتبة بابه » . وجاء اسماعيل فقال لامرأته : « هل عندك أحد » . قالت : « جاء لى شيخ كذا وكذا » كالمستخفة بشأنه فعرف أنه أباه قال «فما قال لك» قالت : « قال اقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه » فطلقها وتزوج جرهمية أخرى هى بنت مضاض بن عمرو ، فلبث ابراهيم ما شاء الله أن يلبث ، ثم استأذن سارة أن يزور اسماعيل . فأذنت له فجاء حتى انتهى إلى بيت اسماعيل فقال لامرأته : « أين صاحبك ؟ » قالت : « ذهب يتصيد وهو يجيء الآن فانزل رحمك الله » فقال لها : « هل عندك ضيافة » قالت : « نعم » . قال : « فهل عندك خبز أو شعير أو تمر » . قال . فجاءت باللبن واللحم فدعا لها بالبركة فقالت : « انزل حتى أغسل رأسك » ، فلم ينزل فجاءته بالإناء فاغتسل فقال لها : « إذا جاء زوجك فقولى له : قد استقامت عتبة بابك » . فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه . فقال لامرأته : « هل جاءك أحد ؟ » قالت : « نعم شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا فقال لى كذا وكذا وقلت له كذا وكذا . وغسلت رأسه وهو يقرئك السلام . ويقول قد استقامت عتبة بابك » .

هذه القصة نقلناها عن ابن الأثير بتصرف يسير ، وهى لا تختلف فى جوهرها

عما أورده كافة مؤرخى العرب ومعظم المستشرقين ، ولا يعترض إلا بعض هؤلاء الآخرين ، ونخص بالذكر منهم الأستاذ موير الذى ينفى القصة من أساسها ، ويرى أنها بعض الإسرائيليات ابتكرها اليهود قبل الإسلام ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك فى أبوة إبراهيم لهم أجمعين فإن كان إسحق أبا لليهود فإذن كان أخوه إسماعيل أبا للعرب ، فهم إذاً أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود ، وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة . ويستند المؤرخ الانجليزى فى رأيه هذا إلى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين ابراهيم ، لأنها وثنية مغرقة فى الوثنية ، وكان ابراهيم حنيفا مسلما . ويرى الدكتور هيكل أن تعليل الأستاذ موير ليس كافياً لنفى واقعة تاريخية ، وأن وثنية العرب بعد موت ابراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء ابراهيم إلى الحجاز وحين اشترك وإسماعيل فى بناء الكعبة وأنه لا يوجد ما يمنع أن يدعو إبراهيم إلى الوحدانية فلا يستمع العرب لدعائه ، فقد سبق أن دعا إليها فى العراق وفى فلسطين ، فلم ينجح (راجع صفحتى ٨٩ و ٩٠ من كتاب حياة محمد للدكتور هيكل باشا) .

وننتقل من هذه القصة إلى قصة أخرى قام عليها الخلاف بين اليهود والمسلمين ونعنى بها قصة الذبيح .

٦٩ — من الذبيح ؟ إسماعيل أم إسحق ؟ :

تتلخص قصة الذبح هذه فى أن الله تعالى أراد أن يمتحن إبراهيم ، فرأى إبراهيم فى منامه أن الله يأمره أن يذبح ولده فعرض الأمر على الولد ، فأعلن خضوعه لما يأمر به الله ، فأخذ ابراهيم الغلام وألقاه على عنقه وخده وهم بذبحه ، ففداه الله بذبح عظيم (سورة الصافات الآيات من ١٠١ إلى ١١٢) ولم يذكر القرآن أى ابنى إبراهيم كان الذبيح أهو إسماعيل أم إسحق كما أنه لم يذكر الموضع الذى حدثت فيه الحادثة ، أكان ذلك بفلسطين أم بالحجاز ؟ وقد اختلفت من أجل ذلك المؤرخون والمفسرون المسلمون ، فمنهم من قال إن الذبيح هو إسماعيل ، ومنهم من قال إن الذبيح هو إسحق ، فابن مسعود ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن اسحق يقولون : إن

الذبيح هو إسماعيل ، أما ابن عمر وابن عباس والحسن وعبدالله ابن أحمد فيقولون : إنه إسحق . أما التوراة فإنها تنص فى الآيات من ١ إلى ١٤ من الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين على أن الذبيح هو إسحق ، ويرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » مستدلا من القرآن فى سورة الصافات ومن التوراة نفسها فى الآيات السالفة الذكر ، على أن الذبيح هو إسماعيل ، قائلا إن لفظ إسحق الذى ورد فيها بعد قوله (خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق واذهب إلى أرض الموريا الخ .) إنما حشر حشراً فى الآية حرصا من اليهود على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه .

وجمهور المؤرخين المسلمين يعتقد أن الذبح والفداء كانا فوق جبل من جبال مكة أما سياق القصة سواء أكان الذبيح اسماعيل أم إسحق فيرجح أن الذبح والفداء كانا فى فلسطين ، وينكر بعض المستشرقين القصة برمتها ، بينما بعض المؤرخين المسلمين ينسج حولها خيوطا رائعة من خيال مؤثر ، فيزعمون أن الشيطان تمثل رجلا فجاء أم الغلام فقال لها : « أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك » فقالت له : « ذهب به يحتطب لنا من هذا الشعب » قال الشيطان : « والله ما ذهب به إلا ليذبحه » قالت الأم : « كلا » قال الشيطان : « إنه يزعم أن الله أمره بذلك » قالت الأم : « فليطع أمر ربه » ثم كان حديث بين الشيطان والأب والابن ، كان جوابهما عليه كجواب الأم ، فنكص الشيطان على عقبيه خذيان محنقا . ثم يصف ابن الأثير الموقف بين الأب والابن وصفا مؤثراً شعرياً ، فيلقى على لسان الابن أنه قال « يا أبت إن أردت ذبحى فاشدد رباطى لئلا يصيبك من دمى شىء فينقص أجرى فإن الموت شديد واشحذ شفرتك حتى تريحنى ، فإذا أضجعتنى فكبنى على وجهى ، فإنى أخشى إن نظرت فى وجهى أن تدركك رحمة ، فتحول بينك وبين أمر الله ، وإن رأيت أن ترد قميصى إلى أمى فعسى أن يكون أسلى لها عنى فافعل » . فقال إبراهيم : « نعم المعين أنت أى بنى على أمر الله » . فربطه كما أمره ثم حد شفرته وتله للجبين ، ثم أدخل الشفرة لحلقه فقلبها الله لقفاه ، ثم اجتذبها إليه ليفرغ منه فنودى « أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها » . ويرى الدكتور هيكل باشا أن قصة الذبح والفداء هى قصة الإسلام لأمر الله غاية الإسلام والتسليم لقضائه كل التسليم .

ونتقل الآن إلى بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت الذى بمكة .

٩٨ — تاريخ الكعبة :

صحب تأسيس الكعبة أساطير عدة لا تعتمد على سند من تاريخ أو دين وقبل أن نعالج هذه الأساطير يجب أن نذكر هنا قوله تعالى فى سورة آل عمران آيتى ٩٦،٩٨ (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) وقوله تعالى فى سورة البقرة الآية ١٢٧ (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فهذه الآيات وغيرها على الجزم بأن بناء البيت من عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأنهما قصدا ببنائه عبادة الله تعالى ونشر الوحدانية ، ولا يطعن فى ذلك أن التاريخ يروى لنا أن معابد كثيرة أسست قبل هذا المعبد فى مصر أو أشور أو فلسطين ، فإن هذه المعابد إنما أسست فى ظل الوثنية لعبادة آلهة متعددة ولا شك أن المعبد الذى بناه إبراهيم كان أقدم من المعابد التى أسسها نبى الفراعنة أخناتون ببضعة قرون ، وأخناتون فى أرجح الأقوال من الأنبياء والموحدين ، أما الأساطير التى ابتكرها المؤرخون والمفسرون من العرب ، رغبة منهم فى إضفاء قداسة عليها أكثر مما ورد فى القرآن فنحن نلخصها فيما يلى :

١ — أن الكعبة بنيت فى السماء على غرار أنموذج لا يزال موجوداً . يسمى البيت المعمور . وذلك قبل أن تخلق الدنيا بألفى سنة . وأن آدم عليه السلام أقامها على الأرض تحت الموضع الذى يقابل أنموذجها تماما .

٢ — أن الله أمر الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتا على غرار البيت المعمور . وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به . كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

٣ — أن آدم عندما هبط إلى الأرض مع زوجه من الجنة . لم يسمع أصوات الملائكة حول العرش . فأقبل آدم حتى وصل مكة . وساعدته الملائكة فبنى البيت متخذا أحجاره من خمسة جبال هى : جبل طور سيناء ، وطور زيتاء ، ولبنان ، والجودى ، وحراء .

٤ — أن البيت المقدس أغرق فى طوفان نوح وأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه

السلام أن يعيد بناءه وأن إسماعيل ساعد أباه فى البناء فكان يجىء بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى رفع القواعد من البيت .

٥ — أن إبراهيم لما أمره الله ببناء البيت لم يعرف موضعه فبعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وافت مكة ووقفت على موضع البيت فنودى منها يا إبراهيم أن ابن على ظلها لاتزد ولا تنقص .

٦ — أن إبراهيم لما أمر بالبناء أقبل على البراق ومعه السكينة وهى ريح لها رأسان تشبه الحية يتبع أحدهما صاحبه وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوقت السكينة على موضع البيت كتطوق الحية فكنست ما حول البيت عن الأساس .

وتختلف الأقاويل فى أصل الحجر الأسود وقد ذكر ابن الأثير أن إبراهيم قال لإسماعيل : ائتنى بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علما ، فناداه أبو قبيس « جبل بمكة » : إن لك عندى وديعة ، وقيل : بل جبريل أخبره بالحجر الأسود فأخذه ووضعه مكانه . وتذكر بعض الروايات أن هذا الحجر من حجارة الجنة وأنه عندما هبط إلى الأرض كان أبيض كاللبن ثم اسود من خطايا الناس ولا نستطيع أن نجزم بنوع مادة هذا الحجر ، ففريق من العلماء يقول إنه حجر بركانى يشبه الحجر الخفاف ، وآخرون يقولون إنه نيزك بل أكبر من نيزك هبط من السماء .

وبعد أن أتم إبراهيم بناء البيت أذن فى الناس بالحج .

أما بقية تاريخ الكعبة فيتلخص فيما يأتى :

وعندما مات إسماعيل وقعت الكعبة فى يد الجراهمة ، وظلت فى أيديهم زهاء ألف سنة ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى أيدى بنى خزاعة ، الذين أقاموا عليها أكثر من مائتى سنة ، وكثيراً ما كانت تدمر بسبب السيول التى تجتاحها ، ثم أعاد بناءها قصى بن كلاب الذى جعل لها سقفا ، وكانت حتى زمنه مكشوفة لا سقف لها ، وفى خلال هذه القرون الطويلة تطورت العبادة فى الكعبة ، حتى أصبحت موئل الأصنام وعبادتها ، بعد أن كانت بيتا لعبادة الله جل وعلا ، ولا يحدثنا التاريخ المعتمد عن الأدوار التى

مر فيها هذا التطور ، إنما يذكر مؤرخو العرب أن عمرو بن لحى الخزاعى كان أول من أدخل الأصنام إلى بلاد العرب ، وأنه جلب أول صنم إليها وهو هبل من مدينة (هيت) فى العراق ، ومن ذلك الوقت أصبحت الكعبة « بانثيونا » لكل القبائل ، أى مجمعا ومقراً لأصنامها . وكان قصى أول من بنى حول الكعبة بيوتا ، ولم يترك بين البيوت والكعبة إلا قدر المطاف ، وأشرفت قريش على الكعبة بعد قصى فأصابها حريق ، فأعادوا بناءها فى حجم أصغر من حجمها الأصلى وأقاموا بداخل البناء ستة أعمدة ليعتمد عليها السقف ، ثم وضعوا تمثال هبل إلى جدار فى داخل الكعبة ؛ وروى الأزرقى أن صور العذراء والمسيح وإبراهيم وإسماعيل كانت منقوشة على بعض عمد الكعبة .

وقبيل بعثة النبى عليه الصلاة والسلام أصاب الكعبة سيل أوهن جدرانها فهدمها القوم بعد تردد ، ثم أعادوا بناءها ، حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا ، وكادت تشب حرب أهلية بينهم ، لولا أنهم احتكموا إلى أول داخل من باب الصفا فكان محمد (عليه الصلاة السلام) فرأى بحكمته أن يفض النزاع ، بأن وضع الحجر على ثوبه ، ثم كلف أهل القبائل المختلفة برفعه ووضعه فى المكان بيده .

وبعد فتح مكة طهر النبى الكعبة من كل أثر للوثنية ، فحطم الأصنام وطمس الصور ، وأعاد إليها بساطة التوحيد .

وفى أيام يزيد بن معاوية حاصر قائده الحصين بن نمير السكونى مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق فتناثرت حجارتها واشتعلت فيها النيران لأن بناءها إذ ذاك كان مدماكا من حجر ومدماكا من خشب ، ولما مات يزيد فك الحصار عن مكة ، فرأى عبد الله بن الزبير أن يعيد بناء الكعبة ، فهدمها وشرع فى بناءها على قواعد إبراهيم .

وفى أيام عبد الملك بن مروان حاصر الحجاج مكة ، وقتل عبد الله بن الزبير ، واستأذن عبد الملك فى أن يعيد بناء الكعبة ، ويرجعها إلى ما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له .

وأراد هرون الرشيد أن يهدم الكعبة ويردها إلى بناء الزبير ، فنهاه الإمام مالك

عن ذلك ، وقال « لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، ولا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها » فترك الرشيد الكعبة كما هى .

وفى سنة ١٠٤٠ هجرية (١٦٣٠ ميلادية) هطل بمكة مطر عظيم ، ثم ارتفع حتى وصل الكعبة ووهن بناءها ، وأخذت الحجارة تتساقط ، فهلع الناس واضطربوا ، وأرسل والى مصر محمد باشا الألبانى جماعة من المهندسين والمعلمين المصريين ، فهدموا بقية الجدران وابتدأوا يبنونها عمارة جديدة وربطوا الحجر الأسود بسوار من الفضة لأنه كان قد تصدع ولما فرغ القوم من بناء الكعبة كتبوا محضراً أرسلوه إلى مصر فيه شهادة المكيين بحسن عمارة البيت .

وبناء الكعبة القائم الآن ، هو البناء الذى شاركت فيه مصر بالحظ الأوفر وأنفقت ، بعد أن أرسلت جميع ما يلزم من أدوات للعمارة ، ستة عشر ألفاً من الجنيهات لإتمامها .

وهو يبلغ من الارتفاع ١٥ متراً ، وطول جداره الشمالى ٩,٩٢ متراً ، والجنوبى ١٠,٢٥ متراً والشرقى ١١,٨٨ متراً والغربى ١٢,٢٥ متراً ، وفى الجدار الشرقى بابها ويرتفع عن الأرض مقدار مترين ، وعتبته مصفحة بصفائح الفضة ، وكذلك مصراعا الباب . إلا أن صفائحهما الفضية مطلية بالذهب ، ويلاصق جدران الكعبة من الخارج بناء من الرخام يسمى الشاذروان ، ارتفاعه عن الأرض قليل وقد أقيم تقوية للجدران ، وفى الركن الجنوبى الشرقى الحجر الأسود وهو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الأرض متراً ونصف متر ، وعلى مقربة من الكعبة نجد بئر زمزم المشهورة .

والآن وقد استطردنا فأتينا على تاريخ الكعبة ووصفها ، فإنا نرجع بالقارىء إلى حالة مكة بعد بنائها ، وانصراف إبراهيم عليه السلام عنها إلى الشمال .

٩٨ — بنو إسماعيل فى مكة :

بعد أن تم بناء البيت وعاد إبراهيم إلى فلسطين ، أقام إسماعيل فى مكة التى أخذت أفئدة الناس تهوى إليها ، ونخص بالذكر منهم الجراهمة ، الذين كانوا يقيمون إلى جوار مكة قبل أن ينبع الماء فى زمزم ، وظل إسماعيل يدعو الناس إلى عبادة

الله فى مكة وما جاورها حتى مات ، وقام أبناؤه من بعده — إذا تساهلنا فى التعبير — على السلطة الزمانية فى مكة وعلى خدمة البيت . وقد سبق أن قلنا إن إسماعيل تزوج من السيدة فاطمة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، ومن هذه السيدة أنجب أبناءه الاثنى عشر الذين هم أجداد العرب الإسماعيلية ، ولم يلبث أولادهم أن انتشروا فى أنحاء الجزيرة ، وخاصة فى شمالها ، وليست أسماء القبائل التى تنسب إلى إسماعيل إلا أسماء هؤلاء الأولاد أو أحفادهم .

وأشهر أعقاب إسماعيل هو عدنان ، الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد ، والذى يقال إنه تزوج — كجده من قبل — من جرهمية ، ونحن لا نستطيع أن نجزم بصحة ما أورده النسابون فى سلسلة النسب التى تربطه بإسماعيل ، أما أبناء عدنان ، فأنسابهم إلى حد ما مضبوطة ، لا يختلف فيها مؤرخو العرب ، ويعترف بها معظم المستشرقين . ونخص بالذكر منهم نزار بن معد بن عدنان .

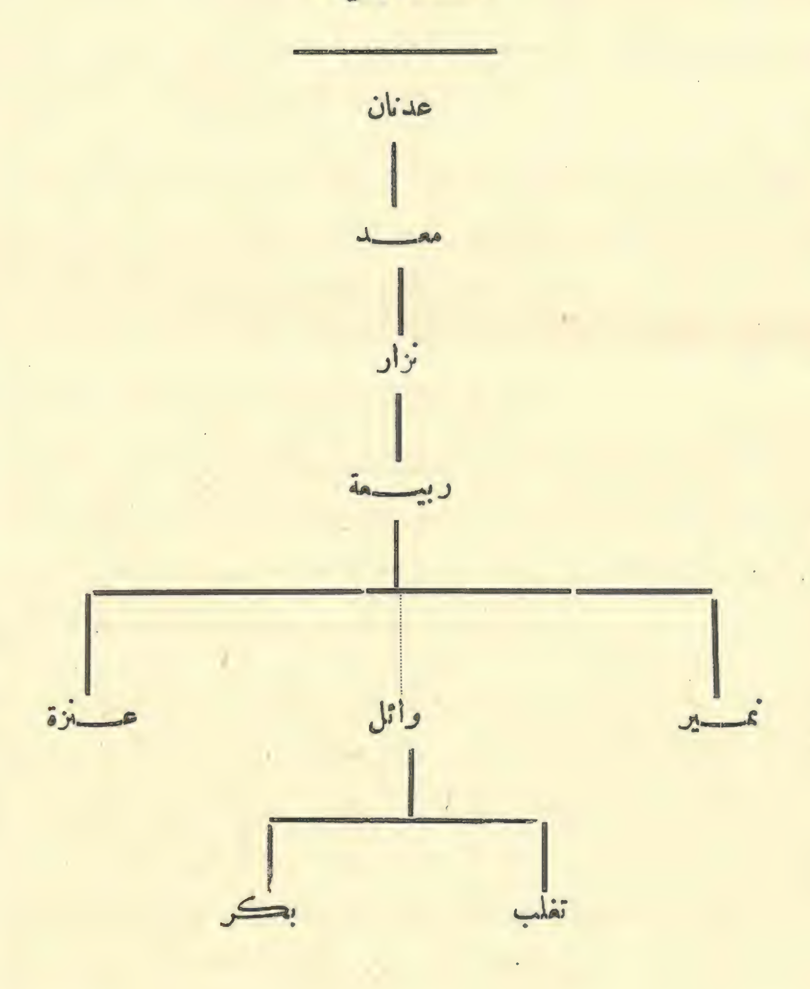
وقد أنجب نزار ولدين ، أحدهما ربيعة والآخر مضر ، ومن أشهر أعقاب ربيعة بكر وتغلب . أما مضر فأشهر أعقابه عبس وذبيان وسليم وهوازن وتميم وهذيل وخزيمة ، ومن بنى خزيمة كنانة وأسد ، وأشهر بنى كنانة فهر أو قريش ، وهى القبيلة التى ستشغل أكبر حيز من كلامنا فى هذا الباب .

وتاريخ بنى إسماعيل فى هذه الفترة الطويلة من الزمن ، غامض غموضا شديداً ، ولا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون المتطاولة ، ولا تبزغ شمسهم - مشبحة بالغيوم - فوق أفق التاريخ الحقيق إلا من عهد قصى ، فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، على أن هذا لا يمنعنا من أن نذكر بناءاً على ما رواه مؤرخو العرب ، أن الذين قاموا على الحكومة والبيت فى مكة بعد أولاد إسماعيل مباشرة هم الجراهمة أخوالهم ، ومن بعدهم الخزاعيون .

ونثبت فى كل من الجدولين الآتيين سلالة ربيعة ومضر ، كما استخلصت من كتب الأنساب . مع ملاحظة أن الخط المنقط يدل على إهمال حلقة أو أكثر من سلسلة النسب .

١

سلالة ربيعة



٢

سلالة مضر

- عدنان
  - معـــد
    - نزار
      - مضر
        - هذيل
        - خزيمة
          - كنانة
            - فهر (قريش)
          - أسد
        - تميم
        - ضبة
        - قيس عيلان
          - هوازن
          - سليم
          - غطفان
            - ذبيان
            - عبس

٩٩ — الجراهمة فى مكة :

لما ضعفت قبضة بنى إسماعيل فى مكة ، نحاهم أخوالهم الجراهمة ، الذين آثروا المقام فى مكة ، بينما هاجر معظم بنى إسماعيل ، وقد احتفظ الجراهمة بسدانة البيت ، ولقبوا أنفسهم بالملوك ، وممن يذكرهم مؤرخو العرب من الجراهمة ، مضاض الجرهمى الأصغر الذى نازعه بعض أهل مكة السلطان فانتصر عليهم ، ولا يذكر المؤرخون شيئاً جديراً بالذكر إلا أن جرهما بغت بمكة واستحلوا حرمة البيت ، وظلموا من دخل مكة من الحجاج وغيرهم ، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها ، وظهر فيهم الفسق والفساد حتى كانوا يأتون الفحشاء فى جوف الكعبة ، وما زال أمرهم يضعف حتى تمكنت خزاعة من التغلب عليهم ، والاستيلاء على مكة .

وقبل أن يبرح آخر ملوكهم — وهو عمرو بن الحارث بن مضاض — مكة يقال إنه رمى فى بئر زمزم كل تحفه وذخائره ، ومن بينها غزالتان من الذهب وسيوف ودروع سنعود إلى الكلام عنها فى الفقرات التالية ، كما تذكر بعض الروايات أنه دفن الحجر الأسود أيضا ، ثم طم البئر على ما دفن .

وتذكر بعض كتب الأدب والتاريخ أشعاراً يتجلى فيها حزن الجراهمة على ما فقدوا من ملك وجاه ، وأغلب الظن أنها موضوعة .

أما أين ذهب الجراهمة بعد طردهم من مكة فذلك ما لا نعرفه ، وإن كان بعض المؤرخين يذكر أنهم انصرفوا إلى اليمن وهذا ما لا نستطيع أن نجزم به .

١٠٠ — الخزاعيون فى مكة:

فى القرن الثانى الميلادى أخذت عدة قبائل من القبائل اليمانية تهجر بلادها إلى الشمال بعد تصدع سد مأرب ، وكان معظم هذه القبائل يقصد المدينة والشام والحيرة ولكن بنى حارثة بن عمرو ، وهم خزاعة تخلفوا فى مكة ، وآثروا المقام فيها ، وهم الذين استطاعوا أن يجلوا الجراهمة عنها فى القرن الثالث الميلادى ، وقد ظلوا سادة مكة زهاء مائتى سنة ، لهم مايشبه السلطة الزمنية ، وأهم الوظائف الدينية ، إذ لم يتركوا لأهل مكة من هذه الوظائف إلا أصغرها ، وتذكر بعض الكتب أن خزاعة لم تخرج جرهما من مكة منفردة ، بل تولت هذا الأمر معها كنانة . ويذكر لنا المؤرخون

من الخزاعيين عمرو بن لحى ، الذى يقال إنه أول من أدخل عبادة الأصنام ، ولقد ذكر ابن الكلبى فى كتاب الأصنام « أنه مرض مرضا شديداً فقيل له إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برئت ، فأتاها فاستحم بها فبرىء ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسق بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة » وقد سبق أن قلنا إن الصنم الذى حمله هو هبل .

وآخر من ولى من خزاعة هو حليل الذى جعل ولاية البيت إلى ابنته حبى ، فقالت : إنها لاتقدر على فتح الباب وإغلاقه ، فجعل أبوها الفتح والإغلاق إلى رجل من خزاعة يقوم لها اسمه أبو غبشان ، فكانت له سدانة الكعبة قبل قريش ، فاجتمع مع قصى فى شرب بالطائف ، فأسكره قصى ثم اشترى مفاتيح البيت الحرام منه بزق خمر ، وأشهد عليه ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار وطيره إلى مكة ، فلما أفاق أبوغبشان ندم على المبيع ، فضرب به المثل فى الحمق والندم وخسارة الصفقة ، فقالوا : « أخسر من صفقة أبى غبشان » وتلا ذلك حرب بين خزاعة وقريش ، انتهت بانتصار قريش ، وزوال ملك خزاعة عن مكة كما سنبينه ، وآل أمر البيت إلى قريش ورثة إسماعيل الحقيقيين .

١٠١ — قصى زعيم النهضة القرشية :

تذكر بعض الروايات أن حليلا أوصى لزوج ابنته قصى بحكم مكة وولاية البيت من بعده ، ولكن خزاعة أبت ، وسواء أكانت هذه الرواية أوالرواية السابقة أصح فإن حربا قامت بين قريش وخزاعة ، وقد انضمت كنانة إلى قريش ، وانضم بنو بكر إلى خزاعة ، واستنجد قصى ببعض إخوته لأمه من بنى عذرة فى الشمال ، وظلت الحرب بين الفريقين سجالا حتى تداعى القوم للصلح ، وحكموا بينهم واحد من كنانة فقضى لقصى بولاية الكعبة وحكم مكة ، فأصبح رئيساً كما يقول بعض المستشرقين للجمهورية المكية وزعيما لديانتها .وقبل أن نتكلم عن حكومة قصى وأعماله الإصلاحية نذكر لمحة عن حياته الأول :

كان لكلاب بن مرة القرشى ولدان ، زهرة وزيد ، وكان زيد طفلا عندما مات أبوه ، وسرعان ما تزوجت أمه فاطمة من رجل اسمه ربيعة بن حرام من بنى عذرة

فى حدود الشام ، وأخذت زيداً معها ، فنشأ زيد بعيدا عن موطنه الأصلى ، ومن ذلك سمى قصى (تصغير قاصى) ولما بلغ مبلغ الرجولة وعرف أصله الحقيقى عاد إلى مكة ، حيث كان النفوذ الدينى والمدنى فى أيدى الخزاعيين وملكهم إذ ذاك حليل بن حبشية . وعز على قصى أن يرى الأجانب سادة بنى قومه القرشيين ، الذى تجرى فى عروقهم دماء أبيهم الأكبر إسماعيل ، فصمم على أن ينتزع السلطان له من خزاعة ، وبدأ ينفذ خطته بالتدريج ، فتزوج من حبى ابنة حليل بأمل أن يرث من حميه امتيازاته ، ولكن حليلا قبل موته أوصى بمفاتيح الكعبة لقريبه أبى غبشان فابتدأ قصى يرمى شباكه حول أبى غبشان فأسكره واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر كما بينا ، ولم يرتح الخزاعيون بطبيعة الحال لضياع المفاتيح من أيديهم ، وادعى أبوغبشان أنه رهن المفاتيح ولم يبعها ، وكان قصى يعلم أن هذا الأمر لا يمر بسلام فاتخذ للحرب عدتها من قبل ونال نصراً حاسما كما بينا ، وبذلك أصبح سيد البيت والمدينة وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، ثم بدأ يقوم بأعماله الإصلاحية التى سنشرحها فى الفقرة التالية .

١٠٢ — إصلاحات قصى :

١ — كانت أول خطوة خطاها قصى أن جمع أفراد قريش المبعثرين فى نواحى متعددة إلى وادى مكة ، فأظفره ذلك بلقب « المجمع » وجعل لكل بطن حيا خاصا على مقربة من الكعبة ، وكان الناس قبل ذلك لا يجرءون على البناء بجوار الكعبة مبالغة فى تقديسها . وكانت حجة قصى فى ذلك أن يقيم على مقربة من البيت حماة له ، يتعهدونه بالصيانة ويدفعون عنه الخطر ، ولم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش إلا بمقدار ما يسمح بالطواف ، وقد أنشأت هذه البطون أحياء حصينة حول الكعبة من نواحيها الأربع .

٢ — وابتنى قصى لنفسه قصراً جعل بابه يؤدى إلى الكعبة مباشرة ، وكان هذا القصر يسمى دار الندوة ، فكان قصى يتولى رئاسة هذه الدار ، التى جعل من اختصاصها البت فى كل الشئون العامة من تجارية وحربية وغيرها بعد مناقشتها ، وكان لا يسمح بدخول هذه الدار إلا لمن بلغ عمرهم الأربعين سنة ، إلا إذا كان من سلالة قصى ، أو كان حكيما ومفهوما . وكان القرشيون إذا أزمعوا حرباً يتلقون اللواء

من يد قصى أيضا ، كما كان قصى يعقد رقاعا من القماش الأبيض على أطراف الحراب ويقدمها بنفسه أو يبعثها مع أولاده إلى زعماء قريش ، وقد ظل هذا الإجراء الذى يسمى عقد اللواء منذ أن أنشأه قصى ، إلى آخر أيام الفتوح العربية .

ولم تكن مهمة دار الندوة مقصورة على المسائل العامة التى بيناها ، بل يبت فيها فى المسائل الشخصية أيضاً ، فكان لا يتزوج رجل ولا امرأة إلا فى تلك الدار ، ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها ، فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده ، وكانوا يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم .

٣ — وقد نجح قصى فى إثارة عاطفة الكرم والضيافة فيهم ؛ وأخبرهم قائلا : أن الحاج ضيف الله وهم أحق الضيف بالكرامة ؛ فحمل الناس على دفع ضريبة سنوية تسمى الرفادة ؛ كان يقصد بها المعاونة على إطعام الحجاج الفقراء وغيرهم ممن يهبطون مكة فى أيام منى ، فجرى الأمر على ذلك فى الجاهلية والإسلام ، وهو الطعام الذى يصنعه الخلفاء والسلاطين كل عام بمنى .

ورئاسة قصى لدار الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة ، تقابل فى الاصطلاح الحديث رئاسة السلطات التشريعة والحربية والمالية ؛ مع شىء من التساهل .

٤ — وكان قصى يهيمن إلى جوار ذلك على ما يعرف بالسقاية ، والمقصود بالسقاية تدبير الماء وحمله من آبار مكة المجاورة بالمزاود والقرب ، ووضعه فى أحواض لسقاية الحجاج ، ومازال ذلك الشأن حتى أعيد حفر زمزم ، وفى بعض الأحيان كان يحلى ذلك الماء بشىء من التمر أو الزبيب .

٥ — كذلك كانت لقصى الحجابة أو السدانة . ويقصد بها حفظ مفاتيح الكعبة لا يفتحها إلا هو ، ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه ، وبذلك كانت لقصى السلطة الروحية أيضا إلى جوار السلطات السالفة الذكر .

وخلاصة القول أن قصيا جمع فى شخصه كل الوظائف الرئيسية . دينية كانت أم مدنية (سياسية) فكان — مع شىء من التجاوز — ملك بلاد العرب ورئيسها الدينى الأعلى . وقد أضفى نفوذه هذا على قبيلة قريش مجداً وجاهاً عظيمين . ومنذ أيام قصى وقريش تتمتع بمركز ممتاز بين بقية أعقاب إسماعيل .

ومات قصى حوالى سنة ١٨٠ ميلادية ، بعد أن عمر أكثر من ثمانين سنة ، وترك من الأبناء عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى .

١٠٣ — الحالة بعد قصى :

وقبل أن يدركه الموت أقام أكبر أبنائه عبد الدار خليفة له ، وبعد أن مات تمتع عبد الدار بما كان يتمتع به أبوه من قبل ، دون أن ينازعه فى ذلك أحد من قريش . ولما مات عبد الدار تولى أبناؤه الوظائف من بعده ، ثم تولى أحفاده من بعدهم ، ولكن قام بين هؤلاء الأحفاد نزاع ، واحتدمت بينهم وبين بنى عبد مناف الخصومة ، وانقسمت بطون قريش وحلفاؤهم إلى معسكرين : معسكر يعاضد بنى عبد الدار ، وآخر يعاضد بنى عبد مناف . وعقد كل فريق حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا . وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ووضعوها عند الكعبة ، وتحالفوا وجعلوا أيديهم فيها ، فسمى حلفهم حلف المطيبين ، وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم وتحالفوا فسموا الأحلاف . ثم تعبأ الفريقان للقتال . وكان زعيم بنى عبد الدار ابنه عبد شمس أكبرهم ، ثم تداعى الفريقان للصلح على أن تكون :

١ — السقاية والرفادة لعبد شمس بن عبد مناف .

٢ — وأن تظل الحجابة والندوة واللواء فى أيدى بنى عبد الدار .

ولما كان عبد شمس فقيرا ذا عيلة ، وكان فوق ذلك كثير الأسفار ، فإنه تنازل عن السقاية والرفادة لأخيه هاشم الذى كان موسرا ، وكان يستطيع الاضطلاع بهما لما يكلفان من مال .

ونلاحظ فى التقسيم السالف الذكر أن ما أفاده بنو عبد مناف أكسبهم ذكرا ومجدا خارج قريش ، فى حين أن ما أفاده بنو عبد الدار أكسبهم نفوذا وسلطانا فى مكة نفسها .

١٠٤ — ازدهار مكة فى عهد هاشم بن عبد مناف :

ولد هاشم بن عبد مناف فى سنة ٤٦٤ . وقد قلنا إن منصبى الرفادة والسقاية آلا

إليه بعد تنازل أخيه عبد شمس ، وكان هاشم غنيا أصاب ماله — شأن السواد الأعظم من المكيين — من التجارة ، وقد استعان على القيام بمنصبيه بما كان يخرج عنه من ماله الكثير ، مضافا إليه ماكان يجمعه من الضرائب التى سبق أن فرضها على القرشيين لإطعام الحجاج وضيافتهم ، ولم يقتصر هاشم على إطعام الفقراء من الحجاج فحسب ، بل كان يطعم الحجاج جميعا فى مواسم الحج ، حتى يصدر عن مكة ، كما أنه أمر بحياض من أدم فجعلها فى موضع زمزم . وفى الطريق إلى عرفات ، ثم يسقى فيها من الآبار المجاورة لمكة .

وكان توزيع الطعام يبدأ من اليوم الذى يتحرك فيه الحجاج إلى منى وعرفات ، ويستمر إلى أن يتفرقوا إلى بلادهم ، وكان لهم خلال هذه المدة — وهى تتراوح بين خمسة أو ستة أيام — الثريد واللحم والخبز والزبد والشعير والتمر ، ويقال إن أمية ابن أخيه حسده على رياسته وإطعامه ، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش ، وتنافر هو وهاشم ، وانتهى الأمر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين ، فكان ذلك أول خلاف بين هاشم وأمية .

وهاشم هو أول من نظم لمكة رحلتى الشتاء والصيف ، الأولى إلى اليمن والثانية إلى الشام .

وأكبر مفخرة لهاشم ، هو إطعامه أهل مكة جميعا فى سنة أصابهم فيها قحط ، إذ جلب إليهم من الشام قافلة محملة بالدقيق ، ونحر الإبل وأطعمهم من جوع .

وقد ازدهرت الحياة فى مكة فى عهده ازدهارا كبيرا ، وأصبحت تعج بالتجار من الشمال والجنوب ، حتى لقد سماها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب (فينسيا) ، وذكر المستشرق « أوليرى » فى كتابه « بلاد العرب قبل الإسلام » ما خلاصته « أصبحت مكة مركزا للصيرفة ، يمكن أن يدفع فيه التجار أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة ، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك ، كذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر ، واستطاعت مكة أن تحتكر النقل فى الطريق الذى يصل ما بين مكة والشمال ، وتتقاضى على ذلك أجوراً لا تقل عن أثمان المتاجر التى تحملها ، وكان للدول المجاورة بيزنطة وفارس ، ممثلين فى

قلب مكة نفسها (ذكر ذلك الواقدى وأيده الأستاذ لامنس) وملأت الأعمال التجارية فراغ كل المكيين ، حق لم يكن من أهل مكة من كان يرى أن ينفق وقتا فى القيام بأعمال الشرطة والجيش ، ومن أجل ذلك كانوا يستأجرون جندا مرتزقة — من أفريقية هم الأحباش — للقيام بحراستهم . ولكثرة ما كانت تعج به مكة من أفراد من أمم مختلفة اصطبغت بصبغة دولية ، ودوليتها هذه تفسر لنا — إلى حد كبير — مادخل لغة قريش من ألفاظ رومية أو فارسية أو حبشية أو غيرها .

وبفضل هذا الازدهار والغنى ، استطاع بنو عبد مناف أن يعقدوا معاهدات ومحالفات مع جيرانهم ، فلقد روى أن هاشما نفسه عقد مع البيزنطيين وأمراء غسان معاهدة ، وأن امبراطور الدولة البيزنطية أعطى قريشا — فى شخص هاشم — حق التجوال فى سوريا فى أمن وطمأنينة .

وكذلك تمكن عبد شمس من أن يعقد معاهدة تجارية مع نجاشى الحبشة ، كما دخل نوفل والمطلب فى محالفة مع ملك فارس ، سمح لهما فيها ولتجار مكة بالتجول فى العراق وفارس ، وتمت كذلك محالفة مع ملوك حمير تعهدوا فيها بتشجيع المتاجر القرشية فى اليمن .

وفى ظل هذا الرخاء والازدهار توطد نفوذ هاشم فى مكة ، فلم يجرؤ على منافسته أحد ، إلا ما كان من أمر أمية بن عبد شمس الذى يناه ، والذى خرج منه هاشم منتصراً وأكثر نفوذاً .

وتقدمت السن بهاشم ، وبينما هو فى إحدى رحلاته إلى الشام ، إذ عرج على المدينة مع جماعة من قريش ، فاسترعت نظره امرأة جميلة ، تشرف على قوم يتجرون لها ، فأعجب بها هاشم ، ولما عرف أنها غير متزوجة خطبها لنفسه ، فقبلت على أن تكون عصمتها بيدها — تلك هى السيدة سلمى بنت عامر الخزرجية — وقد صحبت هاشما إلى مكة ، ثم عادت إلى يثرب ، حيث ولدت له غلاما سمته شيبة ظل معها فى يثرب . .

١٠٥ — عبد المطلب بن هاشم :

وخرج هاشم فى رحلة تجارية إلى غزة بعد ذلك ببضع سنين ، حوالى سنة ٥١٠م

فمات فى غزة ولم ينجب غير ابنه هذا ، فانتقل منصبا الرفادة والسقاية إلى أخيه المطلب الذى كانت قريش تسميه الفيض لسماحته وكرمه وتذكر المطلب يوما شيبة ابن أخيه هاشم ، فانصرف إلى المدينة لإحضاره ، ولما عاد إلى المدينة — وقد أردف الغلام وراءه — حسبه الناس فى مكة عبداً اشتراه المطلب ، فصاحوا : هذا عبد المطلب ، فقال لهم المطلب : هذا ابن أخى هاشم . ومن ذلك الوقت غلب اسم عبد المطلب على شيبة .

ولما بلغ عبد المطلب أشده أقام على ما كان لأبيه ، وفى أثناء رحلة المطلب إلى اليمن مات فيها حوالى سنة (٥٢٠ م) فخلفه على المناصب عبد المطلب ، ولكن عمه نوفل أبى أن يقيمه على حكومة مكة ، ووضع يده على أموال هاشم ، ولجأ عبد المطلب إلى أهل مكة ، فرفضوا أن يدخلوا بين العم وابن أخيه ، فكتب بعد ذلك إلى أخواله بنى النجار فى المدينة ، فجاء لنصرته منهم ثمانون فارسا خرج عبد المطلب لاستقبالهم ودعوتهم إلى بيته ، ولكن كبيرهم رفض أن ينزل عن فرسه حتى يرد نوفل الحق لعبد المطلب ، وأمام التهديد اضطر نوفل إل رد مال عبد المطلب إليه ، وقام عبد المطلب فى مناصب هاشم له السقاية والرفادة ، ولكنه كان يلقى عنتا فى السقاية ، إذ كان الماء يجلب إلى الحياض من آبار مبعثرة حول مكة ، ولم يكن لعبد المطلب ولد إلا الحارث.

١٠٦ — حفر عبد المطلب لزمزم :

ولكى يسهل عبد المطلب أمر السقاية ظل يحفر فى أرض الحرم ، عله يحصل على موضع زمزم ، التى طمها الجراهمة كما بينا ، حتى اهتدى إلى مكانها بين وثنى اساف ونائلة ، فأخذ يحفر مستعينا بولده الحارث حتى نبع الماء ، وظهرت غزالتا الذهب والأسياف والدروع . التى دفنها الملك الجرهمى قبل ذلك بثلاثة قرون ، وحسدت قريش عبد المطلب ، فطلبت نصيبها من هذا الكنز ، مدعية أن البئر لها ، لأنها من سلالة إسماعيل ، ولم يكن عبد المطلب من القوة بحيث يمنع نفسه من قريش ، فقبل الاحتكام إلى صاحب القداح عند هبل فى جوف الكعبة ، وجاءت الغزالتان من نصيب عبد المطلب ، ولم تخرج القداح لقريش شيئاً ، فرضخت قريش لحكم هبل ، وضرب عبد المطلب غزالتى الذهب ألواحاً حلى بها باب الكعبة ، وعلق الأسياف على الباب ، ويسر ماء زمزم لعبد المطلب سقاية الحجاج ، وتصاعدت سمعة عبد المطلب

وازداد نفوذه ، ونذر عبد المطلب : لئن ولد عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه من مثل ما لقى حين حفر زمزم ، لينحرن أحدهم عند باب الكعبة ، وكرت الأعوام ، وألفى عبد المطلب حوله عشرة بنين أشداء ، فتذكر نذره ودعى الأبناء إلى الوفاء بالنذر فأطاعوا ، فاقتادهم إلى صاحب القداح عند هبل ، حيث كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قدح .

١٠٧ — افتداء عبد الله بمائة من الإبل :

وضرب صاحب القداح قداحه ، ليختار من بينهم الآلهة هبل من بينهم من ينحره ابوه فخرج القدح على عبد الله ، وكان أصغر أبناء عبد المطلب وأحبهم إليه واقتاد عبد المطلب ابنه الذى اختاره الإله لينحره بين صنمى أساف ونائله ، فبكت بنات عبد المطلب وتعلقن بأخيهن ، وقامت قريش كلها تطلب إلى عبد المطلب ألا يفعل ، وهنا سأل عبد المطلب ما عساه يفعل ليرضى الإله . قال ابن الأثير : « فقال له المغيرة المخزومى : لا تذبحه حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه . وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها ، فان أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بمالك وله فيه خراج قبلته. وانطلقوا إليها وهى بخيبر ، فقص عليها عبد المطلب خبره ، فقالت ارجعوا اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ، فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت : نعم . قد جاءنى الخبر ، فكم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل . قالت : ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشرا من الإبل ، واضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فخرجوا حتى أتوا مكة ، فلما أجمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، فخرجت القداح على عبد الله ، فما برحوا يزيدون عشرا وتخرج القداح على عبد الله ، حتى بلغت الإبل مائة ، ثم ضربوا فخرجت القداح على الإبل ، فقال من حضر : قد رضى ربك . وقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا ثلاثا فخرجت القداح على الإبل فنحرت ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع » .

تلك هى قصة الفداء ذكرتها كل كتب السيرة ، ولكنها لم تبين لنا إن كان

عبدالمطلب وقد دفع الإبل المائة من ماله أم ساهمت فى دفعها مكة، على أن الذى تجمع عليه هذه الكتب : أن مكانة عبد الله ارتفعت فى مكة بعد هذا الفداء ، وكان عبد الله وسيما جميل الطلعة ، قد ناهز الرابعة والعشرين من عمره ، فتطلعت فتيات مكة إلى الزواج منه ، فرأى عبد المطلب أن يزوجه من آمنة بنت وهب سيد بنى زهرة ، وفى الوقت نفسه خطب عبد المطلب لنفسه إبنة عمها هالة التى أنجبت له ولده حمزة عم النبي وتربه .

وكانت السنة التالية لزواج عبد الله مليئة بالحوادث الجسام ، التى أهمها محاولة أبرهة الأشرم غزو مكة ، وقد روينا بعض أخبار هذه المحاولة عند الكلام على تاريخ الحبشة فى اليمن فى الفقرة ٥٥ من هذا الكتاب ، ولكننا سنعود إليها لنبين أثر فشل هذه الحملة فى مكة أيام عبد المطلب . وقبل الكلام على ذلك نرى أن نشرح نظام الحكم فى الجمهورية المكية فى عصر عبد المطلب الذى لا يقل ازدهاراً عن عصرى كل من هاشم وقصى .

١٠٨ — نظام الحكم فى الجمهورية المكية :

كان عبد المطلب زعيم مكة التى يصفها الأستاذ دومنجهم بأنها كانت جمهورية تجارية بلوتقراطية ، والمقصود من كلمة بلوتقراطية : أنها حكومة الأغنياء ، وكان يشرف عليها الأعضاء البازرون من بنى قصى ، وعندما كشف عبد المطلب بئر زمزم ، واستقر النزاع بخصوص الهيمنة على هذه البئر ، أصبح الإشراف على الحكومة المكية بيد عشرة من الأشراف . وزعت بينهم مناصب هذه الدولة . وكانت هذه المناصب وراثية فى أكبر أفراد البيت ، وهذه المناصب هى :

١ — الحجابة أو السدانة : والمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة ، وكانت وظيفة دينية هامة ، وضعت فى يد بنى عبد الدار ، ولما أسلمت مكة بعد الفتح ظلت السدانة فى يد عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار .

٢ — السقاية : ويقصد بها الإشراف على بئر زمزم المقدسة ، وسقاية الحجاج ، وهذه وضعت فى بيت هاشم ؛ وكانت فى يد العباس بن عبد المطلب فى وقت فتح مكة .

٣ — الديات : وتسمى الأشناق ، وهى من الوظائف الهامة ، وكان صاحبها إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه ، وكانت الديات فى يد بنى تيم بن مرة ، وعند ظهور النبى كان يقوم عليها عبد الله بن أبى قحافة (أبو بكر الصديق) .

٤ — السفارة : وكان صاحبها ذا حق مطلق فى البت فى شئون الصلح ، بعد الحرب أو الخلافات التى تقوم بين قريش والقبائل الأخرى ، أو بينهم وبين الأجانب ، وكان يقوم على هذا المنصب عمر بن الخطاب .

٥ — اللواء : وكان صاحبه يعتبر كبير القواد ، ويسير أمام الركب فى أسفارهم للقتال أو التجارة ، وكان اللواء فى بنى أمية وصاحبه منهم فى أول الإسلام أبو سفيان ابن حرب بن معاوية .

٦ — الرفادة : وهى الإشراف على الضريبة التى تخصص لإطعام الفقراء ، وكانت قريش تخرج مالا فى كل موسم إلى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاماً لفقراء الحجاج مقيمين أو مسافرين ، لأن الدولة كانت تعتبرهم ضيف الله ، وكانت الرفادة لعبد المطلب ، ثم نقلت إلى أبى طالب ، ونقلت بعد ذلك إلى بنى نوفل بن عبد مناف ، وفى عهد الرسول كان القائم عليها الحارث بن عمرو .

٧ — الندوة ورئيس دار الندوة : يعتبر رئيس الجمعية الوطنية وكبير مستشارى الدولة . لا تصدر قريش عن أمر إلا بموافقته وكان الأسود من بنى عبد العزى بن قصى هو القائم على هذا المنصب فى أيام الرسول .

٨ — الخيمة : ويقصد بها حراسة قاعة المجلس ، وكان هذا المنصب يبيح لصاحبه الحق فى دعوة الجمعية ، وحتى حق حشد الجنود وكان يتولاها خالد بن الوليد من بنى مخزوم بن مرة .

٩ — الخازنة أو إدارة الأموال العامة : وكانت فى بنى حسن بن كعب ، ويقوم عليها الحارث بن قيس .

١٠ — الأزلام (جمع زلم) وهى التى يشرف صاحبها على السهام ، والعرب يستقسمون بها للاستخارة لمعرفة رأى الآلهة والآلهات ، وكان القائم عليها صفوان أخا أبى سفيان بن أمية .

وكان العرف المقرر يقضى بأن أكبر أصحاب المناصب العشرة سناً ، هو الذى يتولى الرياسة ، ويلقب بسيد القوم ، وكان أسنهم فى أيام النبى هو العباس ابن عبد المطلب .

وعلى الرغم من توزيع الامتياز والسلطان فى الحكومة بين العشرة الذين ذكرناهم آنفاً ، فان عبد المطلب كان يتمتع لمناقبه العالية وصفاته الشخصية بمركز ممتاز لا يتطرق إليه الشك .

وننتقل الآن إلى كلمة أخيرة فى تاريخ عبد المطلب ، تلك هى محاولة أبرهة الحبشى غزو مكة وأثر فشله فى نفوس المكيين .

١٠٩ — أثر الغزو الحبشى فى أهل مكة :

ذكرنا فى الفقرة ٥٥ ما كان من أمر بناء أبرهة حاكم اليمن من قبل النجاشى لكنيسة القليس ، ومحاولته صرف الحجاج إليها بدلا من الكعبة ، ثم ما كان من أمر تدنيسها من جانب بعض المكيين ، واعتزام أبرهة — لأغراض تجارية ودينية — هدم الكعبة ، ثم ما كان من أمر فشل جيشه وعودته إلى صنعاء دون أن يظفر بما أراد ونضيف هنا أن فشل أبرهة لم يكن نتيجة لمقاومة المكيين لأن موقفهم كان سلبياً ، وإنما كان نتيجة لأسباب خارجة عن إرادتهم . فلقد ذكر ابن الأثير وغيره : أن عبد المطلب لما أمر المكيين بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال ، قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   امنعهم أن يخربوا فناكا

وقال أيضاً :

لاهم إن العبد يمـنع رحله ، فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك

ولئن فعلت فإنه أمر تتم به فعالك
أنت الذى إن جاء با غ نرتجيك له فذلك
ولوا ولم يجدوا سوى خزى وتهلكهم هنالك
لم أستمع يوما بأر جس منهم يبغوا قتالك
جروا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـــبتنا فأمر ما بدالك

وسواء أصحت نسبة هذه الأشعار إلى عبد المطلب أم لم تصح ، فان الثابت : أن سهماً واحداً لم يطلقه المكيون فى سبيل الدفاع عن بيتهم المقدس ولكن هذا لم يمنع المكيين بعد هزيمة أبرهة من أن يملأوا العالم العربى افتخاراً بما أصابوا من ظفر ، وأخذت قبائل العرب تنظر إلى قريش نظرة الاحترام والإجلال ، وارتفعت مكانتها فى كل القبائل ، وادعت هى لنفسها مكاناً ممتازاً ، فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولادة البيت ، وقاطنوا مكة ، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا ، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا فهلموا فلنتفق على ائتلاف أننا لا نعظم شيئاً من الحل كما نعظم الحرم ، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون أنها جزء أساسى من دين إبراهيم ، يتحتم على الآخرين القيام به ، وكذلك رفضوا أن يعملوا الجبن والزبد وهم فى ملابس الإحرام ، كما رفضوا أن يدخلوا بيوت الشعر واستبدلوها ببيوت الأدم ، وفرضوا قواعد جديدة على الحجاج والعمار فى سبيل توسيع نفوذهم . فمنعوهم أن يأكلوا فى الحرم طعاما أحضروه من الحل ، وأجبروا هؤلاء أيضاً على الطواف حول الكعبة إما عراة أو فى ملابس يقدمها المتحالفون ، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الحمس (من الحماسة وهى الشدة) .

وكانوا يضمون عدا قريش بنى كنانة وخزاعة وعامر . وخضعت العرب لما اقترضه المكيون عليهم ، وازدادت قداسة الكعبة ، ودانت العرب للمكيين ، لما شاهدوه من هزيمة جيش أبرهة ، ومافتئت قريش تتمتع بهذا النفوذ العظيم زهاء نصف قرن ، وتحمل — حتى النساء — على الخضوع لما فرضوا . قال ابن الأثير : وأما النساء فكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعها مفرجا ، ثم تطوف فيه .

فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً فنسخه ، فأفاض من عرفات ، وطاف الحجاج بالثياب التى معهم من الحل ، وأكلوا من طعام الحل فى الحرم أيام الحج ، وأنزل الله تعالى فى ذلك (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وأنزل الله تعالى فى اللباس والطعام الذى من الحل وتركهم إياه فى الحرم (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا . . . - إلى قوله - لقوم يعلمون) . وقبل أن نختم الكلام على عبد المطلب نشير إلى أمر الأحزاب فى آخر أيامه .

١١٠ — الحزب الهاشمى والحزب الأموى :

بدأ الانقسام فى بيت قصى — كما بينا — بعد موته ، إذ انقسم إلى قسمين : قسم تمثله سلالة ولده عبد الدار ، والقسم الآخر تمثله سلالة ولده عبد مناف .

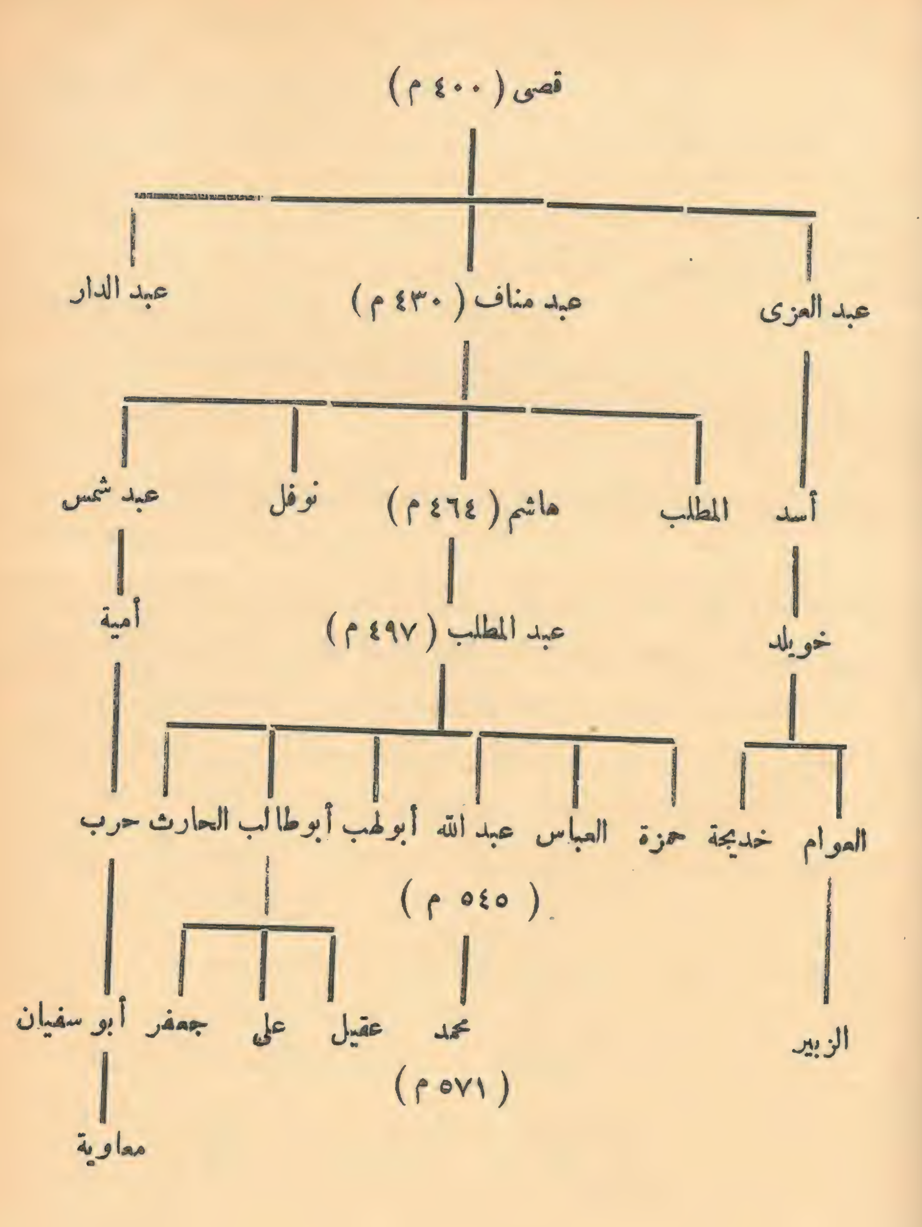
أما بيت عبدالدار فكان يتمتع بكافة المناصب الأصلية فى مبدأ الأمر . ولكنهم — أثناء النزاع مع هاشم — انتزع منهم الكثير من المناصب الأقل أهمية ، ولاشك أن المناصب التى احتفظوا بها لم تكن بدون أهمية ، ولكنها وزعت بين أفراد من الأسرة ، وبذلك ضاعت فائدة تجمعها فى يد واحدة ، ولم تكن هناك محاولة متحدة ترمى إلى الحصول على نفوذ اجتماعى وسياسى هام .

أما سلالة عبد مناف — فإنها احتفظت بالزعامة الحقيقية بمكة ، وانقسم بنو عبد مناف بدورهم إلى حزبين : هما بيت ابنه هاشم وابنه عبد شمس ولقد احتفظ البيت الهاشمى بمنصبى الرفادة والسقاية فكسب بذلك نفوذا ثبتته حسن إدارة المطلب ثم ابن أخيه عبد المطلب من بعده . الذى اعتبرته مكة — كما اعتبرت أباه هاشما من قبل — زعيم شيوخ مكة .

أما فرع أمية بن عبد شمس فإنه كان كثير العلاقات بالبيوت الأخرى ، وأكسبته علاقاته هذه نفوذا . ولكنه كان شديد الغيرة من النفوذ الذى وصل إليه الهاشميون وطالما حاول أن يذلهم وأن يحط من قدر مكانتهم العالية واحتفظ هذا البيت بمنصب هام — هو القيادة فى الحرب التى ظلت منحصرة فيه وأكسبته مجداً عظيما ويجب أن لا ننسى أن الأمويين كانوا أكثر غنى ونجاحا فى المتاجر من الهاشميين

مما حدا بعض المؤرخين إلى القول بأن نفوذ البيت الأموى وسلطانه كان أقوى من نفوذ الهاشميين .

وبلغ التنافس بين البيتين أشده إبان البعثة النبوية . ولكن باعتناق مكة الإسلام اختفت هذه المنازعات إبان الحماس الدينى والفتوح الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين . ولكن لا إلى الأبد — بل لتظهر فى ثوب آخر فى عصر الدولة الأموية ، والآن لكى يسهل على القارىء تتبع هذه العلاقات بين أبناء قصى نضع تحت بصره الجدول الآتى مبينا فيه تواريخ الميلاد — على وجه التقريب — نقلا عن كتاب « حياة محمد » للأستاذ موير .



والآن — وقد فرغنا مما أردنا إيراده عن تاريخ الإمارة بمكة — فإننا نذكر فيما يلي فذلكة صغيرة عن تاريخ المدينة :

١١١ — تاريخ المدينة :

تقع المدينة على سهل مرتفع فى طرف الهضبة العربية من الشمال ، وإلى الغرب منها تنحدر الأرض انحداراً سريعاً إلى ساحل البحر الأحمر ، ويمتد الوادى منها إلى الجنوب حتى يصل إلى مكة التى تقع على خط طولها تقريبا ولما كان البحر الأحمر ينعطف إلى الغرب فى قسمه الشمالى كانت المسافة بين المدينة وبين البحر أطول من المسافة بين مكة والبحر .

والمدينة هى الاسم الذى أطلقه رسول الله عليه الصلاة والسلام عليها ، وكانت قبل هجرته إليها تسمى يثرب ، وقد سبق أن قلنا أن أصل هـذا الاسم غير معروف تماماً . ويطلق على المدينة طيبة أيضاً ، كما يطلق عليها مدينة رسول الله ، وهى تقع على الطريق التجارى من الجنوب إلى الشمال ، ونظراً لأنها تقع فى أخفض موضع من السهل المذكور ، كانت تتجمع إليها المياه المنصبة أيام الشتاء فى برك بالقرب منها فتركد ، ولذلك كانت تتفشى فيها الحميات . والأرض المحيطة بها — فى المجموع — خصبة ، لأن تربتها بركانية وإن كانت تشوبها الأملاح فى بعض النواحى . وهى — بهذا الوصف — كانت تعتبر فى الجاهلية من مراكز الزراعة ، على عكس مكة ، التى كانت تعتبر من مراكز التجارة .

والمدينة أو يثرب من أهم مدن بلاد العرب بلا جدال ، وازدادت أهميتها بعد أن أصبحت مهجر النبى عليه الصلاة والسلام ، وضمت جثمانه الشريف ، ولقد ظلت عاصمة الجمهورية الإسلامية الأولى إلى أن انتقل مقر الملك فى عهد الأمويين إلى دمشق.

وتاريخ المدينة القديم غامض لا يعرف أوله ، وأول ما سمعنا عنها — فى التاريخ الصحيح — أنها كانت واحة سكنها اليهود ، ثم ساكنهم فيها بعض القبائل التى هاجرت من اليمن .

أما مؤرخو العرب فإنهم يقولون ، إن أول من نزل المدينة كان العمالقة ثم نزلها بعدهم اليهود ، ذكر الدكتور ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، نقلا عن الجزء ١١ من الأغانى ما يأتى : « كان ساكنو المدينة — فى أول الدهر قبل بنى إسرائيل — قوما من الأمم الساحقة يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد،

وكانوا أهل غزو وبغى شديد وكان ملك الحجاز منهم ، يقال له الأرقم ينزل بين تيماء وفدك ، وكانوا قد ملئوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع ، وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم، فبعث موسى إلى العماليق جيشا من بنى إسرائيل ، وأمرهم أن يقتلوهم جميعا ولا يستبقوا منهم أحداً ، فقدم الجيش الحجاز ، فأظهرهم الله على العماليق ، فقتلوهم أجمعين إلا أبنا للأرقم ، كان وضيئاً جميلا فضنوا به على القتل ، وقالوا نذهب به إلى موسى فيرى رأيه فيه ، فرجعوا إلى الشام فوجدوا موسى قد توفى ، فقالت لهم بنو إسرائيل : ما صنعتم ، فقالوا : أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير فلان ، كان شابا جميلا فنفسنا به على القتل ، وقلنا نأتى به موسى فيرى فيه رأيه ، فقالوا لهم : هذه معصية ، قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وألا تدخلوا علينا الشام أبداً ، فلما صنعوا ذلك قالوا : ما كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز نرجع إليها فنقيم بها ؟ فرجعوا على حاميتهم فنزلوها، فكان ذلك الجيش أول سكنى اليهود بالمدينة » وقال الدكتور ولفنسون « ويضيف ابن خلدون إلى هذه الرواية أنه يشك فى صحتها ، لأنها لم توجد عند اليهود ، ولأن اليهود لا يعرفون هـذه القصة » ويعود الدكتور ولفنسون — فيذكر أن عناصر إسرائيلية يظن أنها قد هاجرت من ديارها إلى الأقاليم العربية ، فى عصور مختلفة ولأسباب شتى ، غير أنها بادت كما بادت قبائل عربية كثيرة ولم يبق من آثارها سوى اسمها . ثم أخذت جموع كثيرة من اليهود فى القرن الأول والقرن الثانى بعد الميلاد تهاجر إلى الأرجاء العربية عموما ، وإلى الربوع الحجازية بنوع خاص لأسباب يمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ — زيادة عدد اليهود فى فلسطين زيادة مضطردة ، جعلت البلاد تضيق عن أن تسعهم وتنفسح لعملهم فى سبيل الحياة .

٢ — حدث حوالى القرن الأول ق . م . أن هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها . . . فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء مع هذه الأحوال القاسية — أن يلجأ إلى أرض الجزيرة العربية ، التى كانت أحب إليهم من غيرها ، نظراً لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظراً لوجود أقاليم رملية بعيدة ، تعوق سير القوات الرومانية ، وتمنع توغلهم .

٣ — بعد حرب اليهود والرومان (٧٠ م) — التى انتهت بخراب فلسطين

ودمار هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم — قصدت جموع أخرى من اليهود بلاد العرب للزوايا السالفة .

ولم يلبث اليهود الذين نزحوا إلى المدينة أن استفادوا بذكائهم : فاقتنوا الضياع والأموال ، وأصبحت تجارة المدينة بأيديهم ، وتكاثر عدد النازحين منهم إلى المدينة وظهر منهم عدة قبائل ، أشهرها قريظة والنضير ، ثم نزل المدينة بعد ذلك الأوس والخزرج بعد سيل العرم ، واستوطنوها إلى جوار اليهود ، وعاشوا فى ضنك من العيش ، وهوان وإذلال من اليهود ، وكان على اليهود ملك شديد ، استبد بالنازحين فاستجاروا بالتبابعة فى رواية ، وبالغساسنة فى رواية أخرى ، فجاءوا لنصرتهم ؛ فكانت بين الفريقين حرب انتهت بقتل زعماء اليهود وأشرافهم بالخديعة ، وأصبح الأوس والخزرج بعد ذلك أعز أهل المدينة ، وتحالفوا مع اليهود ، ثم دب دبيب الخلاف بين الأوس والخزرج ، وتنازعوا السلطان ، فجرت بينهم الوقائع ، وكانت بينهم حروب طويلة ، أشهرها المعروفة بيوم سمير ويوم السرارة ويوم حاطب ويوم بعاث .

وما زال الخلاف قائماً بينهم ، يستعين فيه بعضهم ببعض قبائل اليهود على بعض ، حتى كان اعتناقهم للإسلام ، وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليهم سنة ٦٢٢ م ، فآخى بينهم ، وتناسوا ما كان بينهم من عداوة وأحقاد كادت أن تأتى عليهم .

ونحن نلخص فى الفقرات التالية أشهر هذه الحروب أو الأيام كما أطلق عليها مؤرخو العرب .

١١٢ — يوم سمير :

سببه : أن رجلا يقال له كعب بن العجلان من بنى ذبيان — نزل على مالك بن العجلان زعيم الخزرج محالفه ، وأقام معه ، فخرج كعب يوما إلى السوق ، فرأى رجلا من غطفان ومعه فرس وهو يقول : « ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب » فقال رجل : فلان الأوسى ، وقال غيره : فلان الخزرجى ، وقال ثالث : فلان اليهودى أفضل أهلها ، وقال رابع : مالك بن العجلان . فدفع الغطفانى الفرس إليه ، فقال كعب : ألم أقل لكم أن حليفى مالكا أفضلكم ، فغضب لذلك رجل من الأوس يقال

له سمير وشتمه وافترقا ، ثم حدث بعد ذلك أن كعبا قصد سوقا لهم بقباء ، فقصده سمير وانتظر حتى خلت السوق فقتل كعبا وأخبر مالك بن العجلان بقتله ، فأرسل إلى آل سمير يطلب قاتله ، فقالوا لا ندرى من قتله وترددت الرسل بينهم ، هو يطلب سميرا وهم ينكرون قتله . ثم عرضوا عليه الدية فقبلها ، وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب ، فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة ، ولج الأمر بينهم حتى آل إلى المحاربة ، فاجتمعوا واقتتلوا قتالا شديداً وافترقوا ، ثم التقوا مرة أخرى واقتتلوا ، حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر يومئذ للأوس ، ثم أرسلت الأوس تطلب أن يحكم بينهم المنذر بن حرام الخزرجى جد حسان بن ثابت الشاعر ، وأجابهم إلى ذلك وحكم المنذر : أن يعطوا كعبا حليف مالك دية الصريح ، ثم يعودوا إلى سنتهم القديمة ، وفرحوا بذلك وحملوا الدية ، وافترقوا وقد تمكنت البغضاء والعداوة فى نفوسهم .

١١٣ — يوم السرارة :

وسببها أن رجلا من بنى عمرو من الأوس ، قتله رجل من بنى الحارث من الخزرج ، فعدا أهل القتيل على القاتل وقتلوه غيلة ، وعرف ذلك أهله ، فكانت حرب بين الفريقين شديدة ، حمل راية الخزرج فيها عبد الله بن سلول ، وراية الأوس حضير بن سماك ، وصبر القوم بعضهم لبعض أربعة أيام ، ثم انصرفت الأوس إلى دورها ، ففخرت الخزرج بذلك .

١١٤ — يوم حاطب :

توالت الحروب بعد يوم السرارة ، حتى إذا مرت مائة سنة من يوم سمير — إذ بحرب تعرف بيوم حاطب وقعت بين الفريقين ، وسببها : أن حاطبا الأوسى — وكان شريفا سيدا فى قومه — أتاه ضيف من بنى ثعلبة ، ثم غدا يوما إلى سوق بنى قينقاع فرآه يزيد الخزرجى ، فقال لرجل من اليهود : لك ردائى إن كسعت هذا الثعلبى فأخذ الرداء وكسعه ، فنادى الثعلبى : يالحاطب كسع ضيفك وفضح ، وعرف حاطب بالأمر ، فجاء وضرب اليهودى بالسيف فقتله ، وعلم يزيد الخزرجى فأسرع خلف حاطب فلم يدركه ، فقتل رجلا من أهله ، فقامت الحرب بين الأوس والخزرج

وسعى بينهما جماعة من فزارة بالصلح . فلم تفلح مساعيهم ، واستمرت الحرب بينهما سجالا ، يوما للأوس ويوما للخزرج ، حتى انتهت بظفر الخزرج : وتجددت الحرب بعد ذلك ، وكان الفريقان يتصالحان على الديات وطال أمر الحرب حتى سئمت الأوس ، فصارت إلى قريش بمكة تطلب محالفتها فأجابت قريش طلب الحلف . ثم تحللت منه فطلبت الأوس إلى بنى قريظة وبنى النضير الحلف على الخزرج فأجابوهم إلى ذلك — ثم عادوا فنقضوا .

١١٥ — يوم بعاث :

وتجدد الحلف بين قريظة وبنى النضير من جهة ، وبين الأوس من جهة أخرى وأشملوها حربا على الخزرج . انضمت فيها إلى الأوس طوائف أخرى ، من اليهود وغيرهم وانضم إلى الخزرج جهينة وتداعى الفريقان إلى القتال فكان بينهما يوم بعاث — وهو ناحية من أعمال قريظة على طريق مكة من المدينة غربا . وكان على الأوس حضير بن سماك (والد أسيد بن حضير) . وعلى الخزرج عمرو بن النعمان ، وكان حضير يحقد على الخزرج أشد الحقد فلما بدأ القتال دارت الدائرة على الأوس ، ففروا نحو نجد ، فعيرهم الخزرج ، فلما سمع حضير تعييرهم — برك وطعن بسنان رمحه فخذه وصاح : والله لا أعود حتى أقتل فإن شئتم يامعشر الأوس أن تسلمونى فافعلوا فعاد الأوس إلى القتال مستبسلين مستيئسين حتى هزموا الخزرج شر هزيمة وأخذوا يحرقون نخلهم ودورهم ، وإن كادوا ليهلكوهم — لولا أن صاح صائح فيهم : ياقوم إن جوارهم خير من جوار الثعالب .فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة والنضير ، وحملت الأوس زعيمها حضيراً مجروحاً فمات ، وكذلك مات عمرو بن النعمان رئيس الخزرج واستعادت اليهود بعد هذا مكانها بيثرب ، وأضحى الأوس والخزرج . أجراء عند اليهود فأدركوا أنهم أخطأوا فى تطاحنهم ، وفكروا فى عاقبة أمرهم ، وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم يجمع شملهم ، وحدث أن نفرا من الخزرج خرجوا إلى مكة فى موسم الحج ، فلقيهم محمد عليه السلام ، فسألهم عن شأنهم ودعاهم إلى الله فعرفوا أنه النبى الذى كانت تواعدهم به اليهود ، فأجابوا دعوته وأسلموا .

وكانت وقعة بعاث هذه آخر الحروب بين الأوس والخزرج — إلى أن جاء الإسلام . وأجمع الفريقان أمرهم على نصرته ، وهاجر إليهم النبى من مكة ، وآخى

بينهم ، كاوادع اليهود ، وعاهدهم بما يدخل شرحه فى تاريخ السيرة النبوية ، فلاحاجة إلى ذكره هنا .

١١٦ — أيام العرب الأخرى :

والآن — وقد أتينا على أهم ما كان بين الأوس والخزرج من حروب — فانا نرى أن نذكر فى هذا الباب أيضا أهم أيام العرب العدنانية فى غير يثرب ونريد أن نذكرهنا أن أيام العرب هذه أو حروبهم — لم تكن حروبا بالمعنى المعروف لدينا الآن ، بل كانت لاتعدو أن تكون غارات — يقصد منها السلب والنهب والأسر دون أن تراق فى معظمها الدماء ، ولقد ذكر الأستاذ نيكلسون فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أن كتابة تاريخ حقيق لهذه الغارات المشهورة أمر يكاد يكون مستحيلا ، وذكر أن السيوطى المؤرخ العربى المعروف كان إذا استعلم من أعرابى عن حادثة من الحوادث التاريخية — لايرتاح حتى يدعمها العربى له بأبيات من الشعر ، ويرى نيكلسون أن الشعر — الذى كان يعتبر فى مبدأ الأمر مؤيدا للحوادث التاريخية — قد انعكس به الأمر ، فأصبح هو النواة التى أخذت تلفق حولها الروايات ، وتخترع بمهارة أو بغير مهارة ما ينسجم مع الأشعار المروية من قصص وأخبار .

على أن هذا لا يعنى أن كل ما روى من أيام العرب لا أصل له ؛ إذ من الثابت المؤكد أن البيئة البدوية كانت لاتخلو من أمثال هذه الحروب والغارات ، بل كان العجيب أنها تخلو منها . وعلى أى حال فإن ما ذكره المؤرخون من أخبار أيام العرب — وإن كان لايتضمن وقائع ثابتة — فإنه يلقى ضوءاً ، ويصف بأمانة كبيرة الطريقة التى كانت تدار بها هذه المنازعات القبلية ، فوق أنها تلقى ضوءا على بعض صفات العرب ومميزاتهم .

ونحن نلخص لك هنا بعضا من أهم هذه الحروب المشهورة فى التاريخ والأدب العربى ، ونخص بالذكر منها حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

١١٧ — حرب البسوس :

هى الحرب التى قتل فيها كليب زعيم بنى تغلب ، وقبل أن نتكلم على سبب

هذه الحرب وأدوارها ، نرى لزاما علينا أن نذكر كلمة صغيرة ، عن مكانة قبيلة تغلب وبكر ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

فى القرن الخامس الميلادى تجمعت عدة قبائل عدنانية تحت راية واحدة واحتكرت المقام فى المنطقة التى تمتد من الخليج الفارسى إلى بادية الشام ، تحت رعاية إحدى الدول الكبرى ، فتدخل فى حوزة الفرس على يد المناذرة أو الروم على يد الغساسنة ، أو حمير على يد كندة .

وكان أكثر خضوعها لدوله حمير باليمن — يؤدون لها الإتاوة كل عام ، وتولى عليها حمير أميرا من أمراء القبائل ، وأشهر من تولى على بدو الشمال — تحت رعاية دولة اليمن — زهيراً بن جناب الكلبى ، فى أواسط القرن الخامس للميلاد ، وكان شجاعا ذا عقل وسداد ، وبسط نفوده على بكر وتغلب من ربيعة . فكان يحكم فيهم ، ويتقاضى الإتاوة أو الخراج منهم ، فى مقابل النجعة والكلأ والمرعى .

وحدث ذات عام أن أمحلت الأرض ، فتأخروا عن الدفع ، فأغلظ عليهم ، فشقوا عصا الطاعة ، وشجعهم على ذلك ما أصاب اليمن فى حروبها مع الحبشة ، وقاد حركة انفصالهم هذه واحد من فرسانهم المشهورين — يسمى كليبا ، من قبيلة تغلب التى كان مقامها فى المنطقة الممتدة من المرتفعات الوسطى إلى بادية الشام ؛ فى شمال بلاد العرب . ونجح كليب فى تكوين حلف من قبيلة تغلب وبكر وغيرها من القبائل انتصر بهم نهائيا على اليمن — وهزموهم ، ولم يدفعوا إليهم أتاوة أو خراجا ، وارتفع بذلك صيت كليب ؛ فملكته قبائل معد عليها وأصبح نفوذه مضرب الأمثال فكان لاتوقد نار مع ناره ، ولا يرد أحد مع إبله ، وكان يحمى مواقع السحاب ، ويقول وحش أرض كذا فى جوارى فلا يصاد .

وكان كليب بن ربيعة هذا متزوجا من بكرية ، تسمى جليلة بنت مرة ، أخت جساس بن مرة — الذى يسمى الحامى الجار ؛ وكان لجساس خالة تسمى البسوس ونزل بالبسوس رجل يسمى سعداً الجرمى ، له ناقة اسمها سراب ، وكانت ترعى مع نوق جساس . وحدث أن كليبا خرج يوما يتعهد الإبل . وكانت إبله وإبل جساس مختلطة ، فنظر إلى سراب فأنكرها ، فقال جساس — وهو معه : هذه ناقة جارنا الجرمى فقال كليب : لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحى . فقال جساس : لا ترعى إبلى

إلا وهذه معها ، فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمى فى ضرعها ، فقال جساس : لئن وضعت سهمك فى ضرعها ، لأضعن سنان رمحى فى لبتك ، ثم تفرقا .

وقال كليب لامرأته : أترين فى العرب رجلا مانعا منى جاره ، فقالت : لا إلا أخى جساسا .

ثم إن كليبا خرج إلى الحمى وجعل يتصفح الإبل ، فرأى ناقة الجرمى ، فرمى ضرعها فولت — ولها رغاء — حتى بركت بفناء صاحبها ، فلما رأى ما بها صرخ : يالذل ، وسمعت البسوس صراخ جارها ، فخرجت إليه ، فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها وصاحت ، فسمعها جساس ، فخرج إليها وقال لها : اسكتى إنى سأقتل غلالا أخل إبل كليب .

وكان لكليب عين يسمع ما يقولون ، فقال : لقد اقتصر من يمينه على غلال . ولم يزل جساس يطلب غرة كليب ، حتى إذا خرج يوما آمنار ركب جساس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليبا فوقف كليب . فقال له جساس : ياكليب الرمح وراءك ، فقال : إن كنت صادقا أقبل إلى من أمامى ، ولم يلتفت إليه فطعنه فأرداه عن فرسه، وطلب كليب شربة ماء فلم يغثه ، ولكنه أمر رجلا كان معه فجعل عليه أحجاراً لئلا تأكله السباع ، وانصرف جساس حتى أتى أباه مرة ، وقال له : طعنت طعنة يجتمع بنووائل غدا لها رقصا ، لقد قتلت كليبا ، فجعل مرة يتهأ للحرب مع قومه ، فشحذوا السيوف وقوموا الرماح . ولما علم قوم كليب بمقتله دفنوه — وقد شقوا الجيوب وخمشوا الخدود وخرجت الأبكار وذوات الخدور والعواتك وقمن للمأتم ، وقلن لأخت كليب : أخرجى جليلة امرأة كليب عنا فإنها أخت قاتلنا ، فخرجت تجر أذيالها وأتت مرة .

وكان لكليب أخ اسمه مهلهل — وهو الفارس الشاعر المشهور — وكان وقت مقتل كليب يشرب مع همام بن مرة أخى جساس ، فلما أفاق مهلهل وعرف بمقتل أخيه ، جز شعره وقصر ثوبه ، وهجر النساء وترك الغزل ، وحرم القمار والشراب، وجمع إليه قومه . وأرسل رجالا منهم إلى مرة والد جساس ، وهو فى نادى قومه . فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناقة وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة، وإنا نعرض

عليكم خلالا أربعا لكم فيها مخرج، ولنا فيها مقنع. إما أن تحيي كليبا، أو تدفع إلينا قاتله جساسا نقتله به، أو أخاه هماما فإنه كفؤ له، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه. فقال لهم مرة «أما إحيائي كليبا فلست قادراً عليه وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ولا أدرى أى بلاد قصد، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره. وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل، فما أتعجل الموت؛ ولكن لكم عندى خصلتان: أما إحداهما، فهؤلاء أبنائى الباقون فخذوا أيهم شئتم بصاحبكم، وأما الأخرى فانى أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر.

فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت، تبذل لنا صغار ولدك وتسومنا اللبن فى دم كليب.

ثم نشبت الحرب بينهم ودامت أربعين سنة. وقال مهلهل عدة قصائد يرثى كليبا فيها ويطلب ثأره.

وكانت أول واقعة فيهم دارت الدائرة فيها لبنى تغلب، ثم التقوا يوم واردات فاقتتلوا قتالا شديداً فظفرت تغلب أيضا، وكثر القتل فى بكر؛ فقتل همام أخو جساس فمر به مهلهل، فلما رآه مقتولا قال: والله ماقتل بعد كليب أعز على منك، وتالله لاتجتمع بكر بعدكما على خير أبدا.

ووقعت بينهما وقعات أخرى كان الظفر فيها لتغلب تطلب جساسا أشد الطلب فقال له أبوه: الحق بأخوالك بالشام فامتنع، فألح عليه أبوه فسيره سيراً فى خمسة نفر، وبلغ الخبر إلى مهلهل، فندب أبا نويرة ومعه ثلاثون رجلا من شجعان أصحابه فساروا مجدين فأدركوا جساسا فقاتلهم، فقتل أبو نويرة وأصحابه، ولم يبق منهم غير رجلين. وجرح جساس جرحا شديدا مات منه، وقتل أصحابه فلم يسلم غير رجلين أيضاً، فعاد كل واحد إلى أهله، فلما سمع مرة بقتل ابنه جساس قال لمهلهل: إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساسا، فاكفف عن الحرب ودع اللجاج والإسراف، وأصلح ذات البين فهو أصلح للحيين وأنكى لعدوهم، فلم يجب إلى ذلك. وكان الحارث بن عباد قد اعتزل الحرب فلم يشهدها، فلما قتل جساس وهمام ابنا مرة

أرسل بجيرا ابنه وكتب معه إلى مهلهل أرسلت ابنى إليك فإما قتلته بأخيك وأصلحت بين الحيين وإما أطلقته وأصلحت ذات البين، فقد مضى من الحيين فى الحروب من كان بقاؤه خير لنا ولكم، فلم يكن من المهلهل إلا أن أخذ بجيراً فقتله، وقال بؤ بشسع نعل كليب، وعرف الحارث الخبر، فأقسم لايصالح تغلبا حتى تكلمه الأرض، وأتوه بفرسه النعامة، وكان أن ولى أمر بكر، وكان أول يوم شهده هو يوم تحلاق اللمم (سمى بذلك لأنه أمر بكراً بحلق رءوسهم حتى يميزهم النساء الذين حملوهم معهم ليقتلوا جرحى تغلب ويعنوا بجرحى بكر) وقد انتصر البكريون فى هذا اليوم، وأسر الحارث مهلهلا وهو لا يعرفه ثم خلى عنه. ثم كان بين القومين أيام أخرى أهمها يوم النقية ويوم الفصيل لاداعى إلى شرحها، ويكفى أن نذكر أنه فى تمام السنة الأربعون لبدء الحرب تدخل المنذر الثالث ملك الحيرة لإنهاء ذلك الصراع.

وهكذا انتهت تلك الحرب التى استمرت أربعين سنة مات فى أثنائها الشيوخ، وشاخ الشبان وشب الولدان، وولدت طبقة من الناس لم تكن فى الحسبان، وكان سببها حادثة تافهة، هى قتل الناقة سراب، التى ضرب العرب بها المثل فقالوا: (أشأم من سراب) كما قالوا: (أشأم من البسوس). ولا تزال أسماء الزعماء من التغلبيين والبكريين تجرى على ألسنة الناس فى البلاد المتكلمة بالعربية.

هذا وإذا صح التقدير فان هذه الحروب تكون قد استمرت من سنة ٤٩٠ إلى ٥٣٠ ميلادية.

ونلخص الآن حربا أخرى. جرت بين فرعين من بنى غطفان، هما عبس وذبيان — تلك هى حرب داحس والغبراء.

١١٨ — حرب داحس والغبراء:

السبب الذى قامت هذه الحرب من أجله بين عبس وذبيان يرجع إلى سوء تصرف قام به الذبيانون فى حفلة سباق أقيمت بين خيول عبس وخيول ذبيان؛ وداحس اسم حصان كان يملكه زعيم من عبس، والغبراء اسم لفرس كان يملكها شيخ ذبيان وخلاصة النزاع أن صاحبى الحصان والفرس اتفقا على أن يجرياهما، وجعلا الرهان مائة ناقة، ويكون منتهى الغاية مائة غلوة، والمضمار أربعين يوما،

ثم أرسلاهما إلى رأس الميدان وكان فى موضع الغاية شعاب كثيرة ؛ فأكمن صاحب الغبراء فتيانا اعترضوا داحس الذى كان سابقا وردوه عن الغاية، حتى برزت عليه الغبراء وقد قام ذلك النزاع فى النصف الثانى من القرن السادس، بعد أن عقد الصلح فى حرب البسوس بفترة قصيرة ، وظل الفريقان تخمد بينهما الحرب وتقوم مدة طويلة استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام . وفى هذه الحرب اشتهر عنترة بن شداد العبسى بجولاته الصادقة ، وقد عاش عنترة فيما بعد بين سنتى ٥٢٥ — ٦١٥ تقريبا ، وهو يعتبر من أعظم أبطال العرب وأشهر شعراء العصر الجاهلى، ولا يخفى أن قبيلتى عبس وذبيان ، كانتا تسكنان فى بلاد العرب ، وكانت تجمع بينهما صلات القربى ، إذ كانا ينتميان — كما تقول الرواية العربية — إلى الجد الأكبر غطفان .

وكنا نريد أن نذكر حرب الفجار، التى وقعت فى الأشهر الحرم فى أواخر القرن السادس الميلادى وما تبعها من حلف الفضول ، ولكننا آثرنا أن نرجىء الكلام عنهما إلى كتابنا الثانى عن تاريخ العرب فى عهد النبى ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شهد كلا من الحرب والحلف فى شبابه قبل البعثة فالحرب — وإن كانت من تاريخ ما قبل الإسلام — إلا أنها كانت ذات أثر فى حياته عليه السلام بعد الإسلام.

والآن وقد انتهينا من ذكر أشهر أيام العرب — فاننا نختتم هذا الفصل فى الحالة الدينية والاجتماعية فى البيئة العربية الشمالية ، ونضمه شتات ما عساه أن يكون فاتنا من تاريخ عرب الشمال ، لنمهد بذلك لتاريخ بلاد العرب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى سنعالج حوادثه البارزة فى كتاب ثان إن شاء الله تعالى .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن كلامنا فى هذا الفصل ، سينصب فى مجموعه على عرب الشمال ، وإن كان سيلمس عرب الجنوب أيضا الذين لخصنا تاريخهم فى الباب الرابع من هذا الكتاب ، وذلك لأننا سنعالج بلاد العرب — فيما يلى — كوحدة واحدة قبيل ظهور الإسلام . أو فى العصر المعروف بعصر الجاهلية الذى يشمل القرن أو القرنين السابقين مباشرة لظهور الإسلام .

الباب الحادى عشر

الحجاز فى فجر ظهور الإسلام

١١٩ — وثنية العرب وأصنامهم:

لم يكن عرب الشمال — وغالبيتهم العظمى من البدو — شديدى التأثر بالدين ، كما كان عرب الجنوب — الذين وصفنا الحالة الدينية عندهم فى الفقرة ٦٠ من هذا الكتاب فارجع إليها . والعرب — كما يقولون — أمة شعراء ، الشعر سجل أعمالهم ، ولكنك قل أن تجد فيما وصل إلينا من الشعر الجاهلى ما يعكس لك صورة واضحة عن الحالة الدينية فى بلاد العرب ، وقد يكون السبب فى ذلك أن الشعر الدينى - بسبب اعتناق العرب للإسلام — وقد حظرت روايته فضاع . ويبدو أن العربى لم يكن يهتم للدين كثيراً ، يدلنا على ذلك ماوراه صاحب الأغانى من أن امرأ القيس بن حجر الكندى عند ما قتل أبوه مر بمعبد ذى الخلصة ، ليستقسم بالسهام ، فلما أخرج السادن سهم النهى ثلاث مرات قذف امرؤ القيس بالسهام فى وجه الصنم ، وقال : لو كان أبوك الذى قتل لما نهيتنى عن طلب الثأر له .

وفيما عدا الشعر فإن مراجعنا فى وثنية العرب قبل الإسلام تكاد تنحصر فيما ورد عن الوثنية فى القرآن الكريم — الذى يصور لنا الحياة الجاهلية فى نواحيها المتعددة من دينية واجتماعية أصدق تصوير وأروعه — وفى بعض ما كتب من الأدب الإسلامى ، ونخص بالذكر منه كتاب الأصنام للكلبى (المتوفى حوالى سنة ٨٢٠ م) .

وكانت معبودات العرب فى الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثن والنصب ، فأما الصنم فما كان على صورة إنسان من معدن أو خشب ، والوثن ما كان على شكل الإنسان من حجر ، أما النصب فهو حجر غفل ليس على صورة معينة .

ولعل الوثنية العربية كانت أبسط شكل للمعتقدات السامية ، فهى لم ترق كما رقت وثنية عرب الجنوب ، التى كانت لها معابد فاخرة ، وشعائر معقدة مما تتطلبه

حالة الإقامة ، على عكس عرب الشمال ، الذين كانوا فى الغالب بدوا ، وتشبه وثنية العرب معظم الوثنيات الأخرى ، فى وجود آلهة خاصة بالقبائل ، تنفرد كل قبيلة بعبادة إلهها ، وتشترك معظم القبائل فى عبادة الإله الأكبر .

وكانت المناطق الزراعية تعبد إلها يمت إلى الشمس بصلة ، وأوضح أمثلة لعبادة الشمس كانت فى مدينة تدمر ومدينة البتراء ، ولا يخفى أن سكان الأقاليم الزراعية قد أدركوا ما بين حرارة الشمس ونماء الزرع من علاقة (قارن هذا بعبادة المصريين القدماء لرع إله الشمس) .

وكان بعض قبائل البدو يدينون الطوطمية ، ويعبدون الحيوانات ، وتفسير هذا يمكننا أن نرجعه إلى ما كان يعود عليهم من نفع من الحيوان المعبود ومدى ارتباطهم به (قارن هذا أيضا بعبادة الحيوان عند قدماء المصريين) .

وكانت آلهة المناطق الزراعية — فى الغالب — من الآلهة الخيرة ، التى تجلب النفع للناس ، أما آلهة المناطق الجرداء فكانت من الآلهة الشريرة والشياطين ، وهذه كانت تعبد دفعا لأذاها ولاتقاء شرورها ، كما كانت تعبد الأولى استجلابا لرضاها واستدراراً لنفعها .

وعبد العرب أيضاً بعض مظاهر الطبيعة ، التى كانت تحيط بهم ، فعبدوا بعض الأشجار وعيون الماء والكهوف والحجارة ، ولكن عبادتهم لهذه الأشياء كانت كوسيلة لتقريبهم إلى الآلهة التى كانت — حسب ما يعتقدون — تتخذ مقارها فى بعض هذه الأشياء ، ولسنا ندرى إن كانت بئر زمزم قد عبدت قبل الإسلام ، ولكن القزوينى يذكر أن بئر عروة — كان الناس إذا مروا بها أخذوا من مائها يهدونه إلى أهليهم . أما الكهوف فكانت قداستها ترجع إلى أنها تتصل بقوى الآلهة السفلية ، وقوى باطن الأرض التى لا يرونها ، ومن أمثلة ذلك كانت غبغب فى نخلة ، حيث كان العرب يقربون للإلهة العزى .

كذلك عبد العرب بعض الأجرام السماوية ، ولعلهم تأثروا فى ذلك بالمجوس جيرانهم ، فعبدوا القمر ، وكانت عبادته شاسعة فى مناطق الرعى ، كما كانت عبادة الشمس شائعة فى مناطق الزراعة ، ويجب أن نذكر هنا أن ضوء القمر كان يهدى

بالليل ، وكان ظهوره ينظم لهم مواقيتهم ، وقد ورد فى القرآن ذكر ود ، وهو أحد آلهة القمر ، وكان أهم إله يعبد فى معين ببلاد اليمن .

وقد سبق أن أشرنا فى تاريخ اليمن فى الفقرة ٥٢ عند الكلام على قصة أصحاب الأخدود خبر نخلة فى نجران ، كان القوم يعبدونها هناك ، ولهذه النخلة نظير فى شجرة العزى ، المسماة بذات أنواط فى نخلة ، والتى كان يهرع إليها أهل مكة كل عام فيقدمون القرابين لها ، كما كان يقدم أهل نجران لنخلتهم قرابين من الأسلحة والملابس وغيرها ، وكانت اللات فى الطائف يمثلها حجر مربع ، وذو الشرى فى البتراء يمثله كتلة مستطيلة من حجر أسود غير منحوت ، يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام وعرضه قدمان ، وكان لكل من هذه الآلهة حمى من أرض المراعى المحيطة به ، لا يعتدى عليه ولا يعتدى فيه .

وكان البدو يؤمنون بأن الصحراء مسكونة بمخلوقات لها طبيعة الوحوش ، يطلقون عليها أسماء الجن والشياطين ، وكان الجن — فى نظرهم — يختلفون عن الآلهة من حيث طبيعتهم من جهة ، ومن حيث علاقتهم بالإنسان ، فالآلهة فى نظرهم كانت بصفة عامة أصدقاء لهم ، أما الجن فكانوا لهم خصوما ؛ ولعل ما تنطوى عليه الصحراء من هول ، وما يعمرها من وحوش — هو الذى دفعهم إلى هذا الاعتقاد ، وأرض الآلهة هى الأرض التى يطرقها الإنسان ، أما أرض الجن فهى أرض البرية التى لم يطرقها أحد ، ولعل لفظ المجنون بالعربية معناه الذى أصابه الجن .

ولسنا ننكر الجن فقد ورد ذكرهم فى أكثر من موضع فى القرآن وفى مناسبات متعددة ، ولكن المقصود بهم كان يختلف عما ذهب إليه العرب فى الجاهلية .

وقد ورد ذكر اللات والعزى ومناة فى القرآن ، وهذه الآلهات الثلاث كان العرب يسمونها بنات الله ، وكن يعبدن فى المنطقة التى أتيح لها أن تكون مهد الإسلام فيما بعد ، وقد ورد ذكرهن فى القرآن فى سورة النجم الآية ١٩ وما بعدها : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى » . (راجع قصة الغرانيق فى الفصل السادس من كتاب حياة محمد للدكتور هيكل باشا) .

فأما اللات (ولعلها مشتقة من كلمة الآلهة) فقد كان حماها وحرمها على مقربة

من الطائف ، وكان أهل مكة يحجون إليها ويقدمون لها القرابين ، وكان لا يجوز أن تقتلع أشجار من حماها ولا يصاد ولا يراق دم آدمى فيه ، وقد ذكر هيرودوت فى تاريخه اسم « أليلات » من بين آلهة الأنباط .

وأما العزى (وهى مؤنث الأعز وكان يقصد بها الزهرة « فينوس » نجمة الصباح) فكانت تعبد فى نخلة إلى الشرق فى مكة ، وقد ذكر الكلبى : أن قريشاً كانت تقدسها أعظم تقديس ، وأن النبى عليه السلام وهو حدث قدم لها بعض القرابين (فى ذلك شك) وكان حرمها يتكون من ثلاث أشجار ، وعبادتها تتطلب تقديم القرابين البشرية ، وكان اسم عبد العزى من الأسماء الشائعة المحببة عند العرب وقت ظهور الإسلام .

أما مناة (من المنية وهى القضاء المحتوم) فكانت إلهة القضاء والقدر ، ولعلها كانت من أقدم الآلهات عند العرب ؛ وكان حرمها عبارة عن صخرة سوداء فى قديد على الطريق بين مكة ويثرب ، وكان أعظم عبادها الأوس والخزرج ، الذين ناصروا النبى عليه السلام فى هجرته من مكة ، ولا يزال النظامون العرب يشكون المنية والدهر فى قصائدهم إلى يومنا هذا .

ونستطيع أن نقرر — بمناسبة هذه الآلهات الثلاث — أن عبادة الإناث كانت أسبق من عبادة الذكور فى فى بلاد العرب ، لأن العرب — شأن كل الساميين الأخر — كانوا يعلقون أهمية على دم الأمومة أكثر من دم الأبوة .

وكانت الكعبة مقر أوثان أكثر العرب وأصنامهم ، وكان هذا من الأسباب الذى جعلت لمكة وقريش الصدارة على كل مدن الحجاز وقبائله أما أشهر آلهة الكعبة ، فكان الإلهة هبل (واسمه مشتق من لفظ آرامى معناه الروح) وكان صنم هبل على صورة إنسان ، ذكر المؤرخون أنه كان من العقيق الأحمر مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلت له يداً من ذهب ، وكان تمثاله أعظم صنم معلق على الكعبة ، التى كان بداخلها صنمان يمثلان إبراهيم وإسماعيل ، وكان إلى جوار صنم هبل الأزلام وهى القداح أو السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها وكان الكاهن (وهو لفظ مأخوذ من الآرامية أيضا) يقرر مصائر الناس بوساطة هذه السهام ، وقد ذكر ابن هشام فى سيرته أن عمرو بن لحى الخزاعى هو الذى

أحضر هذا الصنم من مؤاب أو العراق إلى مكة ، ولقد أصاب بقوله هذا كبد الحقيقة ، لأن اسم الإله يحمل ذلك الاسم الآرامى ؛ ويقال أيضا إن عمرو بن لحى هذا هو الذى أتى بأساف ونائلة من أرض الشام ، ووضعهما فى داخل الكعبة فعبدا ، على أن هناك رواية أخرى تذكر أن أسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة أتيا الفاحشة فى داخل الكعبة فأحالتهما الآلهة أصناما . أما بقية القصة التى تقول إن عمرو بن لحى كان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى بلاد العرب بنقله هبل ، وأن العرب كانوا لا يعبدون أصناما قبل هذا — فهى بعيدة بعدا كبيرا عن الحقيقة ، وقد لقى هبل هو والثلثمائة وستون صنما التى كانت معلقة حول الكعبة مصرعها الأخير يوم الفتح على يد النبى صلى الله عليه وسلم .

ولا يجولن بالخاطر أن ما ذكرناه عن وثنية بلاد العرب — يستلزم أنهم كانوا لا يعبدون إلا الأوثان أو الأصنام ، إذ الثابت أن الشطر الأكبر منهم — إن لم يكن جميعهم — كانوا يعبدون هذه الحجارة والأصنام ، لا على أنها صاحبة الحول والطول ، بل على أنها وسيلة تقربهم إلى الإله الأكبر الذى كانوا يؤمنون به ، فكانوا كما قال الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فأنت ترى أن الله تعالى كان معروفا لديهم . وكلمه « الله » هى صورة من صور لفظ الإله المضاف إليها أداة التعريف ، مما يفهم منه أنه الإله الرئيسى ، وقد عثر النقابون على نقوش قديمة فيها لفظ « الله » ، وقد عثر على نقش فى الصفا يرجع عهده إلى ما قبل الإسلام بخمسة قرون ورد فيه لفظ الجلالة على هذا الشكل (هالله) ومعروف أن والد النبى عليه السلام كان يسمى عبد الله ، وكان أهل مكة قبل الإسلام — يعتبرون أن الله هو الخالق المعطى القاهر فوق عباده ، وهو الذى يفزع الناس إليه إذا اشتد الخطب ، كما يستدل على ذلك من آيات كثيرة فى القرآن نذكر من بينها قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » لقمان آية ٢٥ ، وقوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » الأنعام آية ١٠٩ .. الخ .

ولم يحل وقوع مكة فى واد غير ذى زرع ، وفى مناخ لا يوافق الصحة كثيراً ، دون أن يكون الحجاز بسببها أهم مركز دينى فى شمال بلاد العرب .

أما فيما يتعلق بآلهة بلاد العرب الأخرى — فإنا نذكر منها « نسرا » وكان على هيئة نسر و « عوف » وكان على هيئة طير كبير و « يغوث » وكان على صورة أسد و « يعوق » وكان على هيئة فرس ، وغيرها من الحيوان والطير مما يذكرنا بآثار الطوطمية الأولى .

ولا نستطيع أن نستنتج من ثنايا الأدب القديم الموثوق بصحته — ما يوضح لنا عقيدتهم فى الدار الآخرة توضيحاً كبيراً ، أما ما ورد على ألسنة بعضهم من ذكر للدار الآخرة ، فأكبر ظننا أنه كان صدى للمعتقدات المسيحية التى اتصلوا بها.

ونريد أن نذكر فى هذا الصدد أيضا — أن العرب قد توافقوا فيما بينهم على أن يجعلوا من بين شهور السنة أربعة شهور حرم ، لا يحل فيها القتال ، وكان غرضهم من ذلك أن يتيحوا لذوى الرأى فرصة يصلحون فيها ذات البين ، وهذا عدا حرصهم على الاطمئنان على متاجرتهم ، وعدم تعريض سلعهم للبوار والضياع ، وتشبه هذه الشهور الحرم — وهى شهور ذى القعدة وذى الحجة والمحرم ثم رجب الفرد — الهدنة الربانية التى كانت معروفة فى أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت الشهور الثلاثة الأولى تخصص للعبادة ، فيذهب الناس فيها من كافة أنحاء الحجاز وغيره إلى مكة ويقدمون القرابين من إبل وأغنام إلى آلهتهم ، أما الشهر الرابع فكان يخصص للتجارة ، ولا يخفى أن الحجاز — بوقوعه على طريق التجارة الرئيسى بين الشمال والجنوب — كان يتيح فرصة صالحة للنشاط الدينى والنشاط التجارى ، وهذا هو السبب الذى من أجله قامت أسواق للعرب فى الجاهلية ، ونخص بالذكر منها عكاظ ، التى كان فيها سوق أسبوعية تقوم يوم الأحد للبيع والشراء ، وسوق سنوية ينزلون به فى أول ذى القعدة ويستمرون عشرين يوما ، تجتمع فيها قبائل العرب فيتناشدون الأشعار ، ويتعارفون ويتحابون ويفدون أسراهم ، ويرفعون مظالمهم إلى من يقوم بأمر الحكومة ، ثم يتوجهون منها إلى مكة ، فيقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج ، ثم يرجعون إلى أوطانهم .

ومثل سوق عكاظ أسواق أخرى ، كسوق مجنة قرب مكة ، وسوق ذى المجاز خلف جبل عرفات .

ونريد قبل أن نختتم كلامنا عن ديانة العرب الوثنية قبل الإسلام — أن نذكر

أنه كان هناك أفراد منهم يطلق عليهم الحنفيون أو الأحناف (أى المنحرفون عن العبادة العامة) لم تكن تلك العبادات التى وصفناها تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم ، وأن طرائقهم التى هم عليها لا توصلهم إلى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوسل إلى الله بحجارة لا تضر ولا تنفع ؟ ومن أشهر هؤلاء ورقة بن نوفل الذى استحكم فى النصرانية ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وعبيد الله بن جحش ، وأمية بن أبى الصلت ، وقس بن ساعدة الأيادى ، وغيرهم ممن ترك عبادة الأوثان ، وإن كان لم يعتنق دينا سماويا . ووجود أمثال هؤلاء يدلنا على أنه كانت هناك حركة دينية قبيل البعثة النبوية ، تبحث عن دين إبراهيم الحنيف وتسب الأصنام ولا ترى فى عبادتها غذاءا روحيا يرضى عقلاء العرب ، ولكنها لم تكن حركة منتجة ، لأنها لم تؤد إلى شىء ما من التغيير فى عبادة الأوثان ، ولا إلى شىء من إصلاح أحوال العرب ، ولكنها — دون جدال — عبدت الطريق ، وجعلت فى بعض الأنفس شيئا من الاستعداد لقبول الإسلام ، ويطلق بعض المؤرخين على أولئك الذين ذكرنا اسم الحنفاء .

١٢٠ — المسيحية ببلاد العرب :

ذكرنا فى كلامنا على حضارة بلاد اليمن أخبار المسيحية فيها فارجع إليها . ونذكر هنا أن المسيحية كانت منتشرة فى قبائل تغلب وغسان فى الشمال ، ولسنا فى حاجة إلى القول بأن قرب هذه المناطق من أرض البيزنطيين ، كان من العوامل التى جعلت هذه الديانة تنتشر فى تلك الجهات ، على أنا لا نعدو الحقيقة إذ قررنا أن المسيحية لم ترسخ أقدامها ولم تجد لها أنصارا بين عرب الشمال لأن مبادئها وما انطوت عليه من حب للسلام لا يتفق مع طبيعة أولئك البدو ، وقد يكون من العوامل التى عاقت انتشار المسيحية ، أن الأباطرة لم يسعوا سعيا جديا فى نشرها ؛ كما أن ما كان بين المسيحية من خلاف وانقسام إلى فرق متناحرة ، وما تسلل إلى المسيحية من بعض مظاهر وثنية ، وكذلك مقاومة اليهود خفية لها ، لما كان بينهم وبين المسيحيين من خصومة — كان من العوامل التى أوقفت تقدمها ، وجعلت العرب يؤثرون وثنيتهم عليها ، وأشهر مذاهب المسيحية التى اعتنقها العرب مذهبان : مذهب النساطرة وكان شائعا فى الحيرة ، ومذهب اليعاقبة وكان شائعا فى غسان ، وغيرها من قبائل العرب الضاربة فى صحراء الشام .

١٢١ — اليهودية فى بلاد العرب :

كانت اليهودية أرسخ قدما فى بلاد العرب من المسيحية ، وقد ذكرنا فى تاريخ بلاد اليمن كيف تهود بعض ملوكهم فى أواخر دولة الحميريين ، وقلنا إن تهودهم كان لأغراض سياسية ، وهى مقاومة النفوذ البيزنطى ، وكراهيتهم للأحباش ، الذين كانوا يعتنقون المسيحية ، ونذكر هنا أن اليهودية دخلت بلاد العرب فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، وقد ذكر المؤرخون العرب — لدخول اليهود إلى بلاد العرب — أسباب أقرب إلى الخيال منها إلى التاريخ الصحيح ، ويكاد يجمع المؤرخون المحدثون على أن اليهود جاءوا إلى جزيرة العرب مهاجرين من فلسطين عندما ضاقت عليهم سبل الرزق فيها ، فهاجر فريق منهم إلى العراق ، وآخرون إلى مصر ، وغيرهم إلى بلاد العرب . ولما قضى الرومان على دولة اليهود ، واستولوا على فلسطين ، قامت عدة ثورات ضد نفوذ الرومان فيها ، أطفأها الرومان بشدة لم يستطع فريق من اليهود صبرا عليها ، فخرج من لم يستطع البقاء منهم إلى شبه جزيرة العرب ، التى كانت إذ ذاك بعيدة عن خطر الرومان ، ولما قامت الحروب اليهودية الرومانية حوالى سنة ٧٠ ق. م شتتت كثير من اليهود ، فانتشروا فى أصقاع الأرض — وكانت بلاد العرب بعض الجهات التى ذهبوا إليها (راجع فقرة ١١١) .

وأشهر المستعمرات التى أقاموا فيها هى يثرب وتيماء وفدك وخيبر ووادى القرى ، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : هم بنو النضير ، وبنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وقد اصطبغ اليهود بالصبغة العربية ، فعلى الرغم من كثرة عددهم كانوا يتكلمون العربية ، وكانت أسماؤهم عربية ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأنهم كانوا عربا تهودوا ، وأنهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية فى التوحيد ، ولو أنهم كانوا شديدى التمسك بدينهم .

ولا يخفى أن اليهود كانوا — فى شمال الحجاز إبان البعثة النبوية — قوة كبيرة تعادل قوة قريش فى الجنوب ، وكانوا أكثر من العرب ثروة وغنى وأوفر سلاحا وكانت بلدانهم حصينة ، وفى منطقة المدينة لم يكن الأوس والخزرج سوى أجراء لهم يعملون على تنمية زراعتهم ويخدمونهم بالأجر .

١٢٢ — المجوسية والصابئية :

بقيت كلمة واحدة عن أديان العرب قبل الإسلام ، وهى كلمتنا عن المجوس الذين اتخذوا النار إلها لهم ، لأنها فى نظرهم أساس الأرض ، بما عليها من وديان وجبال ، ومهد المجوسية الأصلى بلاد فارس ، ومنها انتشرت — بحكم الجوار — إلى المناطق المجاورة ، فوصلت إلى بلاد البحرين ، وانطبعت هناك بالطابع العربى ، فكانت عبادة الأجرام السماوية أهم مظاهرها ، وقد شيدت لها بيوت لعبادتها كان يتجه إليها للحج .

أما الصابئة فقد ورد ذكرهم فى القرآن فى ثلاث مناسبات ، وكانوا يعرفون فيها باليهود والمسيحيين دائما ، ومرة واحدة بالمجوس أيضا ، وقد ورد فى دائرة المعارف البريطانية : أنهم طائفة نصف مسيحية ، كانت تسكن فى بابل وتشبه مايعرفون « بمسيحي القديس يوحنا المعمدان » (يحيى بن زكريا) .. وربما كان لفظ الصابئة مشتق من لفظ آرامى معناه المغتسلة ، أى الذين يغسلون أنفسهم ، وهناك رأى يقول : أنهم كانوا عباد النجوم . ويذهب معظم المفسرين إلى القول بأنهم كانوا يمثلون دينا وسطا بين اليهودية والمسيحية يقول بالوحدانية ، ولكنه يعبد الملائكة .

وقد اختلف المؤرخون والمفسرون فى اعتبارهم من أهل الكتاب ، ولكن الأغلبية ترفض أن تعاملهم معاملة أهل الكتاب ، ولا ينفى هذا أنهم اعتبروا فى فترة ما — لأغراض سياسية — من أهل الكتاب .

وعلى الرغم من أن القوتين اللتين كانتا تحيطان ببلاد العرب — من الشرق وهى قوة المجوسية ، ومن الغرب وهى قوة المسيحية — كانتا أعظم قوتين فى ذلك العصر إلا أنهما كانتا ضعيفتى الأثر ، ومن أعجب الأمور أن تظل شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من انتشار الدعوة الدينية مسيحية أو مجوسية ، إلا فى قليل من قبائلها .

ونختم كلامنا عن ديانة العرب قبل الإسلام بهذه الآية الشريفة رقم ١٧ من سورة الحج التى جمع الله فيها أنواع الأديان فى جزيرة العرب وهى قوله تعالى :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » .

وننتقل الآن إلى الكلام عن وصف الحالة الاجتماعية بين عرب الشمال قبيل الإسلام

١٢٣ — حياة البدو :

جعلت طبيعة الأرض السكان في الشمال قسمين : حضر وبدو ، فأما الحضر : فهم الذين كانوا يسكنون المدن ، وقد ذكرنا في الفصل العاشر تاريخ أهم مدائنهم مكة والمدينة ، ونظام الحكم فيهما ، وحالتهما الاجتماعية . ونريد أن نذكر هنا أن الفروق بين البدو والحضر لم تكن محددة تماما ، فقد كانت هناك حالة نصف بدوية وحالة نصف حضرية ، ذلك لأن فريقامن البدو كانوا في الأصل حضراً ، وفريقا من الحضر كانوا في الأصل بدوا . والحضر هم سكان المدن ، أما البدو فهم سكان البادية ، الذين ليست لهم مدائن يقيمون فيها ، وكانوا قبائل ، لكل قبيلة رئيس أو شيخ يحكمها حسب العرف الذي كان يقوم عندهم مقام القانون الذي كان يرجع إليه الحضر . وكانت طبيعة البيئة التي تحيط بهم تحدوهم دائما إلى التقاطع وغزو بعضهم بعضا ، فكانت كلمتهم متفرقة ، على أنه كان يحدث أن تتحالف جملة قبائل ، فتصبح تحت لواء واحد ، وتكون الكلمة العليا فيها لمن بيده هذا اللواء ، وكان الوصول إلى رئاسة القبيلة أو القبائل المتحالفة إنما يكون بالغلبة أو بالحزم أو بالمال أو بالدسائس وكان رئيس القبيلة يمارس على أفراد قبيلته نفوذاً لا حد له ، فكلمته أمر يطيعه الجميع ، وكثيراً ما كان يستبد رؤساء القبائل استبداداً شديداً ، كما يستدل على ذلك من أخبار بعض أيام العرب (راجع حرب البسوس) وكانت العصبية بين أفراد القبيلة عظيمة جداً ، حتى أن القبيلة كانت تقوم بأجمعها انتصاراً لفرد من أفرادها ، وينصرونه ظالماً أو مظلوما ، فإذا تغلب العقل على بعض أفرادها كان ذلك وصمة عار لا تمحى . ويلي الاهتمام بالعصبية الاهتمام بالنسب ، ويدخل في باب النسب الولاء فللمولى من الحقوق ما للنسيب . والنسب يكون في بني الأب الواحد ، فإذا تشعبت البطون وافترق بنو الأب إلى قبائل — انحلت روابط القربة ، وحصل التنازع بين القبيلتين . ويقوم مقام النسب الحلف وهو بين قبائل العرب كالمعاهدات السياسية في

الوقت الحاضر — ويكون بين أهل النسب الواحد أو بين القبائل المتباعدة في النسب ومن أشهر أحلافهم التي رواها التاريخ : حلف المطيبين وحلف الفضول . ويقوم مقام النسب والحلف الجوار ، وهذا يجب الدفاع عنه والوفاء له ، ولو أدى إلى سفك الدماء ، وبذل الأموال .

وكانت طبقاتهم في النسب كالآتي :

(١) الشعب : وهو النسب الأبعد

(٢) والقبيلة : وهي الفرع من فروع الشعب

(٣) والعمارة : وهي القسم من القبيلة

(٤) والبطن : وهم فريق من العمارة

(٥) والفخذ : وهم فريق من البطن

(٦) والفصيلة : وهم فرقة من الفخذ

وكان يشترط في شيخ القبيلة أو الزعيم — إطلاقا — خمس صفات هي : الشجاعة والكرم والحلم والثروة وكثرة الأنصار . وكان توافر هذه الشروط من الأمور التي تستلزمهاطبيعة الحياة البدوية ، فالشجاعة كانت مطلوبة ، لأن البيئة البدوية بيئة غزو وغارات ، لأنها بيئة قليلة الموارد ، فالقبيلة التي كانت لا تملك شيئاً ترى من حقها أن تأخذ ممن يملك ، إن لم يكن بالتفاهم فبالغزو ، حتى لقد أصبح الغزو حالة عقلية مزمنة ، فإذا لم يجد البدوي من يغزوه ، غزا أصدقاءه ، ولقد صدق الشاعر — القطامي — الذي قال :

نغير من الضباب على حلول ... وضبة إنه من حان حانا

وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

ولم يكن البدوي حريصا — رغم هذا — على إراقة دم أخيه أو إراقة دمه ، فإذا استطاع أن يصل إلى مايريد دون إراقة دم فبها ونعمت . والكرم والضيافة ـ أيضا ـ من مستلزمات هذه البيئة . فقد كانا يخففان من شرور الغزو ، وكان الامتناع عن

إكرام الضيف ، فى أرض ليس فيها خانات ولا فنادق ، أو الإضرار به بعد قبوله ضيفا — يعتبر جريمة من الجرائم ضد مبادىء الأخلاق والشرف — المعترف بها فى البادية . وأما الحلم فكانت تستلزمه البيئة أيضاً لأن الجميع ولدوا فى مهاد الديمقراطية فترى البدوى يقابل شيخه وقد وقف معه على قدم المساواة ، لأن المجتمع الذى ولد فيه قد سوى بين الجميع وكما كان البدوى ديمقراطيا ، كذلك كان ارستقراطيا ، يعتقد أنه أعلى مثل للخليقة ، والأمة العربية فى نظره هى أفخر الأمم وأكثرها نبلا ، والرجل المتمدن أو ساكن الحضر أقل منه سعادة ودونه فى الرتبة ؛ وقد يكون سبب ذلك أن الصحراء عصمت البدو من الاتصال بالعالم الخارجى ، وكانت من العوامل التى أبقت على البدوى نقاء دمه ، وخلوص لغته ، وقداسة تقاليده .

والثروة لازمة لشيخ القبيلة لأنها تسهل له القيام بواجباته الأخرى كالكرم ، ولكى يحفظ البدو على الشيخ أمواله كانوا إذا أصابوا غنائم فى غارة من غاراتهم استخلص الزعيم لنفسه ما يأتى : (١) الصفى : وهو ما يصطفيه لنفسه قبل القسمة (٢) النشيطة : وهو ما يصيبه قبل أن يصل إلى من يريد غزوهم (٣) المرباع : وهو ربع الغنيمة (٤) الفضول : وهو ما لا تصح قسمته على عدد من الغزاة كالبعير والفرس .

وقد جمعها بعضهم فى قوله :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقل إن كنت تجد من بين أهل الصحراء سمينا مترهلا ، والسبب فى ذلك يرجع إلى قلة الغذاء ، وإلى إقفار ما حولهم من أرض ؛ لقد كان البدو – على حد تعبيرهم – مجموعة أو حزمة من الأعصاب والعضلات الدقيقة وكان طعامهم اليومى من التمر المخلوط بالدقيق أو القمح المحمص مع الماء واللبن ، كذلك كان لباسهم بسيطاً كطعامهم ، فكانوا يلبسون ثوبا هو عبارة عن قميص طويل يتمنطقون عليه ويضعون فوقه عباءة . أما لباس الرأس فكان الكوفية يحيط بها العقال ، ولم يكونوا يلبسون السراويل ، وقل أن كانوا يلبسون النعال ، وكان أشهر صفات ذلك البدوى الصبر والمروءة ، وهى فى نظرهم وليدة فضيلتين هما الشجاعة والكرم ، وخير ضروب الشجاعة ما كان دفاعا عن القبيلة .

وكانت كل أسرة تعيش داخل خيمة واحدة قد تكون من الوبر أو الجلد ، فإذا اجتمعت عدة خيام فى معسكر واحد أطلق عليها اسم الحى ، وأعضاء الحى الواحد يطلق عليهم اسم القوم ، وإذا اجتمع عدة أقوام تربطهم صلة القربى كونوا ما يعرف باسم القبيلة ، ويعتبر أفراد القوم الواحد أنفسهم أبناء دم واحد يخضعون لرئيس واحد ، هو فى الغالب أسن أعضاء القوم ، ويتداعون إلى الحرب بقولهم : يا بنى فلان ، وفى بعض الأحوال يدعون بيا بنى فلانة مما يدل على بقايا نظام الأمومة الذى كان أسبق على نظام الأبوة ، وكان البدوى لا يملك ملكا خاصا إلا خيمته ، وما تنطوى عليه من متاع متواضع ، أما الماء والمرعى والأرض الزراعية — إن وجدت — فكانت ملكا للقبيلة بأجمعها . وإذا ارتكب أحد أفراد القبيلة فى داخلها جريمة القتل — لم يجد من يحميه ، فإذا فر عد طريداً أو خارجا على القانون ، فإذا حدثت جريمة القتل خارج القبيلة احتمل أى فرد من القبيلة الجناية ، كما لو كان هو الجانى ، وكان العرف القائم فى الصحراء ينص على أن الدم لا يغسله إلا الدم ، ولقد كان هذا المبدأ هو الأساس فى كثير من أيام العرب التى وصفنا بعضها سابقاً ، وكان فى بعض الأحيان تقبل الدية .

وننتقل الآن إلى نقطة طال فيها الخلاف والجدل ، وهى مركز المرأة ، ثم حالة العربى الأسرية .

١٢٤ — المرأة العربية :

اختلفت الأقوال فى المرأة عند العرب ؛ فمن قائل إنها كانت فى طبقة تلى طبقة الرجل ، وإن منزلتها كانت منحطة عن منزلة الرجل ، ويستدلون على ذلك : بأن البيئة البدوية بيئة حرب ، والمرأة قليلة الغناء فى الحروب التى هى أساس حياتهم ، ويستدلون على ضعة مركزها : بما كان يحدث من وأد البنات وحرمان النساء من الإرث . والفريق الثانى ، يقرر : أن الرجل ما كان ينظر إلى المرأة نظرة الاستخفاف أو الاستهانة ، وأن فريقا من العرب كان يفتخر بانتسابه إلى أمه كما يفتخر بانتسابه إلى أبيه ، ويدللون على صدق نظريتهم ؛ بما ورد فى الشعر العربى – الذى هو ديوان أخبارهم – من أن الرجل إذا أراد أن يمتدح بالكرم والشجاعة لم يكن يخاطب إلا المرأة ، اعتقاداً منه أنها رضيت عنه فقد رضى الناس عنه جميعاً (راجع أشعار حاتم الطائى وعنترة العبسى) ودليل ثان : هو فخر العربى بأنه المدافع عن الحريم

لأن ما عرف عن العرب من المحافظة على الأنساب والغيرة على العرض والشرف - يجعلنا نعتقد أن ذلك لم يكن شائعا إلا فى أحط الأوساط ، وكانت لدى العرب بعض العادات المستهجنة ، من ذلك : أن الرجل كان إذا قابل آخر ليس من قبيلته - ومعه ظعينة - تقاتلا ، فإن غلبه أخذ الظعينة ، واستحلها لنفسه .

كذلك كان بعض العرب يئدون بناتهم أحيانا ، وقد اختلف الباحثون فى البواعث التى كانت تحملهم على الوأد ، ففريق منهم يقول : إن الباعث كان الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد ، وآخرون كانوا يقولون : إن الباعث كان الحرص على صيانة العرض ، وخشية أن تجر البنت العار على عشيرتها فى المستقبل ، وقد وصل الدكتور على عبد الواحد أستاذ الاجتماع بكلية الآداب إلى رأى جديد يقول : إن وأد البنات كان لدافع دينى بحت ، ذلك لأن العرب كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أو من خلق آلهة غير آلهتهم ، ينبغى التخلص منهن ونحن نرى أن هذه الأسباب مجتمعة قد تكون السبب فى الوأد ، ونذكر فى هذه المناسبة : أن الوأد لم يكن قاصراً على البنات بل كان يشمل الأولاد الذكور أيضاً ، وأنه كان شائعاً فى بعض الطبقات المنحطة ، وقليل الشيوع بين الطبقات الراقية .

وكانت معاملة العربى لابنه تنطوى على الحنان والمحبة : يربيه ليكون درعا يتقى به العدو ، ولذلك كانوا يتخيرون لأبنائهم شر الأسماء ، مثل : أسد وكلب وثور وفهر وصخر .

أما معاملته لأخيه وابن عمه ، فكانت تنطبق على المثل الجاهلى — الذى أشرنا إليه آنفا — وهو انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقى لا المعنى الذى تعورف عليه بعد الإسلام : بأن نصرة الظالم تكون بالأخذ فوق يديه .

١٢٦ — بعض عادات العرب ومعتقداتهم الميثولوجية :

نعدد فيما يلى بعض العادات التى يصادفها الباحث — مفصلة ومبينة فى أخبار العرب وأشعارهم :

١ — كان إذا مرض أحد الملوك أو الزعماء — حملته الرجال على أكتافها يتعاقبون .

٢ — تحريم الخمر على أنفسهم حتى يثأروا لقتيلهم .

٣ — التعقية أوسهم الاعتذار ، وأصل هذا : أن يتقدم جماعة من أهل القاتل إلى أولياء المقتول — إن كانوا من غير ذوى البأس — فيطلقون سهما نحو السماء

الحامى للشرف ، ودليل ثالث : هو بدء معظم الشعراء قصائدهم بالنسيب ورابع : رقتهم فى عتاب المرأة أو جدلها إذا هى عذلتهم على السرف وأشارت عليهم بالقصد. ودليل خامس : هو تلقيبها - وهى زوج أو أم - بخير الألقاب مثل يا ربة القوم ويا أم مالك . ولا شك أن الكنية فيها شىء من التعظيم ، ودليل سادس هو استشارة الرجل امرأته وبناته فيمن يأتى إليه خاطبا ، ونحن لا نستطيع أن نستشف من بين أقوال الفريقين ما يجعلنا نميل الميل كله إلى رأيه ، وأكبر ظننا أن احترام المرأة أو احتقارها ، لم يكن أمراً عاما عند كل الناس ؛ ولا فى جميع الطبقات ، ونرى - لزاما علينا - أن تقرر هنا أن الإسلام كان له الفضل الأكبر فى رفع مستوى المرأة ووضعها فى المركز اللائق بها .

١٢٥ — الزواج والأسرة :

كان العرب يعددون الزوجات ، ولم يكن هناك حد معروف لعددهن ، ولعل ذلك كان نتيجة لزيادة عدد النساء على الرجال بسبب قتل الرجال فى الحروب . وكانوا يطلقون ، فإذا أراد الرجل أن يطلق زوجته يقول لها : الحقى بأهلك ، أو ما يماثل ذلك . وكان للمرأة فى بعض الأحيان الحق فى أن تطلق نفسها ، وطلاق المرأة كان يعرف بأن تحول باب بيتها المصنوع من الشعر أو الوبر أو الجلد إلى جهته الأصلية ، ولكن الجمهور كان يجعل حق الطلاق للرجل ، وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد زواج بعد رضائها ورضاء أوليائها ، وبعد أن يتفقوا على مهر معين ، وكان بعضهم يتغالى فى مهر البنات حتى يبلغ مبلغا عظيما .

وقد كانت هناك بعض أنكحة فاسدة أبطلها الإسلام نخص بالذكر منها :

(١) نكاح البغايا (٢) نكاح الاستبضاع (٣) نكاح الجمع (٤) نكاح المقت : وهو أنه إذا مات الرجل وترك زوجة وله أولاد كبار قام أكبرهم ووضع عليها ثوبه ، فيرث بذلك زواجها ، فإذا لم يكن راغبا فى نكاحها زوجها إلى من يريد من إخوته الباقين بمهر جديد (٥) أنكحة أخرى شاذة : كنكاح الأمهات والبنات والجمع بين الأختين ، ولكن هذا كان نادراً ، ولعله تسرب إليهم عن طريق المجوس ، وقد أطلق فى الإسلام على كل هذه الأنكحة اسم السفاح ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان مقصوراً على فئات خاصة منهم ،

فإن رجع مضرجا بالدم امتنعوا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد مسحوا لحاهم وصالحوا على قبول الدية (قال ابن الإعرابى ما رجع قط إلا نقيا ولكنهم يعتذرون به عند الجهال) .

٤ — الخلع واللعن : فأما الخليع فهو الذى خلعه أهله وتبرءوا منه لخبثه ، فكان الرجل يأتى بابنه إلى الموسم ، فيقول خلعت ابنى هذا فإن جر لم أضمنه وأن جر عليه لم أطلبه .

وأما اللعين : فهو تمثال الرجل الغادر ، كان يجعل من طين وينصب . وقد أبطل الإسلام هاتين العادتين .

٥ — جز النواصى : فكانت العرب إذا أنعمت على الرجل الشريف بعد أسره جزوا ناصيته (وهى الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة) فتكون الناصية عند الرجل الآسر يفتخر بها .

٦ — شد اللسان : وذلك أنهم كانوا إذا أسروا أسيراً وكان شاعرا ربطوا لسانه بنسعة (سير منسوج) .

٧ — خضاب نحور الخيل : فكانوا إذا أدرك خيلهم الصيد يخضبون نحر السابق بدم الصيد ، وقد بطلت هذه العادة بعد الإسلام .

٨ — وأد البنات وقتل الأولاد ، وقد تكلمنا عنهما فى الفقرة السابقة .

٩ — حبس البلايا فى الولايا : وذلك أن الرجل إذا مات - كانوا يشدون ناقته إلى قبره ، ويقبلون برأسها إلى ورائها ، ويغطون رأسها بولية (برذعة) فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى ، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه فى الميعاد ليركبها .

١٠ — الهامة : كانوا يزعمون أن الإنسان — إذا قتل ولم يطالب بثأره — خرج من رأسه طائر كالبومة يسمى الهامة ، وصاح اسقونى اسقونى حتى يطالب بثأره .

١١ — تصفيق الضال : كان الرجل — إذا ضل فى الفلاة — قلب ثيابه ، وحبس ناقته ، وصاح فى أذنها بكلمات خاصة ، وصفق بيديه ، ثم يحرك الناقة ، فيزعمون أنها تهتدى إلى الطريق .

١٢ — ضرب الثور ليشرب البقر : كانوا يزعمون أن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب ، فيضربون الثور ليشرب البقر .

١٣ — مسح الطارف عين المطروف : كانوا يزعمون أن الرجل إذا طرف عين صاحبه فهاجت ، فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات سكن هيجانها .

١٤ — كى السليم من الإبل ليبرأ الجرب منها : كانو يزعمون أن الإبل إذا شمت رائحة كى الصحيح ، برأت من جربها .

١٥ — ذهاب الخدر من الرجل : كانوا يقولون إن الرجل إذا خدرت رجله ، فذكر أحب الناس إليه ذهب الخدر .

١٦ — رمى سن الصبى المثغر فى الشمس : يقولون إن الغلام إذا أثغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبابته وإبها ، فقد أمه على أسنانه العوج والفلج والثغن .

١٧ — العيافة : وهى زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها واتجاهاتها وممراتها ، وبذلك يتشاءمون ويتفاءلون .

١٨ — النهيق لاتقاء الوباء : كانوا يعتقدون أن الرجل إذا قدم قريته ، وخشى وباءها ، ونهق قبل أن يدخلها مثل الحمار ، لم يصبه الوباء .

١٩ — التفقئة والتعمية : وذلك أنه كان إذا بلغت إبل أحدهم ألفا فقأعين الفحل ، فإذا زادت عن الألف فقأعينه الأخرى ، ويزعمون أن ذلك يكف العين عنها.

ونجتزىء بهذا القدر من عادات العرب وخرافاتهم ، ونلفت النظر إلى أن بعض هذا شائع فى البيئة المصرية ، وأن التاريخ والبحث أثبت أنه متوارث من أيام الفراعنة .

وننتقل الآن إلى مانريد أن نختم به هذا الكتاب الأول ، وهو وصف الحالة الثقافية فى الحجاز قبيل الإسلام ، ومدى ما كان لسبأ والحبشة وفارس والغساسنة واليهود من آثار فيها .

١٢٧ — تأثر الحجاز بثقافات الأمم المجاورة :

على الرغم من أن الحجاز ، لم يكن قبيل الإسلام واقعا فى مجرى التيار العالمى ، من ناحية الثقافة ، إلا أنه لم يكن بمنأى عنها فلقد تسربت إليه من بلاد العرب الجنوبية بعض الآثار الثقافية ، بما لقحت به لغة العرب الشماليين ، ونقصد بها لغة قريش التى تمكنت فى هذا القرن السابق على الإسلام ، من أن تسود لغات العرب أجمعين ، وتصبح لها الصدارة بين كل لهجاتهم ، فألفاظ الرحمن والرحيم وشرك وكفر وغيرها هى ألفاظ جنوبية سلكت سبيلها إلى الحجاز واستعملت فى المعانى التى كانت تطلق عليها فى الجنوب كما تدل على ذلك النقوش التى كشفت حديثا .

كذلك كان لسكان الحبشة الساميين أثر فى ثقافة الحجاز ، وقد سبق أن درسنا أن الحبشة كانت تشترك مع دولة حمير فى احتكار تجارة التوابل والأفاوية فى العالم القديم ، التى كان الحجاز طريق نقلها الهام . ودرسنا أيضا بأنه فى الخمسين سنة السابقة

لميلاد النبي عليه السلام ، كانت الحبشة تحكم اليمن ، وأنه فى عام ميلاده — أى عام الفيل — كانوا يهددون مكة والكعبة بالغزو ، وكانت مكة نفسها مقراً لكثير من الأحباش الذين كانوا — فى الغالب — يعتنقون المسيحية ، وكان بلال مؤذن الرسول عبداً حبشيا ، وفى القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى البحر وركوبه وأمواجه وكان العرب يعرفون هذا بسبب علاقاتهم البحرية مع الحبشة . وفى تاريخ السيرة : أن المسلمين المضطهدين من قريش الوثنية ، هاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة . وإذا تعقبنا الألفاظ العربية التى ترجع إلى أصل حبشى ، وجدنا فيها مايثبت لنا ذلك التأثير الثقافى ، ومن هذه الألفاظ نذكر الكلمات الآتية : برهان — حواريون — جهنم (وأصلها عبرى) — مائدة — ملك (أحد الملائكة وأصلها عبرى)— محراب منبر — مصحف — شيطان . وقد أورد السيوطى فى كتابه الإتقان الكثير من الكلمات الأعجمية التى وردت فى القرآن .

وفى القرن السابق لتأسيس الإسلام كان كل من فارس والحبشة يتنازعان السيطرة على اليمن ، ولقد انتقلت فنون فارس الحربية إلى الحجاز عن طريق اليمن ، كما انتقلت — أيضاً — عن طريق الحيرة . ومن المعروف أن سلمان الفارسى هو الذى أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم بحفر خندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، وكانت الحيرة من العوامل التى نشرت الثقافة الفارسية فى بلاد العرب كما كان لها أثر فى نقل بعض مظاهر الثقافة الآرامية النسطورية قبل أيام الرسول. ولما كان النساطرة أنفسهم متأثرين بالحضارة الإغريقية ، فقد كانوا أيضا واسطة فى نقلها مع ثقافتهم والثقافة الفارسية إلى قلب بلاد العرب الوثنية . ومن الألفاظ الفارسية التى دخلت إلى اللغة العربية ، لفظ الفرند (السيف) — والفردوس — وسجيل (حجارة) — والبرزخ — وزنجبيل — وخندق — وغيرها .

وكما كان لنساطرة الحيرة هذا الأثر الثقافى فى الحجاز ، كذلك كان ليعاقبة الغسانيين أثر فى شعب الحجاز أيضا ، وقد نقلوا إليه ما تأثروا هم به بحكم جوارهم لبيزنطة . ومن الأسماء التى شاع استعمالها نقلا عنهم أسماء : داود — وسليمان — وعيسى — وغيرها من الأسماء التى شاعت ، إلى حد ما ، قبيل الإسلام فى بلاد العرب . على أننا يجب ألا نغالى كثيراً فى هذا الأثر من اليعاقبة والنساطرة ، لأن المسيحية كما بينا فى الفقرة (١٢٠) — لم ترسخ أقدامها فى بلاد العرب ، ومن الألفاظ التى نقلها مسيحيو الغساسنة إلى اللغة الغربية ما يأتى : كنيسة — وبيعة — ودمية — وصورة ـ وقسيس ـ وصدقة ـ وناطور ـ ونير ـ وفدان ـ وقنديل (وهذه مأخوذة

من أصل لاتينى هو كنديل) — وقصر — (وهذه مأخوذة من كسترم اللاتينية التى تحولت إلى قسطرا السريانية وقصر الآرامية) .

وتأثرت بلاد العرب بالتوحيد اليهودى ، كما تأثرت بالتوحيد المسيحى ، وقد سبق أن قلنا إنه كان لليهود مستعمرات زاهرة فى المدينة ، وبعض الواحات الخصبة فى شمال الحجاز . ومن الألفاظ التى دخلت العربية على طريق العبرية لفظ جبريل ـ وصورة — وجبار . وقد أورد الجمحى فى كتابه طبقات الشعراء تراجم الكثير من شعراء اليهود فى المدينة ، كما روى صاحب الأغانى كثيراً من أشعار اليهود ، ولكن الشاعر الوحيد اليهودى الذى وصلنا ديوانه — هو السموأل «صمويل» صاحب حصن الأبلق قرب تيماء وهو معاصر لامرىء القيس الكندى . على أنا لا نستطيع إذا تصفحنا شعره أن نتبين فيه ما يميزه عن بقية الشعر الوثنى ، وهذا هو الذى حدا بكثير من النقاد إلى الشك فى يهودية السموأل . وقد سبق أن قلنا إن اليهودية أصبحت فى عهد ذى نواس دين الدولة الرسمى فى اليمن .

وقصارى القول وحماداه أنا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن بلاد الحجاز كانت فى القرن السابق لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تدوى بأصداء من تأثرات مختلفة بين عقلية ودينية ومادية ، منعكسة من بيزنطة والشام وفارس والحبشة ، سلكت سبيلها من ناحية الغساسنة واللخميين واليمن ، ولكن إلى جوار ذلك نستطيع أن نقرر أيضاً أن الحجاز لم تكن اتصالاتها بهذه النواحى من الحيوية بحيث تستطيع أن تطبع نفسها بذلك الطابع العالى لهذه الحضارة الشمالية .

ويخيل إلينا أن وثنية شبه الجزيرة قد وصلت — فى هذا الدور — إلى درجة فشلت معها فى أن تكون غذاء روحيا للشعب العربى . وكانت كافة الملابسات — وبخاصة بعد أن فشلت اليهودية والمسيحية فى تثبيت أقدامها — تنبىء بأن تغيراً لا بد أن يحدث . لقد كان الناس جياعا إلى الغذاء الروحى وعافت نفوسهم ما قدمته إليهم المسيحية واليهودية ، فتسلوا ذلك الغذاء الروحى فى الحنيفية القديمة دين إبراهيم ولكنهم كانوا حيارى . لقد عمت الفوضى فى عالمى السياسة والدين ، وكانت لحظة رهيبة ، وكان العالم العربى بأجمعه ، أو الشطر الأكبر منه على الأقل ، فى حالة نفسية رائعة ، كأنما كان ينتظر بفارغ الصبر ظهور دين عظيم ، وزعيم قومى كبير ، وإذا بالعناية الإلهية ، المطلعة على خلجات الصدور ، وخفايا الآلام ، تبعث بالزعيم العربى ونبى الإسلام سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل صلاة وأزكى سلام .

انتهى ولله الحمد

فهرست

الباب الأول : دراسات تمهيدية ١ — ١٣

١ — اضطراب تاريخ العرب قبل الإسلام وغموضه ٢ — مصادر التاريخ القديم ٣ — الكتب المقدسة ٤ — التفاسير ٥ — مؤرخو اليونان والرومان ٦ — مؤرخو العرب ٧ — النقوش الكتابية ٨ — آثار الجنوب ٩ — آثار الشمال ١٠ — الآثار خارج الجزيرة ١١ — المستشرقون المحدثون ١٢ — الأدب العربى ١٣ — موطن الجنس السامى الأول وهل هو بلاد العرب ١٤ — معنى كلمة عرب .

الباب الثانى : الوطن العربى ١٤ — ٢٩

١٥ — موقع شبه جزيرة العرب وحدودها ١٦ — بلاد العرب فى نظر الجغرافيين القدامى ١٧ — وصف بلاد العرب الطبيعى ١٨ — تقسيم العرب لبلادهم ١٩ — اليمن ٢٠ — الحجاز ٢١ — تهامة ونجد والعروض ٢٢ — بعض تفصيلات طبوغرافية ٢٣ — جيولوجية بلاد العرب ٢٤ — مناخ بلاد العرب ٢٥ — نبات بلاد العرب ٢٦ — حيوان بلاد العرب

الباب الثالث : الشعب العربى ٣٠ — ٤٧

٢٧ — أقسام العرب ٢٨ — العرب البائدة ٢٩ — عاد ٣٠ — عاد فى كتب العرب ٣١ — ثمود ٣٢ — ثمود والكشوف الحديثة ٣٣ — أقصوصة طسم وجديس ٣٤ — بقية القبائل البائدة ٣٥ — العرب العاربة ٣٦ — العرب المستعربة ٣٧ — بعض الفوارق بين عرب الجنوب وعرب الشمال .

الباب الرابع : تاريخ اليمن ٤٨ — ٨٥

٣٨ — تمهيد ٣٩ — رأى الأستاذ نيكلسون ٤٠ — أدوار التاريخ اليمنى القديم ٤١ — الدور الخرافى ٤٢ — الدور البنطى ٤٣ — الدور المعينى ٤٤ — الدور السبئى ٤٥ — ملكة سبأ ٤٢ — سقوط دولة سبأ ٤٧ — الدور الحميرى ٤٨ — الدولة الحميرية الأولى ٤٩ — الدولة الحميرية الثانية ٥٠ — حمير والتبابعة عند العرب ٥١ — الدور الحبشى ٥٢ — قصة أصحاب الأخدود ٥٣ — غزو الحبشة لليمن ٥٤ — اليمن تحت حكم الحبشة ٥٥ — محاولة أبرهة غزو الكعبة ٥٦ — سوء سيرة الأحباش فى اليمن ٥٧ — الدور الفارسى ٥٨ — الحكومة والحالة الاجتماعية ٥٩ — التجارة والزراعة والصناعة والفنون ٦٠ — اللغة والدين ٦١ — سد مأرب أو سد العرم ٦٢ — وصف السد والغرض منه وتصدعه ٦٣ — تفرق قبائل اليمن فى الشمال بعد تصدع السد

الباب الخامس : تاريخ الأنباط ٨٦ — ٨٩

٦٤ — تمهيد ٦٥ — دولة الأنباط ٦٦ — حضارة الأنباط

الباب السادس : تاريخ تدمر ٩٠ — ٩٤

٦٧ — دولة تدمر (بلميرا — بالمرينا) ٦٨ — الحضارة التدمرية

الباب السابع : تاريخ الحيرة ٩٥ — ١٠٩

٦٩ — تمهيد ٧٠ — الحيرة وسكانها ٧١ — الدور الميثولوجى ٧٢ — قصة الزباء ٧٣ — امرؤ القيس بن عمرو ٧٤ — النعمان الأول ٥٧ — المنذر الأول ٧٦ — المنذر الثالث ٧٧ — عمرو بن هند ٧٨ — النعمان الثالث ٧٩ — بعض أخبار النعمان الثالث ٨٠ — إياس بن قبيصة الطائى ٨١ — حضارة دولة الحيرة

الباب الثامن : تاريخ الغساسنة ١١١ — ١١٦

٨٢ — تمهيد ٨٣ — الحارث بن جبلة ٨٤ — المنذر بن الحارث
٨٥ — جبلة بن الأيهم ٨٦ — حضارة الغساسنة

الباب التاسع : تاريخ كندة ١١٧ — ١٢١

٨٧ — تمهيد ٨٨ — حجر بن عمرو الملقب بآكل المرار .
٨٩ — الحارث بن عمرو الكندى

الباب العاشر : تاريخ الحجاز ١٢٢ — ١٦٢

٩١ — تمهيد ٩٢ — إسماعيل وتأسيس مكة ٩٣ — نشأة إبراهيم الأولى ٩٤ — إبراهيم فى مصر ٩٥ — إسماعيل فى مكة ٩٦ — من الذبيح ؟ إسماعيل أم إسحق ؟ ٩٧ — تاريخ الكعبة ٩٨ — بنو إسماعيل فى مكة ٩٩ — الجراهمة فى مكة ١٠٠ — الخزاعيون فى مكة ١٠١ — قصى زعيم النهضة القرشية ١٠٢ — إصلاحات قصى ١٠٣ — الحالة بعد قصى ١٠٤ — ازدهار مكة فى عهد هاشم بن عبد مناف ١٠٥ — عبد المطلب بن هاشم ١٠٦ — حفر عبد المطلب لزمزم ١٠٧ — افتداء عبد الله بمائة من الإبل ١٠٨ — نظام الحكم فى الجمهورية المكية ١٠٩ — أثر الغزو الحبشى فى أهل مكة ١١٠ — الحزب الهاشمى والحزب الأموى ١١١ — تاريخ المدينة ١١٢ — يوم سمير ١١٣ — يوم السرارة ١١٤ — يوم حاطب ١١٥ — يوم باعث ١١٦ — أيام العرب الأخرى ١١٧ — حرب البسوس ١٨١ — حرب داحس والغبراء .

الباب الحادى عشر : الحجاز فى فجر ظهور الإسلام ١٦٣ — ١٨١

١١٩ — وثنية العرب وأصنامهم ١٢٠ — المسيحية ببلاد العرب ١٢١ — اليهود ببلاد العرب ١٢٢ — المجوسية والصابئية ١٢٣ — حياة البدو ١٢٤ — المرأة العربية ١٢٥ — الزواج والأسرة ١٢٦ — بعض عادات العرب ومعتقداتهم الميثولوجية ١٢٧ — تأثر الحجاز بثقافات الأمم المجاورة .